إحسان شرارة

حسن الأمين

رحّالةً وأديباً ومؤرخاً



دار المنهل اللبناني

حَسَن الأَمين

رحّالةً وأديبًا وَمُؤرخًا



(أطروحة ماجستير في الادب العربي)
- جامعة الكسليك

إحسان شرارة

دار المنهل اللبناني

دار المنهل اللبناني

• حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

• الطبعة الأولى ٢٠٠٦م - ١٤٢٦هـ

• الكتاب: حسن الأمين: رحّالة وأديباً ومؤرخاً

• المؤلف: إحسان شرارة

• الناشر: دار المنهل اللبنانيّ

• التوزيع: مكتبة رأس النبع

• العنوان: بيروت - رأس النبع - شارع محمد الحوت

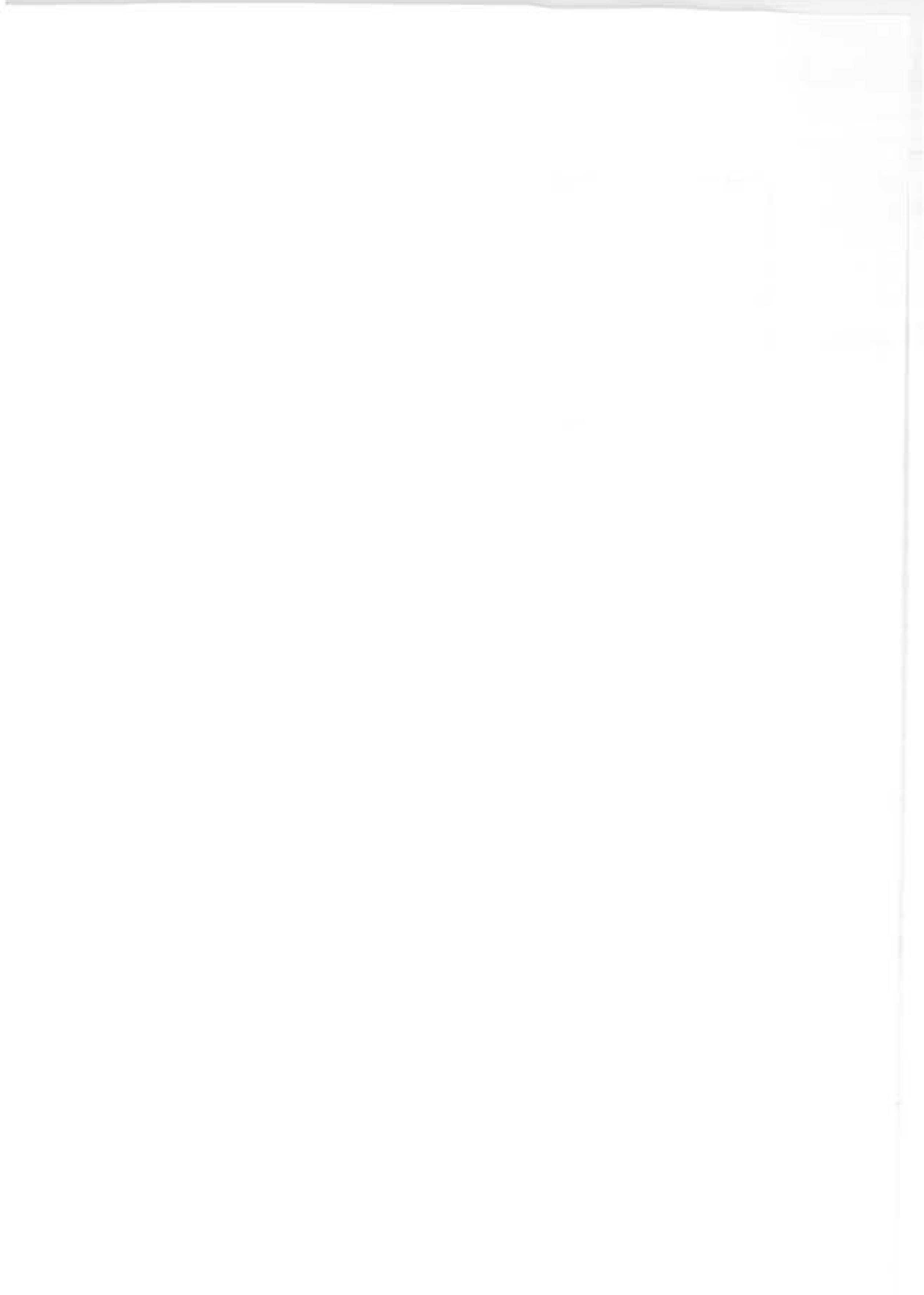
• تلفون: ٠١/٦٣١٦٥٤ - ٠٣/٢٢٦٣٢٥ - تلفاكس: ٠١/٦٣٣٤٣٣

محتوى البحث

كلمة شكر

اعترافاً مني باللفتات الكريمة، وتقديراً لجزيل المساعدة من الدكاترة: العميد طانيوس نجيم، ومتري بولس، وجوزف شريم، وجورج كرباج (جامعة الروح القدس) وإبراهيم بيضون (الجامعة اللبنانية)، أقدّم فائق شكري، وعظيم امتناني على ما بذلوه نحوي من رعاية وتوجيه وتشجيع، وأملي كبير أن أكون جديراً بثقتهم وأن يحظى ما كتبت ببعض رضاهم.

إحسان شرارة



تقديم

لن يطول انتظارك، وإذا أنت أمام باب كبير ينفتح على أبواب كثيرة، وكأنك في عالمٍ مسحور من غابر الزمن البعيد.. ولو شئتَ الوغول وراء السجف، لَما أبصرت سوى عمائم وكتب وأقلام، تنبىء بأن هجرة عبرت لتوّها، وموكباً آخر للفتوح يخترق الدّوي في ذلك المدى النوراني.

والفتح لا يكون فقط بالسيف، كما الهجرة، ليست المحطة الأخيرة في التاريخ، ولكن كليهما عابق في حركة الأخير، عندما تحين لحظةُ التحوّل، ناشرةً الضوء في العقول الراغنة إلى جمود طال مكوثه، وجهلٍ أَسِن في المكان.. فهي «هجرةٌ قائمة»، وفتحٌ لم يستكن على مدار التاريخ العاملي، مقروءٌ باثنين: سيفٍ وقلم، منذ أن حامت حوله روح الغفاري الثائر على الظلم، حتى انبثاق المقاومة من دمِ الحسين، ممتشقةً سيفه في وجه الطواغيت، ومُقتبسةً نهجه في التمرّد على الذّل، حتى انعقد لها النصر الاستثنائي، المدموغ بتلك الهجرة، ثقافةً وثورةً ولحظة عنفوان.

من هذا الباب إذاً، نقرأ جبل عامل، التراث المائج في تداعيات

الأزمنة، فلا تكاد تجد فجوة في سياقه، إلاّ ما أتت عليه النيران وحملات القهر، لينهض سريعاً من كبواته، متحدّياً بالسلاح عينه، متشبّثاً بالأرض، مسكوناً، وفي وعيه التاريخ بهواجس الحاضر، بما يتعدى المجال والأفق والحدود. والقراءة ليست انتقائية، إذ يصعب عليك المرور بين تلك القامات، والكلّ في جعبته ما يثيرك ويحفّزك إلى أن تكون قريباً من الينابيع، رافئاً إلى مجالس تصطفق بذلك التراث. ولن يمضي بك الوقت كثيراً، حتى تجد نفسك أمام «هجرةٍ» جديدة، انطلاقها من «الحلّة» في العراق حيث المدرسة الرائدة التي تأسست على «الرأي»، ذلك الذي تفتّح في مسيرة التجديد، للعلامة السيد محسن الأمين، بما يمثّله من نمطٍ مختلفٍ في زمانه، ليس فقط رجل دين، مأخوذاً بالطقوس أو منكباً على العلم، ولكن أيضاً في أهمية الدور الذي تصدّى له، رافضاً الجمود ومنحازاً إلى الإسلام - العقل، بعيداً عن كلّ ما يعوق حركته السديدة وفكره القيمي ورسالته الإنسانية. فقد كان العلاّمة الأمين فقيهاً أنموذجاً، في نهجه التربوي و«ثورته» الإصلاحية وخطّه الوطني، من سلالة أولئك المجاهدين الذين كرّسوا الوقت كلّه للعلم والمجتمع، ودائماً في ظلّ رؤية نهضوية ترى إلى المستقبل، ولا تقبع في دهاليز الماضي المنقطعة عن الضوء.

في مثل هذا المناخ، كانت ولادة حسن الأمين (1908) في دمشق، حيث قَدِم إليها العلامة الأب بعد إتمام علومه الدينية في النجف، متزامنةً - أي الولادة - مع حدث انقلابي في السلطنة العثمانية، رهص بتغيرات عكست مؤثراتها العاصفة على المنطقة العربية، لا سيما القريبة. هذه المدينة، حيث نشأ الابن، والتي ارتفعت فيها راية الإسلام قبل أية مدينة أخرى وراء شبه الجزيرة العربية، كانت ما تزال في دائرة الحدث، منذ

الفتح بقيادة أبي عبيدة بن الجرّاح (635م)، حتى دخول فيصل بن الحسين إليها (1918)، في سياق الثورة العربية، مختتماً الفصل الأخير من السيادة العثمانية الطويلة. كان الفتى حسن الأمين حينذاك في العاشرة من عمره، وقد تفتّحت عيناه على مشاهد كثيرة من تاريخ الأمة العربية التي جسّدت الشام نبضها وصورتها المستقبلية، في وقتٍ بدت هذه قائمة تنذر بانكسار الأحلام، منذ أن تكشّفت الأوراق السرّية عن خارطة للمنطقة تجعلها تحت سيطرة الدولتين المنتصرتين في الحرب، مطوّحة بالمشروع القومي الذي كانت جمعية «العربية الفتاة» - ومقرّها في دمشق - الداعية إليه، بالتنسيق عبر فيصل نفسه، مع ثورة الحجاز.

لقد عاصر حسن الأمين عن كثب هذه التطوّرات وسجّل مشهداً مثيراً في كتابه الصادر قبل خمسة أعوام من رحيله، وهو «سراب الاستقلال في بلاد الشام»، قائلاً: «يوم الثلاثاء الأول من تشرين الأول من السنة 1918، شهدت الدنيا حدثاً لم تشهد نظيراً له منذ أكثر من أربعمائة عام، هذا الحدث، هو أن جيشاً عربياً بقيادة قائد عربي، وترفرف فوقه راية عربية، وقد دخل مدينة عربية، باسطاً سلطانه فيها باسم العرب». ولعلّنا أمام هذا المشهد، وبالطريقة التي دُوّن بها، نتعرّف إلى مكوّنات هذه الشخصية، الناضجة قبل الأوان، مُكتنهين أبعادها عبر اتجاهات ثلاثة:

1 - حسن الأمين - المؤرخ الأصيل، الذي تجلّت مبكّراً قراءته للتاريخ، ولم يكن طارئاً عليها، كما في وعي كثيرين، بأن التزامه بتراث الوالد، ما دفعه إلى الاتجاه.

2 - إنه في هذا الكتاب السالف، يرقى إلى مستوى إبداعي في التأريخ لعامين من تلك الفترة (1918 - 1920)، ما يجعله من أهم المراجع

في موضوعه. . فلم تكن الوثائق سبيله فحسب، بل أن كثيراً من تداعيات المرحلة كان شاهداً عليه، حاضراً فيه، من موقعه طالباً، كما الآخرين من رفاقه الذين كانوا مادة الصخب والثورة في ذلك الحين.

3 - يتبدّى لنا، وقد عبر المؤرخ الأمين إلى التسعينات من عمره، كم هو عميق في انتمائه القومي، المتجذِّر فيه بتأثير من البيئة والبيت وثقافة المرحلة، دون أن يشوبه اهتزاز طوال حياته المديدة.

وإذا ما عمّمنا النظرة إلى نتاجه التاريخي كافة، سنجد أن ثمة عنصراً أساسياً طبع أبحاثه، وهو المنهج الذي انعكست عليه شخصيته، فصار كلاهما مُتّسقاً بالآخر على كثير من فرادة، وامتياز. ولعل هذا المنهج بالإشكاليات التي أُثيرت تحت مظلّته، أخذ يتّسم بالحدّة أحياناً، ذاهباً إلى مواقف ليست قابلةً للنقاش. ولكن حسن الأمين في نهاية الأمر، لم يسلك هذه الطريق من بدايتها الطبيعية، متسلّحاً بالحياد المطلق في أبحاثه، ولكنه، وهو المسكون بوجد الشاعر أكثر من جفاء المؤرخ، لم يكن منحازاً لفئةٍ معيّنة ينتمي إليها، بقدر ما يميل إلى الفئات المقهورة في التاريخ، مما تفسّره خياراته في الاهتمام بالثورات والانتفاضات، وبكل حركة تنشد العدالة وتقارع الطغيان، دون أن تكون خارج هذا المنهج دراستُه القيمة عن المغول، وغزوهم التدميري للحضارة العربية الإسلامية، والذي لم يوقفه سوى المماليك بقيادة الملك المظفر «قطز»، وانتصارهم الباهر في المعركة الخالدة عين جالوت.

ومن هذا المنظور يولي حسن الأمين عنايةً خاصة لهذه المعركة التي ردّت تلك الموجة العاتية عن الإسلام والعروبة، من دون أن يكون ما نزع إليه، سوى الانتصاف للتواريخ المحاصرة، وإعادة الاعتبار لنخبٍ لم تنل

ما تستحقّه من التقدير، ومنها ذلك «الملوك» الذي استعاد لحركة التاريخ زمامها، وكان «الأمين» ما يزال منبهراً بشخصيته الفذّة، وممجّداً دوره البطولي الذي أسّس لتحرير المنطقة من الغزو المغولي والاحتلال الصليبي. ولم يحد عن هذا المنهج في مؤلفاته العديدة، التي اتّصفت عموماً ـ على الرغم من الصخب الإشكالي فيها ـ بالرصانة والوضوح والرؤية النقدية. فكانت فرادته، مؤرخاً يملك ثقافةً موسوعية، ليست روافدها دائماً من التاريخ، ولكنها امتازت بالتنوّع، فضلاً عن متانة اللغة التي امتلك ناصيتها، فبدا وكأن التفاصيل في جعبته، قاطعاً المسافات في الزمن من دون أن تشعر بأنه منقطع عن زمانه.

بيد أن حسن الأمين لا تختصره صفة المؤرخ، وإن كانت هذه قد شاعت في النصف الثاني من حياته، فيما النصف الأول كان الأدب ما أخذ باهتمامه، أستاذاً، وكاتباً، وشاعراً، ثمّ رحالة من قبل ومن بعد، يكتنه العمق، ويذهب في التجديد من غير أن يبعده عن الأصالة. كان ذلك ما أغرى إحسان شرارة بأن يختاره بشموليته موضوعاً لكتابه، وهو الذي فيه شبه كثير منه، في خُلقه ودأبه، وانفتاحه، ما يُشعرك بأن ثمة علاقة روحية بين الاثنين، نفحت هذا الكتاب بنَفَس وجداني، صافٍ ورقيق، إلى جانب ما وفرته لمؤلفه بأن يسبر أغوار هذه الشخصية التي أحبّها، وأن يحيط بجوانبها كافةً، دارساً وناقداً، وباحثاً عن أسرارٍ ظلّت مجهولة أو غائمة في حياة العلاّمة الأمين. إلى ذلك، فثمة ما يجمع بين الاثنين أيضاً، وهو أن كليهما شاعر، ذهب من هذا الموقع إلى البحث العلمي، وإن لم يكن التاريخ ما يثير مباشرةً هواجس شرارة، ولكنه بالضرورة يقترب منه، كما المؤرخ في صلته بالأدب، مستمدّاً بعض أدواته منه.

وإذا كان متوقّعاً أن يختار شرارة، المحور الأدبي في تراث حسن الأمين، فإنه آثر دراسة هذه الشخصية بكاملها، «رحّالة وأديباً ومؤرخاً»، وهو تحدٍّ أقدم عليه، وعاناه، ولم يدّخر سبيلاً إلى الخوض في هذه المحاور الثلاثة، وتناولِها بصورة متوازنة، من دون الإخلال عموماً بالمنهج أو عرقلة الانسياب على مدار بحثٍ شكّل ريادة في هذه الموضوعة. ولعل الكاتب، على الرغم مما أفاض فيه، لم يُخف تهيّبه، مُعترفاً بثِقل المهمّة، كما عبّر عن ذلك في مستهلّ المقدمة: «عندما قررتُ أن أكتب عن حسن الأمين شعرت أنني فتحت الباب واسعاً أمامي، وأدخلتُ نفسي في ميدان يصعب علي أن أسلك سبيله وأسبر أغواره، وأطاول أبعاده. أحسستُ أنه كان علي أن أزين موقفي وأوازن بين ما أستطيع وما فوق الطاقة، وقد أقحمتُ نفسي في مقاربة هذا الرجل، الذي ظننتُ أنني أعرفه وأعرف فكره، فإذا بي وأنا أدخل عالمه، أدرك أنني لما أبرح الضفاف».

ولكن إحسان شرارة الذي نجد صورته الواضحة في نصّه، كان مفرطاً في التواضع، إذ أن هذا الكتاب، على شموليته، حوى من اللمعات والإضاءات، ما يكرّسه بحثاً أصيلاً، لا سيما في انطلاقه من تساؤل إشكالي: «لماذا حسن الأمين؟»، مسوِّغاً من خلاله بواعث اختياره عنواناً لكتابه، وممّا جاء فيها:

- «مع حسن الأمين تدخل على جبل عامل من الباب الواسع، لتعيش تاريخ حياته الأدبية والعلمية والسياسية.
- حسن الأمين الشاب الثائر، الباحث المحقّق، تصدّى لكثير من مسلّمات التاريخ وناقشها وأظهر ضعفها وعدم صحّتها، وعرّض نفسه ـ بمعاندته ـ لمواقف شرسة ظالمة، ردّ عليها بالوثائق

والمستندات، وفتح عيوناً كثيرةً على حقائق لم تكن معروفة.

- حسن الأمين الأديب، صوّر بعض أحداث حياته شعراً ونثراً، بغنائية جاءت سجّلاً لحياته ووصفاً لرحلاته، وحافظاً لذكرياته أنّى حلّ وحيثما أقام».

ولعل هذه البواعث تقودنا إلى اكتناه المنهج، في محاولة استحضار الشخصية الغنية المتنوعة لحسن الأمين، بما في ذلك الدور السياسي النضالي، سواء عبّر عنه شاعراً، أو أديباً، أو مؤرخاً، أو رحّالةً، إذ هو على هذه الجبهات كافةً، ينشد قضية رسخت في وعيه المبكّر، بالتحدّيات والأخطار، في الحاضر كما في تداعيات التاريخ. ولم يكن ممكناً الإجابةُ على مثل هذا السؤال الكبير، دون التوغّل في جوانب هذه الشخصية، وقراءتها في مختلف أبعادها، على أنها قراءة ليست فقط خاصة بها ولكن أيضاً من خلال تفاعلها مع القضايا التي انتصر لها، انطلاقاً من رؤية لمّاحة، ترى إلى التاريخ في نبض المستقبل الذي يستلهم منه.

■ ■ ■

في البداية يأخذنا إحسان شرارة إلى عالم حسن الأمين الطفولي والشبابي، ما بين دمشق وجبل عامل والعراق، متعرّفاً البيئة التي نشأ فيها، وتأثيرها في تكوين شخصيته، ليصل إلى طرح أسئلة صعبة في هذا السياق.. ومنها ما يتعلق بعدم سلوك «الأمين» الطريق التي سار عليها والده، في أن يكون رجل دين مثله... والجواب على ذلك لم يأت مباشرةً من الكاتب الذي رأى أن دراسة التاريخ كانت أقرب إلى مزاجه من «وظيفة» المعمّم المنصرف إلى شؤون الناس، على الرغم من «تبحّره - كما يقول شرارة - بالأمور الدينية». ومنها أيضاً ما يعرض، ربما في غير

سابقة، لعدم زواجه، خصوصاً وأنه عاش في بيئة «تعتبر الزواج واجباً دينياً»، على حدّ قول الكاتب، مع العلم أن هذه المسألة ظلّت سرًا غامضاً في حياة حسن الأمين، ولم تكن محاولة اكتشافه، سوى إضافة مزيد من الغموض إليه، حتى للمقرّبين منه. وعندما كان يُجابه بمثل هذا السؤال، كان يردّ بذرائع تحمل شيئاً من الطرافة أكثر من الإقناع.

ولعله في نمط حياته غير المستقرّ، مُنصرفاً جلّ الوقت للكتابة، ومُبحراً فيما تبقّى منه، «من بلد إلى بلد»، ما شكّل عائقاً أمام هذه المسألة، أو ربما أخيراً عزف من الأساس عن الزواج، واجداً فيه ما يحدّ من حريته ويعوّق حركته، لا سيما أنه واجه امتحاناً صعباً في هذا المجال، عندما كان أستاذاً في كلية البنات في العراق، حيث لم ينج من معاكسة الطالبات، وبعضهن تودّدْن، أو أفصحن، عبر الشعر، عن ميولهن إليه.

وإذا تجاوزنا الخصوصيات إلى الدور، فإن الكاتب يرى أن حسن الأمين في خياره نحو العلوم الإنسانية، لم يؤثّر في التزامه الديني الواضح، كما لم يحل بينه وبين السياسة التي كان في صميمها، وخاض تجارب على مساحتها، مواكباً كبار القادة في زمانه، ومتحمّساً لفلسطين قضية ظلّت متوهجة في وجدانه حتى أيامه الأخيرة. وقد وصل به الأمر في هذا الاتجاه إلى خوض الانتخابات النيابية، استجابة لطموحاته في الإصلاح وإنقاذ المجتمع من الفساد والتخلّف، ولكنه بعد فشله، نأى بنفسه عن هذا الميدان الملوّث، فخرج منه ـ كما يقول الكاتب ـ أكثر نقمةً على السياسيين، وأشدّ إيماناً بالقضية العربية.

■ ■ ■

بعد هذا المدخل المسهب، يعرض شرارة للمحور الأول في كتابه،

أي «حسن الأمين الرحالة». . ولعله رأى من المناسب تقديمه على المحورين الآخرين بما يتّفق وحياة شخصيته التي كان التنقّل ما فُطرت عليه، ما بين دمشق وشقراء، مما كان يتمّ سنوياً عبر وسائل مختلفة، وكانت محطات الطريق المليئة بالإثارة وربما بالمفاجآت ما يستهويها، كذلك الرجالات التي تستضيف السيد الوالد، تاركةً في النفس أجمل الذكريات. وقد شاء الكاتب التمهيد في هذا السياق بحديث مطوّل عن أدب الرحلات وأصحابها المشاهير، مُضفياً من التشويق، ما أغنى هذه الموضوعة، وأكسبها عمقاً وأهمية. فما يكاد حسن الأمين يغادر منصبه في القضاء. حتى يشدّ عصا الترحال إلى القاهرة، فالعراق، وفرنسا، وأمريكا الجنوبية، ثم يعود عبر لندن، ليستأنف مرة أخرى الترحال إلى باريس، ومنها مجتازاً أوروبا، غرباً وشرقاً إلى اسطنبول، كما جال في إفريقية الشرقية وفي آسية، من الخليج، فباكستان حتى الهند. ولطالما تردّد على إيران، دون أن ينسى العراق الذي طال مقامه فيه، وظلّ حديثه الأقرب إلى القلب.

وكانت رحلة الأرجنتين لافتة في أسفاره، حيث التقى في عاصمتها الشاعرة العاملية الأصل، نيليدا شرارة، وبدا أن علاقة خاصة ربما ارتقت - برأي الكاتب - إلى مستوى الحب، شدّت أحدهما إلى الآخر، إذا توقفنا عند القصائد الدافئة المتبادلة بينهما، والمندرجة في فصل الأدب في هذا الكتاب. وليس ثمة شك، أن هذه الرحلات عبر القارات الأربع، قد وسّعت من آفاق «الأمين» وأغنتْ تجربته، وأرهفت نظرته التجديدية النقدية في البحث العلمي التاريخي. وهو بذلك لا يكون مُقتفياً خطى الوالد، الرّحالة أيضاً، فحسب، بل طريق الأسلاف من كبار المؤرخين، الذين كانت الرحلة أحد عناصر تكوينهم الثقافي، مُتنقّلين في الحواضر

طلباً للعلم أو بحثاً عن المعطيات من مصادرها. على أن حسن الأمين تجاوز ذلك إلى أن تصبح الرحلة موضوعاً في الأساس، وليست مجرّد رافد للأخير، حين تناولها مؤرخاً وأديباً في آن، من خلال كتابين شهيرين: «من بلد إلى بلد»، و«حِلّ وترحال»، مما كرّسه واحداً من كتّاب الرحلة البارزين في التاريخ العربي الحديث والمعاصر. ففي هذا الجانب من أعمال حسن الأمين ـ يقول جورج جرداق ـ «تلتقي دقّة الملاحظة بوضوح الصورة، بمعرفة التاريخ معرفة واعية، بالقدرة على الربط بين الحقائق الإنسانية المشتركة، ولو في عصور متباعدة، بشمولية النظرة إلى الأحياء والأشياء، بطرافة الأسلوب وحرارة جوّه».

■ ■ ■

وفي المحور الثاني، «حسن الأمين أديباً»، راق للأديب الشاعر، إحسان شرارة، الانتشار بعيداً على المساحة الأثيرة متعقباً آثاره، في المحاولات النثرية المبكّرة، التي كانت إطلالتها الأولى عبر مجلة العرفان، ثم في تجربته الشعرية التي تبلورت في العراق، حيث الشعر لغة القوم وحديثهم اليومي في المجالس والحوانيت، ومنتهياً عند إنجازه الموسوعي في «المستدركات» و«دائرة المعارف الإسلامية الشيعية»، وإن كان التاريخ ما اتّسم به أكثر من الأدب، إذ كانت البداية الحقيقية لحسن الأمين ـ المؤرخ من هذا المنعطف، متفرّغاً للتصنيف والبحث، بينما تراجع حينذاك، حسن الأمين ـ الشاعر، المقترن بمرحلة الشباب إلى مطالع الكهولة في حياته.

والشعر كان ما يزال يتداوله العامليون بالفطرة، وربما بالوراثة، لا سيما في البيوتات العلمية التي قلّما كان فقهاؤها غير شعراء، وإن كان بعضهم يخفيه في أوراقه الخاصة، متحوّطاً في الإعلان عنه، ولكن بيئة

مثل جبل عامل، ومجتمعاً مثل دمشق، وما يجمع بينهما من فورة الغضب على الانتداب، كان لا بدّ أن يؤثّر ذلك في الفتى الصاعد حسن الأمين، وأن يسهم في تفتّح موهبته التي كانت تنتظر إشارة الانطلاق، سواء كان النثر وسيلة التعبير أم الشعر.. وفي كليهما كان متأنّقاً يُرسل أعذب الكلام. يقول إحسان شرارة في هذا السياق: «إن لغة حسن الأمين الأدبية، باتتْ أكثر إشراقاً، وأسلوبه جذّاباً، وتعابيره واضحة، وصُوَرَهُ زاهيةً، وكأنها لوحة فنّية متناسقة جذّابة الألوان».

وانطلاقاً من البيئة التي عاشها بكلّ جوارحه، كان أدب حسن الأمين، انعكاساً لمعاناتها وتحدّياتها، وبالتالي تعبيراً عن قضية، التزم مبكُراً بها، واستقرّت مبكّراً أيضاً في وعيه السياسي. ومن هذا المنظور يعرض عن شعر المناسبات، بما يتّصف به عادةً من تكلّف ونبرة تلائم اللحظة الآنية، إذ أنه، شاعراً أو ناثراً، كان خطابه يصدر ممهوراً بالأحاسيس ومضطرباً بالهواجس الكبيرة، حتى ليبدو لك كصافية السماء، لا تعكّره غمامة أو يشوبه لبسٌ، أو تسلبُه شيئاً من صدقيته وطأةُ الزمن الثقيل. ولو شئنا المضي في حديث الأدب، سنجد أنّ «ثلاثيةً» ما، تجاذبت حسن الأمين في اتجاهاته، ما بين جبل عامل والشام والعراق، إنساناً، وبين الوطنيات والوجدانيات والحنينيات شاعراً، والموسوعية والإسلاميات والعربيات مؤرخاً، ولكنها في الوقت عينه متّحدة حتى الانصهار في شخصيته المفعمة بكلّ هذا الدويّ العابق بالتراث.

وإذا أردنا اختصار حسن الأمين في «ثلاثياته»، فإن أكثر عناصرها ملاءمة لذلك، هو الحنين، الحاضر في هذا المدى، بما فيها التاريخ الذي يكاد يكتبه بدموعه، أو حتى الشعر الوطني الذي يأتي مترعاً بهذا الوجد، كما في قصيدة نظمها، على سبيل المثال، في بغداد، مقر

إقامته، بعد جلاء الانتداب الفرنسي عن لبنان، وقد جاء فيها:

... وقد صمدْنا لهمْ في الروع لا خَوَرٌ عند اللقاء ولا جُبْنٌ ولا وَجَلُ

... يا ساريَ الريح والأفراح قائمة ماذا وراءك؟ كيف الصحب؟ ما فعلوا؟

إنّه دائماً مضطرم بهذا الحنين: إلى المكان، السلف، التراث، الأصدقاء... وغالباً ما كانت عبارته الشهيرة - «سُقياً لها تلك الأيام» - تبوح بكل ذلك في «حِلّه وترحاله». ولوْعدنا إلى دمشق حين تخرّج من كلية الحقوق، لألفيناه مفطور القلب، حزيناً على فراق الأصحاب، وعلى انطواء تلك السنين التي أودعها فتوّته وشبابه، وما برح على ظمأ إليها، فيقول:

علّقتُ أرابي عليك ولا أرى إني سأظفرُ منكِ بالآراب

وسهرتُ فيك الليل أجرعُ دونه مرَّ العذاب وما سواك عذابي!

لهفي على تلك العهود فليتها عادت بما فيها من الأوصاب

.. أيام تجمعُنا على صفو الهوى متآلفين، شمائلُ الأحباب

ولّت ليالي الامتحان وأقفرتْ تلك الملاعبُ من جموع صحابي

لا الدار بَعْدَهُمْ تلذّ لسامرٍ منها ولا تحلو الرياض لصابي!

كان ذلك شأنه في كل مكان أقام فيه: في الحلّة أو بغداد أو شقراء، أو حتى في بونس آيرس، حيث هبّت عليه نسائمُ من الجبل العاملي في منزل نيليدا شرارة، التي استعادت معه أيضاً عطر جذورها في المكان البعيد. وقد تتزاحم تلك المشاعر في نفسه، فيبدو موزّع الهوى - على حدّ ما يراه الكاتب - بين بلدٍ أثير نأى عنه، وبين آخر أثير أقام وقتاً فيه. يقول مخاطباً دمشق من بلاد الرافدين:

يا نسمة الشام الحبيبة هدهدي روحاً لصالية الجوى تتحرّق

أنا في هواي بجلقٍ «متبغددٌ» وعلى الفرات ودجلة «مُتَدَمْشِقُ»

ومن المكان عينه يتذكّر في «يوم عيدٍ» شقراء، فتوقظ المناسبة فيه حنيناً متأجّجاً إلى مرابع الطفولة، فيقول:

لئن لذّ للورّاد عذبُ فراتهم فإن فؤادي فيه ما زال ظاميا
فما راقني غير «الدواوير» مربع ولا اعتضتُ عن «وادي السلوقي» واديا

ولكن بغداد ما يكاد يرحل عنها، حتى يجد نفسه أسير هواها، وفياً لأيامها التي حفرتْ في قلبه، وشهدتْ صعوده نجماً في عالم الأدب.. ولطالما كان حديثه دافئاً عن تلك المدينة التي عرف فيها كباراً، من ساسة وعلماء وشعراء وشاعرات، كانوا دائماً في قلبه، كما هو في قلوبهم، يُكرمهم حيث يأتون، ويكرّمونه حيث يفد عليهم... ومما قاله في هذا السياق:

أَشَطَّ دجلة والذكرى تؤرّقنا قد طال فيك على أشواقنا الأمدُ
ضاقت عليَّ سهول الرافدين جوًى بعد الأحبّة والآكام والنجدُ
يا من حفظتُ على بعدٍ عهودهمُ لا يُنسيَنَّكُمُ أيامَنا البُعُدُ
القلب في الحبّ لا يهفو لغيركمُ ولا يثير سواكم شوقهُ أحدُ

ولا ينثنى، وإن ارتفعت وتيرة الحماسة، عن مثل هذا الدفق، حتى في خطابه الفلسطيني، مستحضراً التاريخ بما يشحن الأمل في النهوض من الكبوات واستعادة زمام النصر، فيقول:

في «دير ياسين» ثأر لا تنام له منّا العيون ولا يُنسى له طلبُ
.. ثاراتنا الحمر فيكم كاللظى حنقاً وحقدنا المرُّ كالبركان يلتهب
هبّتْ على النخوات الحمر ثائرةً وجلجل البأس فيها والتظى الغضب
وماجت البيد بالتكبير وانطلقتْ بعد الهوان إلى ثاراتها العرب

هذا الحنين الذي تشوبه مسحة من الحزن في شعر حسن الأمين، يعكس من دون ريب روحه الصافية، وانتماءه إلى جبل ـ سابق عليه ـ كانت بعدُ للقيم نضارتها فيه، أكثر مما ينتمي إلى جبل عاصره وعانى بعض سلوكه، وفتور حماسته للقضية العربية.. أليس ضياع فلسطين ما يكفي لأن يترك ندباً، لا تمحوه السنون، في قلبه المتخم بالأسى، مما يختصره هذا البيت:

يا ويح قلبي كم يلقى وكم يجد   وكم تكابد همًّا هذه الكبد

ولعل إحسان شرارة له رأي آخر في هذه المسألة، فيرى «أن شاعرنا مسكون، منذ صباه، بحزن غائر وبأسى دفين، وبشعورٍ بالوحدة، وبغربة طالما شكا منها، وأحسّ بثقل وطأتها حتى في مطلع عهده بالشباب». ومن الواضح أنه يردّ ذلك إلى الغربة التي نشأت معه، دون أن يكون في دفق المشاعر ما يلمح ـ برأيه ـ إلى خصوصية تحت وطأتها، إذ الحبّ كلّه قد حفظه للدواير والبركتين والملّول في شقراء، وبردى «والسيران» على ضفافه في دمشق، وشواطىء دجلة وديالا والفرات في العراق، وقبل ذلك للقضية القومية التي صاحبها مناضلاً ومؤرخاً وشاعراً من اليفاعة حتى آخر العمر. أما شعره الغزلي، فكان خفِراً ومبهماً يفتقد إلى المشاعر الملتهبة، وهو أقرب إلى الوجدان منه إلى القلب، عدا أنه تقليدي هادىء الحركة، كما في قوله على سبيل المثال:

أتعلمُ سمراء الفراتين أنني   وفيتُ لها قرباً ولم أسْلها بُعدا

تراءت على الدنيا فكانت رُواءها   وكانت بها النعمى وكانت بها الرغدا

أو في قوله في قصيدة وصفية أكثر منها غزلية، موجّهة إلى فتاة نشرت بهاءها وسحر فتنها على «الرويس»، فلا تدري أيّهما حرّك مواجد الشاعر، القلب أو المكان:

سُقياً لأيام الرويس فطالما | كانت لأدواء الفؤاد دواء
. . لم يحلُ لولاكِ الرويس ولم يطب | أرضاً ولم يعذب لدي سماء
تمشين من الأرجاء عاطرة الشذى | فتعطِّرين بعرفك الأرجاء

ولكن الحبّ الذي أخفاه عنا حسن الأمين، يرى الكاتب إحسان شرارة، أنه بدا شيء منه، على الأقل، في المغترب البعيد (الأرجنتين)، وربما حركّتْ كوامنه الشاعرة نيليدا التي سطعتْ حضوراً في تلك الرحلة، مخلّفةً في قلب الشاعر ما يفيض عن الحنين، إذ قال مودّعاً تلك البلاد، وكأنه يرثي سنيه الضائعة وشبابه الذاهب، والحبُّ الذي قد يكون هزّ قلبه حينذاك:

مرّ الشباب فما نعمتُ بظلّه | طيباً ولا رُوِّيت فيه أواما
مالي ألمّ الشوك من روضاته | وسواي يجني نرجساً وخزامى
أزف النوى يا بونس آيرسَ فاذكري | حُباً تغنّى بالوفاء وهاما
. . مرت بنا الساعات ناضرة المنى | فكأنها كانت لنا أحلاما
. . . كم وقفة لي في الضفاف أبثّها | نجواي؟ لو وَعَتِ الضفاف كلاما

ولعل المقارنة بين هذه الأبيات أو ما سبقها في «سمراء الفراتين» و«ظمياء الرويس»، لا تحتاج إلى جهد، لنكتشف أن الأولى كانت أكثر شبوباً بالعاطفة، مما يجعلنا نسير مع إحسان شرارة في اعتقاده، بأن الرحلة الأرجنْتية تركتْ ما تعدّى الإعجاب المتبادل بين الشاعرين، إلى «حبّ بقي مكتوماً» على حدّ تعبيره. وقد تكون نيليدا كشفتْ عنه في قصيدة بعنوان «أحبك»، وقد جاء فيها مترجماً نثراً: إن الليالي مظلمة. فهي مظلمة حتى في النهار! عندما يبلغ الحب الذروة تتلاشى ساعات العمر عندما يبرز سرّ حبه. . لستُ مذنبة إذا كان الحب إثماً، فامتزاج الحب بالعبادة أحلى من عنبر الآلهة، وحبّك الآن أعماني».

ولكن حسن الأمين كان ما يزال قابضاً على جراحه، وقد زادته نزفاً تلك الرحلة التي لم يجد نهاية لها، سوى أن يرفأ مجدداً إلى أحزانه، فيقول مودّعاً مهصور القلب:

جفونكِ ندِيانةٌ بالدموع | وفي شفتيك النداء الصريع
وقلبك يصرخ هل من رجوع | ويعلم قلبك أن لا رجوع

وهي نهاية، على قساوتها، لم يكن ممكناً التدخّل فيها من جانب حسن الأمين الذي بدا أن خياره في العزوبية ثابت. ليست تؤثّر فيه «رعشات» قلب أصابه بدوره الانكسار:

مضيْتُ على لوعتي مطرقاً | أرى أن ليل الأسى أطبقا
وأن العهود العذاب انقضتْ | ولم يبق من أملٍ في اللقا

وهذا ما رآه إحسان شرارة، بأن حسن الأمين كان قد اتخذ مُسبقاً ذلك القرار، لا سيما وأن «الأعيان» الذي صرف عليه والده جلّ العمر، ما زال يحتاج إلى من يكرّس لإتمامه جلّ عمره أيضاً. . ويروي حسن الأمين في هذا السياق أن السيد الأب كان آخر ما كتبه وهو على فراش المرض، هذه الأبيات بعينين دامعتين:

بكيتُ وما بكيت لفقد دنيا | أفارُقها ولا خلّ أليف
ولكني بكيتُ على كتاب | تُصَنِّفُهُ يداي إلى صنوف
سيمضي بعد فقداني ضياعاً | كما يمضي شتاءٌ بالخريف

فهل يبقى بعد ذلك مجال للتساؤل عن خيار حسن الأمين؟ فقد التزم منذ تلك اللحظة بالوفاء للعهد، وإكمال الرسالة التي أخذت به طوعاً إلى حلبات التاريخ، باحثاً محقّقاً، وقارئاً ثاقب البصيرة والبصر.

■ ■ ■

وعن «حسن الأمين مؤرخاً»، تناول إحسان شرارة هذه الموضوعة بشيء من الاختصار، بالمقارنة مع محور الأدب الذي حوى إضافات مهمة، وإضاءات على صفحات لم تتكشّف من قبل في حياة «الأمين» الشاعر. وإذا كان شرارة لم يخض مباشرة، فيما سلف، في الكتابة التاريخية، فإن الأخيرة تبقى الأقرب إلى الأدب في إطار العلوم الإنسانية، إذا توقّفنا عند الأدوات المتقاطعة بين الاثنين، مع العلم أنه ينطلق من تجربة سابقة قارب فيها التاريخ، من خلال كتابه السالف «موسى الزين شرارة الشاعر الثائر في محيطه العاملي». ولذلك نراه في هذا المحور، يطرق باب الإشكاليات في دراسته لمؤرخ إشكالي في الأساس، تصدّى لمسائل أثارت جدالاً، لا سيما القراءة «المغايرة»، الخاصة بصلاح الدين.

وفي سبيل الإحاطة بهذا الجانب، ذهب شرارة إلى بدايات التكوين الثقافي في شخصية «الأمين»، الذي استهوته دراسة التاريخ، لولا أن حال دونها عدم وجود معهد لهذا الاختصاص في الجامعة، مما دفع به إلى الالتحاق بكلية الحقوق، خياراً لا بديل عنه في ذلك الحين. ولكن شاء القدر أن تُتاح له الفرصة، التي تلقّفها بشغف ودأب عليها بصبر لا مثيل له، فَسَبَرَ التاريخ طولاً وعرضاً، ما بين العامليات والإسلاميات... إلى التاريخ الحديث والمعاصر، الذي واكب أحداثاً فيه، إلى الرحلة، وهي في جوانب منها نمط من التاريخ.

ولكن التاريخ الإسلامي، كان «الأمين» أكثر إبحاراً فيه، منطلقاً من رؤيةٍ، أن هذا التاريخ لم يُدوّن وفاقاً لمنهج علمي يربط بين الأسباب والنتائج، لا سيما وأن عوامل عدة تدخّلت في تصنيفه، ومنها ميول الإخباريين ومحاباة السلطة، وطغيان الحدث السياسي، إلى غير ذلك من

العوامل التي جعلته مجتزأ، وغير معبّر بصورة موضوعية وشفّافة عن واقع تلك العصور الغابرة. وكان ذلك واضحاً في الاختيارات الصعبة التي ذهب إليها، بدءاً من كتابه الأول: «الغزو المغولي للبلاد الإسلامية»، متصدّياً فيه لملابسات موقف الوزير ابن العلقمي، آخر وزراء الخلافة العباسية، والذي اتُّهم بالخيانة والتواطؤ مع الغزو. وقد أبرز المؤرخ «الأمين»، معتمداً على معطيات موثّقة، محاولة الوزير إبعاد شبح الدمار عن العاصمة بغداد التي كانت عاجزة بقوتها العسكرية المتواضعة، عن مواجهة جيش لم يقف أمامه أحدٌ في ذلك الحين... وفي النهاية كان رأي ابن العلقمي الأكثر صواباً، لولا أن البطانة المتملّقة حول الخليفة (المستعصم)، دفعت بالأخير إلى المصير المأساوي. ولم يكن حسن الأمين يعنيه بالمطلق، أن يكون ابن العلقمي شيعياً للدفاع عن موقفه، ولكنه كان مختلفاً في قراءته للحدث، محصّناً رأيه «المغاير» بالدلالات المستمدّة من مؤرخين معاصرين له، وبعضهم كان متفاعلاً بصورة مباشرة معه. وعلى غرار ذلك نهج في كتبه الصادرة فيما بعد، دون أن تتجاوز موسوعته «دائرة المعارف الإسلامية الشيعية»، في بحوثها الموضوعية المعمّقة، الهدف عينه بأن تكون مقاربة الحقائق، بعيداً عن أي تعصّب أو موقف إسقاطي، ما تتوسّله وترمي إليه.

بيد أن الكتاب الإشكالي الأكثر صخباً في المرحلة المتأخرة من حياة المؤرخ «الأمين»، كان ذلك الصادر تحت عنوان «صلاح الدين بين العباسيين والفاطميين والصليبيين»، الذي رأى فيه مؤرخون وكتّابٌ وخلافهما، تشويهاً لصورة «البطل» ومعركته الخالدة، دون أن يكون بعضهم على دراية بمعطيات المرحلة وتداعياتها، أو قرأ بتمعّن هذا الكتاب. وخلافاً لذلك فإن حسن الأمين لم يبخس البطل حقّه، أو يقلّل

من إنجازه العظيم في «حطّين»، ولكنه احتجّ على الصلح الذي عقده مع الملك الإنكليزي ريتشارد، وما انطوى عليه من تنازلات لم يكن مضطراً إليها، حين تخلّى للثاني عن المدن الساحلية. وإذا كان السلطان الأيوبي، قد سوّغ ذلك بالحفاظ على القدس، فإن الملك السالف نفسه اعترف بصعوبة استرداد المدينة طالما «بقي صلاح الدين حيًّا» على حدّ تعبيره، في الوقت الذي كان على ريتشارد العودة سريعاً إلى بلاده بعد انقلاب أخيه عليه. ولعل هذه المسألة لم تكن خاضعة لتوازن القوى بين المسلمين والصليبيين، بقدر ما كان السلطان متوجّساً من تألّب خصومه المؤيدين للزنكيين عليه. وقد عرض المؤرخ الفرنسي «رينيه غروسّيه» لهذه المسألة، بما يقارب وجهة حسن الأمين في قوله: «كان بمقدوره (صلاح الدين) أن يقضي على أعدائه بعد معركة حطّين، ولكنه فوّت عليه فرصة ذهبية في استثمار النصر».

وحسن الأمين لم يؤرخ لهذه الموضوعة، متوكئاً على اجتهاداته، وإنما كان سبيله إلى ذلك من خلال مؤرخين عاصروا صلاح الدين، وبعضهم كان في حاشيته ومن المقرّبين إليه مثل عماد الدين الأصفهاني. فقد تسلّح بالحقائق وبنى موقفه النقدي انطلاقاً منها، وهو ما لفت إليه في هذا الكتاب قائلاً: «إذا رأى القارىء في ما نقدّمه إليه في هذه الصفحات شيئاً غير مألوف لما في ذهنه عن صلاح الدين، فهو لن يرى إلا حقائق مدعومة بالنصوص التاريخية المدوّنة في أمّهات الكتب.. ونحن في كل ما كتبناه لم نبغ سوى وجه الحق كشفاً عن الحقائق في تاريخنا، تلك الحقائق التي عمل على طمسها المُبطلون». فقد استفزّ الصلح، في الواقع، حسن الأمين الذي رأى فيه هدراً للنصر الكبير، إذ لو تمّ توظيفه جيداً ـ كما رأى سالفاً المؤرخ غروسيه ـ لما تأخر جلاء الصليبيين مائة

عام أخرى. ومن هذا المنظور نفهم حماسته لمعركة عين جالوت التي جرت في ظروف أكثر تعقيداً وخطورة، مما جرى في حطين، ومع ذلك لم تتوقف تداعياتها إلاّ بعد رحيل المغول والصليبيين عن المنطقة.

■ ■ ■

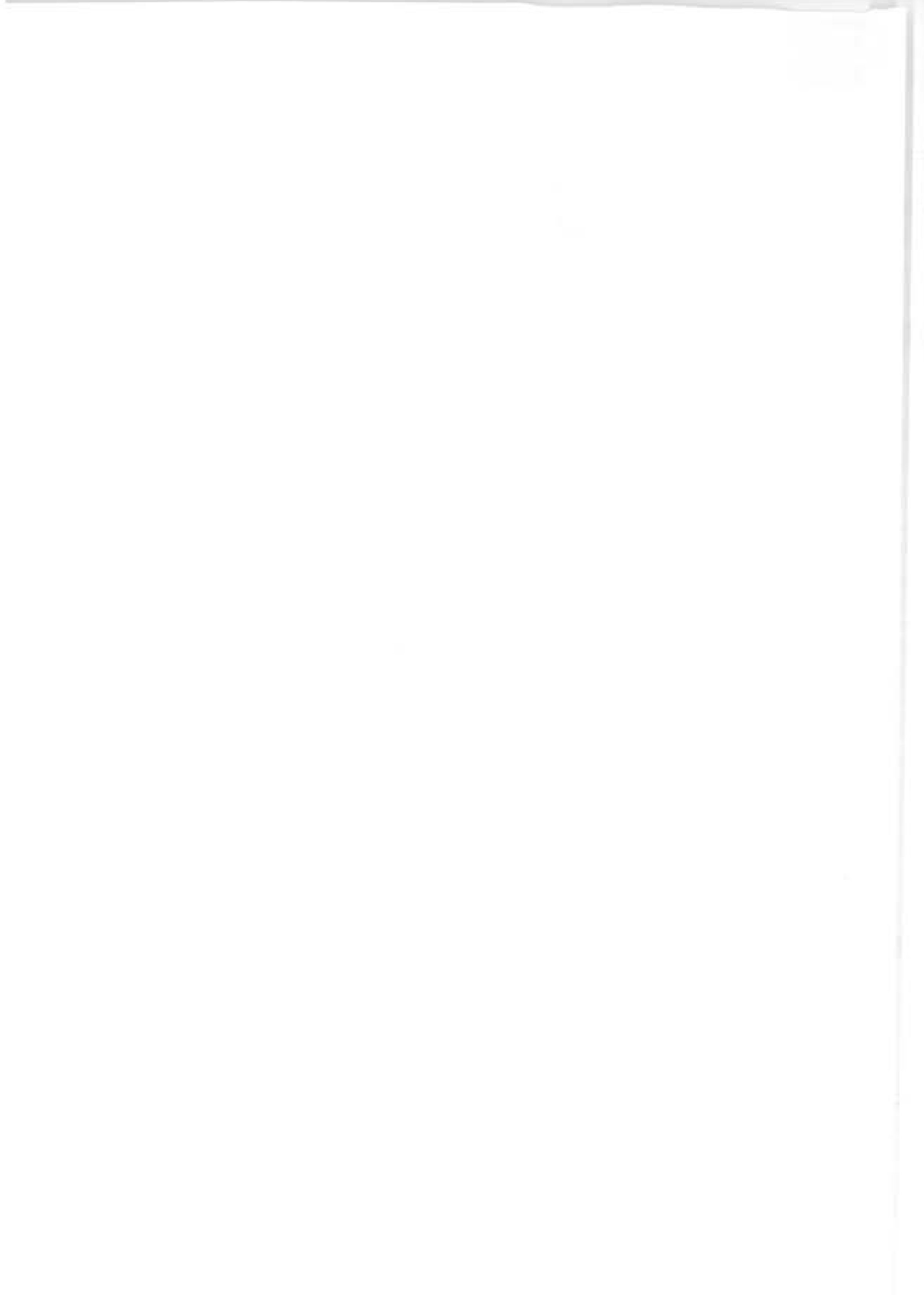
وليس من باب الانحياز لحسن الأمين، القول بأنه كان مؤرخاً مميّزاً، وإن اتّصفت قراءته أحياناً بالحدّة، لا سيما وأنه ـ كما قال شرارة ـ ولج التاريخ من باب الأدب، عدا أنه، انطلاقاً من نشأته قريباً من الفقهاء، وغير متسلّح تماماً بالقواعد العلمية لمنهج التاريخ، كلّ ذلك كان يحول دون أن تتّسم نبرته بالهدوء إزاء الإشكاليات الصعبة التي خاض فيها. ولكن حسن الأمين يكفيه أن يكون التجديد، وتفكيك النص، ووضوح الرؤية ما أرساه في منهاجه، متوخياً، وإن على طريقته مقاربة الحقائق، والانتصاف لمثل هذه التواريخ، وما أكثرها في الأزمنة الغابرة.

وليس آخراً، إن كتاب إحسان شرارة يمثّل انعطافة لافتة في ميدان البحث الأدبي والتاريخي، وتأتي أهميته في الإحاطة بالجوانب كافة، لشخصية متميزة، طغى حضورها على مساحة أكثر من نصف قرن. وكان واضحاً ما بذله الكاتب من جهد وصبر في توفير المادة الملائمة لبحثه، انطلاقاً من الكتابات الحديثة والمعاصرة، ووثائق غير منشورة باللغة الفرنسية، إلى سبر مؤلفاته بكاملها، مما جعل هذه الدراسة تكتسب ريادتها وأصالتها، فضلاً عن مرجعيتها في الموضوع الذي تصدّت بجرأة له، وخاضت في إشكاليات جديدة على مداه، فكانت بالتالي جديرة بالتنويه والتقدير.

وتبقى لي كلمة خاصة، استهلّها بالاعتذار عن الإطالة في هذا التقديم، وهي ليست من مألوف ما درجت عليه. ولكن دراسة كهذه،

كاتبها والمكتوب عنه، يشدّني إليهما وَدٌّ لا حدود له، وجدتني مُبحراً معهما على متان الوجد، وقد طاب لنفسي ذلك السفار. وما غادرتُ إلا ظامئاً، وفي قلبي عبقٌ من تلك الأيام.. «ألا سُقياً لها».

د. إبراهيم بيضون



تمهيد

عندما قررت أن أكتب عن حسن الأمين، شعرت أنني فتحت الباب واسعاً أمامي، وأدخلت نفسي في ميدان يصعب عليَّ أن أسلك سبله، وأسبر أغواره، وأطاول أبعاده، أحسست أنه كان عليّ أن أزن موقفي، وأوازن بين ما أستطيع، وما فوق الطاقة، وقد أقحمت نفسي في مقاربة هذا الرجل، الذي ظننت يوماً أنني أعرفه وأعرف فكره، فإذا بي وأنا أدخل عالمه، أدرك وأتيقّن أنني لمّا أبرح الضفاف.

بهذه الرؤية، حاولت أن أقارب السيد حسن الأمين، أن أستعيده - قدر استطاعتي - وأرافقه في مسيرته الطويلة الغنية التي امتدت قرناً من الزمان.

هذا الرجل الموسوعي، والأديب، والفقيه، والرحّالة والمؤرخ، كان مكتبة متنقلة وسجلاً مفتوحاً، عاش معظم عمره بين الكتب والمخطوطات والأوراق، ورأى في أسفاره ورحلاته ترويحاً عن النفس، وزاداً جديداً، فكتب في أدب الرحلات ووصف حلّه وترحاله، وتناول ما يتعلّق بمواضيعه في التاريخ والجغرافيا والاجتماع، فوصف حياة الناس وطرق معيشتهم، وتأثر بسابقين في هذا الفن، وتوكأ عليهم.

تفرغ حسن الأمين كذلك لكتابة التاريخ ـ خاصة التاريخ الإسلامي ـ وقد أهّلته ثقافته الواسعة لأن يتناول المواضيع الملتبسة أو الخلافيّة فاستعرضها وناقشها، ولم يجد حرجاً في التصدّي لمواقف تمسّ ثوابت أو مقدسات، فأثار كثيراً من الجدل وكثيراً من الغبار.

عكفت على كتبه ومقالاته وما نشر في مجلة «العرفان» ومجلة «العربي» وسواهما من الصحف والدوريّات بدءاً من عشرينيات القرن المنصرم وقضيت أشهراً متواصلة وأنا أفتش وأنقّب، وأدركت أنني حمّلت نفسي كثيراً أمام هذا الفيض مما كتب في الأدب والرحلات والتاريخ. وهي مواضيع متداخلة، مترابطة، لا يمكن الفصل فيما بينها، فالأدب بنثره وشعره يمثّل أروع عطاء الفكر الإنساني موزّعاً على فترات التاريخ، وكتابة الرحلات فن أدبي واسع فيه الكثير من الجغرافيا والتاريخ والاجتماع، يتناول البيئة والمحيط والأنهار والطبيعة والمناخ والناس والعادات والتقاليد وطرق العيش ومدى التقدم إلخ؛ والتاريخ يلخّص أحداث الماضي التي رافقت المجتمعات الإنسانية في مواطنها، وما جرى خلالها من حروب، وما طرأ عليها من تطورات، هو حكاية الإنسان بكل تشعباتها.

السيد حسن كتب مطوّلاً في هذه المواضيع، وكان من الصعب عليّ أن أرصد ذلك كلّه، ورغم التصميم في العمل، وجدتني مقصّراً، كان يكفيني أن أحصر نفسي في موضوع واحد بدلاً من ثلاثة، علّني أتوصّل إلى أن أعالجه من دون إغفال أو إهمال.

■ ■ ■

يمكن أن يكون حسن الأمين موضوع دراسة خاصة في الجانب الأدبي من حياته لأنّ فيها من التجربة ما يُشكّل إضاءاتٍ مهمّةً على مسيرةٍ قاربَتْ قرناً من الزمان (1908 ـ 2002) عاصَرَ خلالها معظم أحداث القرن العشرين، مُواكباً التحوّلات الكبيرَةَ في تاريخ الشام والمنطقة العربيّة، منخرطاً منذ وقت مبكّر في الحركة القوميّة العربيّة التي صخبت بها الشام حينذاك، وكان من تداعياتها الحكومة الفيصليّة ومعركةُ ميسلون، والثورة السوريّة الكبرى، والنضالاتُ الشعبيّة في سوريا ولبنان وفلسطين والعراق من أجل الاستقلال، وعلى الرغم من دراسته للحقوق في جامعة دمشق، وتولّيه القضاء في لبنان (لفترة قصيرة)، انصرف إلى الدراسات التاريخيّة والتراث العربي الإسلامي.

وإذا كان حسن الأمين قد تكرّس في الوعي الثقافي مؤرّخاً، فإن هناك جانباً آخر في حياته، هو جانب الشاعر والأديب والرحّالة، ولعلّ التجربة العراقية كانت لافتةً في شعره حين التحق مدرّساً للأدب العربي في جامعة بغداد (كلية البنات)، تلك التجربة التي ظلّت متوهّجةً في قلبه يروي تفاصيلها، وما نظم فيها، تماماً كما بَقِيَتْ دمشقُ في ذاكرته وخاطره.

لماذا حسن الأمين؟

1 ـ بواعث الاختيار:

- مع حسن الأمين تدخل على جبل عامل من الباب الواسع لتعيش تاريخ حياته الأدبيّة والعلميّة والسياسيّة.
- وجبل عامل الذي عُرف حديثاً بـ(جنوب لبنان) كان باستمرار على هامش الدولة الحاكمة لبُعده عن مركز السلطة، وعدم تأثيره الفاعل في الأحداث.

- وجبل عامل شكّل ـ عبر تاريخه ـ مجتمعاً معارضاً لسياسة الحاكم، ورافضاً للكثير من ثوابت مرتكزات الحكم، فتعرّض أبناؤه بسبب ذلك للملاحقة والمطاردة وشتّى أنواع الظلم.
- أضاء حسن الأمين على معاناة العامليين وأبرز في كتاباته ـ شعراً ونثراً ـ الاضطهاد الذي عانوه.
- حسن الأمين الشابّ الثائر، الباحث والمحقّق، تصدّى للكثير من مسلّمات التاريخ وناقشها وأظهر ضَعْفَها، وعدمَ صحتها وعرّض نفسَهُ ـ بمعاندته ـ لمواقفَ شرسة، ظالمة ردّ عليها بالوثائق والمستندات، وفتح عيوناً كثيرةً على حقائق لم تكن معروفة.
- حسن الأمين المؤرّخ حاول أن يكون صاحب (الرأي الآخر)، الرّأي المعارض، الذي لم يُسمعْ أو لم يُسمحْ له بأن يُقال، نظراً إلى مصادرة مساحة الحوار وإلغاء هامش الحريّة.
- حسن الأمين الأديب صوّر بعض أحداث حياته شعراً ونثراً بغنائيّة جاءت سجلاً لحياته، ووصفاً لرحلاته، وحافظاً لذكرياته، أنّى حلَّ وحيثما أقام.

وبواعث اختيار حسن الأمين تبعاً لذلك جاءت غير ذاتيّة نظراً إلى أنه جهد في إبراز أحداثٍ لازمها الغموض، وأضاء على صفحاتٍ طاولها الإهمال المتعمّد.

2 ـ المنهجيّة المعتمدة:

المنهجية عبارة عن المبادئ التي يقوم عليها النهج أو السبيل الذي يرشدنا إلى التنظيم والتخطيط، والعنصر الثابت في كلّ معرفة علميّة.

هذا المنطلق يظهر الاختلاف في النظرة إلى حسن الأمين كباحثٍ

ومؤرّخ عن النظرة إليه كشاعر وناثر، خاصةً أن مقاربة التاريخ لم تَعُدْ رواية أحداث، وحكاية بطولات، يتناقلُها الناس وإنما غَدَتْ علماً له قواعدُهُ الصادقة وتحقيقاتهُ الموضوعيّةُ، وأساليبُه، وطرقُهُ، وثوابتُهُ؛ والدراسة الأدبيّة تتناول الشاعر أو الأديب من خلال نشأته وسيرته والمجتمع الذي يعيش فيه، إنها تجهد في أن تضيء على ما ورث عن أهله ومجتمعه، وأثر البيئة في تكوينه وثقافته وتجاربه، وصقل مواهبه، وطريقة تفكيره، وكلّها عوامل تؤثّر في شخصيّته ونظرته إلى الناس.

3 ـ طرح الإشكاليّات:

لمّا كان البحث قضيّةً تبحث عن الحقيقة، وعن إجاباتٍ عن أسئلة متعدّدة أو نقاط يكتنفها الغموض، لذلك كان لا بدّ للباحث من وضع خطّة عمليّة متنامية متصاعدة متحرّكة، هَدَفُها الوصول إلى حقائق أو قواعد عامّة والتحقّق منها في سبيل اكتشاف المعرفة والتّنقيب عنها وفحصها وتحقيقها بتقصٍّ دقيق، ونقدٍ عميق.

مع حسن الأمين الشاعر الأديب المؤرّخ، ومن خلال كتبه الكثيرة ومقالاته وندواته ومحاضراته وآرائه نتساءل: هل كان منسجماً مع أفكاره واقتناعاته وهو يعالج القضايا الوطنيّة وما تتعرّض له البلاد العربيّة من ضغوطات ومؤامرات؟ وهل تغيّرت مواقفُهُ عندما عمل في القضاء أو مارس التعليم؟ وهل بقيت سيرتُهُ على هذا النمط من الصفاء والشفافية؟ وهل لازمتْهُ هذه المناقبيّة الرفيعة في معالجته للقضايا الخلافيّة في المعتقدات وانعكاساتها على أحداث التاريخ؟ هل التزم الموضوعيّة المجرّدة أم لامَسَتْهُ العصبيّةُ وهو يناقش بعض الثوابت والمسلّمات؟

الإشكالية تقتضي في هذه المواقف أن نتوخّى الحقيقة المجرّدة

ونظهرها حتى ولو كانت عواطفنا لا تلتقي معها ولا ترتاح إليها. الغاية من البحث أن نكتشف (هذه الحقيقة) ونُعْلنها ونخضعَ لها، وجدارة الباحث أو الكاتب أن يضع عواطفه جانباً، ويطرحَ على نفسه الأسئلة التي يتطلّبها البحث، وعمّا إذا كان أجاب عنها، أم ترك بعضها ليعالجه بنفسه في المستقبل أو بواسطة آخرين قد يجدون في أنفسهم الكفاءة والمقدرة على التصدّي لإشكالياتها لإيجاد الأجوبة المناسبة.

3 ـ الأهداف المبتغاة:

حياة السيد حسن الأمين الطويلة توزّعت ـ بالإضافة إلى قريته وبيئته العامليّة ـ بين ثلاث مدنٍ لعبت أدواراً مميَّزةً في السياسة والثقافة والاجتماع، هي دمشق وبغداد وبيروت، أثّرت فيه وتأثّر بها وبأحداثها، وقد استمرّت سيرة حياته في خطّ مستقيم من دون التواءات. نشأ ملتزماً ـ متأثراً بوالده، بعقيدته الدينيّة، وانتسابه القومي العربي، وبقي منسجماً مع نفسه حتى أيامه الأخيرة، ولم تهتزّ اقتناعاته بالقضيّة الكبرى التي آمن بها، رغم المآسي والانكسارات التي طاوَلَتْ أمته، وعمل جاهداً على إبراز الصُوَر المشرقة في تاريخها، فنقّب في خزائن محفوظاتها وكتب تاريخاً، ونظَم شعراً، ونشر أدباً، وجَمَع تراثاً، وأخرج موسوعة.

فهل قُدِّر لحسن الأمين أن يكون الرحّالة الأديب في عصره؟ أم توكّأ على غيره وقلّدهم وسار على نهجهم؟

وهل استطاع أن يكون الشاعر المجدِّد والكاتبَ الباحثَ في العصر الحديث؟

وهل توصّل إلى أن يفرض نفسه مؤرّخاً ومحقّقاً في المفهوم المعاصر في القرن العشرين؟

تلك أسئلة تبحث عن حقائق، وسوف أسعى إلى الإجابة عنها.

الفصل الأول

الطفولة والشباب

مقدمة

أ ـ الولادة والنشاة

ب ـ (بين دمشق وشقراء)

جـ ـ في كلية الحقوق

د ـ التخرج في الجامعة

هـ ـ الترحال إلى العراق

و ـ العودة إلى لبنان (في سلك القضاء)

ز ـ إلى العراق من جديد

حـ ـ وداع العراق

ط ـ أثر البيئة في تكوينه

ي ـ اربعة أسئلة حول سيرته

خاتمة



مقدمة

بين دمشق التي ولد فيها، وبين شقرا (إحدى قرى جبل عامل) التي درج فوق ترابها، توزّعتْ طفولة حسن الأمين، وتعمّق وعْيُه، وترسّخ حبُّه، فقد طَبَعَتْه الأولى بلهجةٍ لازمته طوال عمره، وبنشأةٍ قوميّة رسمتْ له مساراً لم يَحِدْ عنه، وأورثَتْه الثانيةُ تراثاً ثورياً موغلاً في القدم يحمل وجَعَ الضحيّة بوجه الجلاّد، حتى إذا شبَّ فتحت له بغداد قلبها وشرّعت أمامه واسع الآفاق؛ ونشأ السيد حسن يحمل ملامح هذه البيئات، وينهل من معينها وتاريخها وحضارتها.

كان السيد حسن ـ المسكون بحب جبل عامل ـ يجهد لإلقاء الضوء على الصفحات المغيّبة من تاريخه، وعندما رحل كان بعض هذا الحلم قد تحقق.

■ ■ ■

ذكر السيد محسن الأمين في كتابه **خطط جبل عامل** ما يلي:

«إنّ حدّه من الغرب هو ساحل البحر المتوسط، ومن الجنوب فلسطين، ومن الشرق الحولة والأردن ووادي التيم وبلاد البقاع وقسم من

جبل لبنان الذي هو وراء جبل الريحان ووراء إقليم جزين ومن الشمال نهر الأولي»[1].

وذكر عبد المجيد الحرّ عن جبل عامل في كتابه «**معالم الأدب العاملي**»:

«إنه جبل منبسط قليل السهول كثير الأودية والهضاب، يمتد منه إلى البحر، الرأس المعروف بالرأس الأبيض أو الناقورة جنوبي صور، وينتهي عند القاسميّة، ثم يبتدىء سهل عدلون حيث ينتهي عند رأس الصرفند، وينتهي عند نهر الأولي سهل صيدا المتصل بسهل الغازية، وفي سفح هذا الجبل، سهل يرتفع عن سطح البحر أكثر من 600م، كسهل الجرمق وسهل الميذنة في سفح جبل الريحان، وكسهل (قَدَس) في الجنوب وترتفع أعلى قمة فيه عن سطح البحر فوق مشغرة، وهي قمة جبل التومات نحو 1800م؛ إلى جنوب جبل التومات، قمتا جبل الريحان وهما قمتا سجد وصافي ووراءهما إلى الشرق قمة أبي الركاب، وفي القسم الجنوبي قمة جبل المنارة، وارتفاعها 400م».

وينقسم جبل عامل إلى قسمين: جنوبي وشمالي، يفصل بينهما نهر الليطاني، ويبلغ متوسط طول جبل عامل من الشمال إلى الجنوب 80 كلم ومتوسط عرضه 40 كلم، «وقد سمي جبل عامل ببلاد بشارة نسبة إلى الأمير حسام الدين بشارة بن أسد الدين بن مهلهل بن أحمد بن سلامة العاملي»[2].

وفي القسم الجنوبي من هذا الجبل تقع بلدة (شقرا) التابعة لقضاء

(1) محسن الأمين، **خطط جبل عامل**، منشورات الدار العالمية، بيروت، 1983، ص61.

(2) عبد المجيد الحر، **معالم الأدب العاملي**، منشورات دار الآفاق الجديدة، ص19.

بنت جبيل **والتي ولد فيها السيد حسن الأمين**، مع الإشارة إلى «أن شقرا كانت معروفة بمدرستها الدينية التي أسسها العلاّمة السيد أبو الحسن موسى بن حيدر الحسيني العاملي (ت1195هـ) والتي كانت تضم أربعمائة طالب»[3].

كما حافظت شقرا على ريادتها الفكرية والدينية واستمرت أحد معالم جبل عامل الثقافية والتاريخية.

أ ـ الولادة والنشأة

1 ـ بين دمشق وشقرا

ولد السيد حسن الأمين في دمشق 1908م/ 1326هـ، وانتقل مع الأسرة سنة 1914 بعد إعلان الحرب العالمية الأولى إلى شقرا (جبل عامل) حيث تكامل صباه، ولم يعِ من أواخر الحرب العالمية الأولى إلا أشباحاً غير مترابطة لم يستطع أنْ يؤلِّف منها حدثاً متكاملاً، فهو مثلاً يذكر انتقال الأسرة من دمشق إلى جبل عامل، ولكنه لا يذكر تفاصيل هذا الانتقال، ولا ما جرى له من الطريق، ولا كيف وصل إلى شقرا؛ على أن الصورة تأخذ في ذهنه بالوضوح شيئاً فشيئاً ابتداء من نهاية الحرب.

فمما لا ينساه أبداً تلك الطلقات النارية المتتابعة التي أخذت تنبعث من أحد بيوت شقرا نهاراً بصورة كبيرة من دون انقطاع، حيث كان رجل يطلق النار من بندقيته مبتهجاً مسروراً، مما جمع الناس عليه، وقد تبيّن أن حدثاً ضخماً قد وقع في دمشق، كان من صداه هذه الطلقات وأن هذا

(3) محمد جابر آل صفا، **تاريخ جبل عامل**، دار النهار للطباعة والنشر، الطبعة الرابعة، 2004، ص239.

الحدث هو شيء عظيم للبلاد، ولم يكن الصبي يدرك في تلك السن حقيقة الاستقلال وحقيقة الحركات الوطنية، ولكنه أدرك أن الفرنسيين يحتلون البلاد، وأن هذا شيء منكَر؛ وكان الحدث الضخم هو إعلان الاستقلال السوري (8 آذار 1920)، وتتويج الأمير فيصل ملكاً على المملكة العربية السورية[4].

«وكانت دمشق في تلك الفترة تغلي كالمرجل، فالفرنسيون يتحينون الفرص للانقضاض عليها، وتحطيم الاستقلال الذي قام، والوطنيون يحاولون تدعيم هذا الاستقلال والمحافظة عليه»[5]. في 14 تموز 1920 تلقى الملك فيصل لا بوصفه ملكاً لسوريا بل بوصفه قائد جيش الحجاز المحتل لسوريا إنذاراً ـ مرفقاً برسالة مطولة ـ من الجنرال غورو يتضمن: وجوب قبول الانتداب الفرنسي، وعدداً من المطالب والشروط جرى رفضها وكان من نتائجها معركة ميسلون وانهيار الحكم الوطني.

في دمشق دخل السيد حسن المدرسة العلوية (الصف الثالث الابتدائي، كان متقدماً في اللغة العربية والتاريخ) ومقصّراً في (اللغة الفرنسية والحساب)، ويشير السيد حسن إلى الأثر الكبير الذي تركه في حياته مدير المدرسة العلوية الأستاذ أديب التقي؛ «كان فذاً ذا خلق مستقيم وإدارة حازمة وفكر نيِّر، وكان إلى ذلك أديباً من رؤوس أدباء العرب، وإذا كنت أستطيع أن أمسك القلم اليوم وقبل اليوم فإن له في ذلك الفضل الكبير»[6].

---

(4) حسن الأمين، **حل وترحال**، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1999، ص14.

(5) المصدر نفسه، ص16.

(6) المصدر نفسه، ص28.

ومضت الأيام والسيد حسن يتابع الدراسة الابتدائية في المدرسة العلوية، وفي الصف الأخير منها (الصف السادس) كتب أول مقال نشرته له مجلة **العرفان** ـ وكان عمره خمسة عشر عاماً ـ كان موضوعاً أرضى أستاذه أديب التقي الذي أرسله بدوره ـ تشجيعاً لتلميذه وبطلبٍ منه ـ إلى صاحب العرفان قائلاً: **(هذه سانحة من سوانح التلاميذ أرسلها لكم على علاتها) وكان من فضل الشيخ عارف الزين وتشجيعه أن نشرها (على علاّتها)**.

وفتحت مجلة **العرفان** ـ منذ ذلك اليوم ـ باب الكتابة للسيد حسن وشجّعته، وتكرر الأمر أكثر من مرة، وكل ما كان ينشر إنما ينشر (على علاّته).

في صيف سنة 1923، كان السيد حسن الأمين في شقرا، وقد بلغ الخامسة عشرة من عمره، وعلم أن المفوض السامي (الجنرال ويغان) دعي لزيارة جبل عامل، على أن يكون اللقاء على ينابيع رأس العين في صور؛ فقرر في نفسه أمراً، وأعدّ كلمة لإلقائها في هذه المناسبة، كتبها بالعربية وطلب من طبيب (وربما صيدلي) من صور أن يترجمها له، وقضى الليل في حفظها، حتى إذا كان الاجتماع في الغد تقدم الصفوف المحتشدة، ووقف مقابل الجنرال ليلقي خطابه الذي قضى الليل في استظهاره، فلم يفتح الله عليه بكلمة منه؛ فارتجل بما يعرفه من كلماتٍ فرنسية وقال ما معناه: «إنك لا تستطيع أن تذهب إلى أبعد من صور، حيث تنتهي طريق السيارات، وإذا استطعت الوصول بإحدى الوسائل إلى ما هو أبعد من صور، فإذا مرضت هناك فلا طبيب يعودك، وإذا كان لك ولد هناك فلا مدرسة تؤويه. **نريد طرقاً ومدارس وأطباء**. والحقيقة ـ يقول السيد حسن ـ أنني كنت أريد المطالبة بأكثر من ذلك، ولكني عجزت عن

الاسترسال في المطالب باللغة الفرنسية فسكتُّ عند هذا الحد.

وقد انفعل الجنرال وحاشيته لهذا الكلام كل الانفعال، فأشار إلى رئيس غرفته، المسيو جيسكار بأن يحضر الصبيّ إليه فأسرع آخذاً بيده يُرَبِّتُ على كتفه مبتسماً ومشجّعاً، ثم خاطبه بكلام لم يستطع متابعته وفهمه، وتُرجم فإذا به يقول: أيها تفضل أولاً الطريق أم المدرسة أم الطبيب؟ فأجاب الصبيّ: الطريق لأنها هي ستأتي بالطبيب والمدرسة. فقال: ستأتي الطريق ولكن أين هي قريتك؟ فأجابه: يجب أن تنتهي الطريق لا في قريتي بل في بلدة بنت جبيل»[7].

في دمشق راح حسن الأمين يتابع الحركة الوطنية من خلال جريدة **المفيد** وحضر أول احتفالٍ علنيٍ نُظِّم في الذكرى الرابعة لمعركة ميسلون (24 تموز 1924)، وكان الاحتفال كما ذكر مؤثراً في نفسه إلى حد أنطقه لأول مرة بالشعر (سلاماً أيها الثاوي سلاماً)، كما ساهم في أول مظاهرة في دمشق (8 نيسان 1925) احتجاجاً على زيارة بلفور إلى دمشق، وكان اليهود قد دعوه إلى القدس ليشهد احتفالهم بافتتاح الجامعة العبرية، في ذلك الوقت، جاء بلفور إلى مصر مجتازاً إياها إلى فلسطين، وإمعاناً في التحدي جاء إلى دمشق، دمشق التي اندفعت في الليل بمظاهراتها شيباً وشباناً وفتياناً وصبياناً، تحاول أن تقتحم عليه فندقه، فأخرجه الفرنسيون قبل وصول المظاهرات، ومشوا به في طريق بيروت. «واستمرت دمشق طوال الليل تغلي كالمرجل، وتجددت المظاهرات في النهار، وانطلق المتظاهرون وعندما بلغوا أواسط شارع النصر، هاجمهم فرسان المغاربة بخيولهم وسيوفهم، فتشتتت المظاهرة بعد أن كادت ضربة سيف تلامس

(7) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص50 ـ 51.

وجه السيد حسن لولا إلقاؤه بنفسه على الشجيرات الممتدة في قلب الشارع»[8].

وكان السيد حسن يتوق إلى المطالعة، فعدا الصحف اليومية التي كانت محصورة على الأغلب بجريدة **المفيد** ومجلة **العرفان** الشهرية وما يستطيع شراءه من الكتب الحديثة، قرأ في تلك السن: «مذكرات جمال باشا»، و«ما رأيت وما سمعت» (للزركلي) و«ملوك العرب» للريحاني **الذي كان له أعظم الأثر في توجيهه النثري، وتأثر به إلى أبعد حدود التأثر**، إذ زاده حباً لأدب الرحلات. وعندما بدأ يجرّب كتابة هذا النوع من الأدب كان أسلوب الريحاني فيه يجذبه فيحاول احتذاءه منفعلاً بتعابيره وطريقته، إلى أن أولع بعد ذلك بالرحلات وكتابة انطباعات فيها بأسلوب مستقل، وقد كان من فضل هذا الكتاب أن حثّه على تسجيل معظم رحلاته حتى توفّر له من ذلك كتاب كامل نشر كله مقالات متفرقة (طبع هذا الكتاب بعد ذلك باسم (من بلد إلى بلد، وهو الآن ضمن كتاب حل وترحال)[9].

خلال ما مرّ من الأحداث، كانت الأسرة كعادتها تنتقل في أغلب الأعوام من دمشق إلى جبل عامل، لا عن طريق القنيطرة، وإنما عن طريق بيروت، صور، وبواسطة الخيل إلى شقرا.

«لم تكد العائلة تستقر في شقراء حتى تتابعت الأنباء شيئاً فشيئاً، ونشبت الثورة في جبل الدروز، وكانت أخبارها تتوضح وتنجلي على أبرز حال؛ وكان لجبران التويني وجريدة **الأحرار** الفضل بتعميم أنبائها بشكل

(8) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص54.

(9) المصدر نفسه، ص55.

صريح، وتوالت أحداث الثورة وتوالت انتصاراتها بعد هزيمة الجنرال (ميشو)، ووصلت الثورة إلى الغوطة وهاجمت دمشق وحاولت أسر المفوض السامي (سيراي) ولكنه استطاع النجاة؛ وقد صبّت مدافعه وطائراته حممها على دمشق؛ وفي هذه الفترة، وصل الثوار، واحتلّوا وادي التيم وحاصبيا ومرجعيون وكوكبا. . . وقررت الحكومة الفرنسية استدعاء (سيراي) (الذي كان وصل في 22/ 12/ 1924) وأرسلت بدلاً منه مفوضاً سامياً مدنياً «دوجوفنيل» ليعالج الأمور ويصلح ما فسد منها»[10].

«وصل (دوجوفنيل) إلى بيروت في أول كانون الأول 1925[11]، وتألف وفد دمشقي للاتصال به فلم يؤدِّ إلى نتيجة، وحاول المفوض السامي الفصل بين قضية جبل الدروز والقضية السورية، فلم تثمر هذه المحاولة. . . وليستر إخفاقه، قرر الاعتماد على العمل في لبنان بإعلان الجمهورية اللبنانية، واستبدال رئيس لبناني بالحاكم الفرنسي وإنشاء مجلس شيوخ إلى جانب المجلس النيابي، لكنه لم يصل إلى نتيجة، فرأى من الأفضل أن يعود من حيث أتى، وغادر البلاد في 28 أيار سنة 1926.

«وجاء مفوض فرنسي جديد هو المسيو (بونسو) وأعلن العفو عن فريق من الثائرين، فعادوا إلى الجبل ودمشق وغيرهما، وأعلن (بونسو) قيام مرحلة جديدة، ودعا إلى انتخاب مجلس تأسيسي يضع دستوراً جديداً لسوريا، وتكتل الوطنيون (السوريون)؛ وولدت «الكتلة الوطنية» التي قادت سوريا بعد ذلك في نضالها مع الفرنسيين حتى آخر عهودهم»[12].

(10) حسن الأمين، حل وترحال، ص72.

(11) المصدر نفسه، ص73.

(12) المصدر نفسه، ص98.

في هذه الفترة كان السيد حسن الأمين والأسرة في شقرا، وطلب الوالد أن يرسلوا له مكتبته من دمشق، وكان وصولها باعثاً على الاستقرار فيها. وراح حسن الأمين يتلقى على والده الدروس في اللغة العربية والفقه الإسلامي، علماً أن الوالد كان يودّ لو يتابع ابنه الدراسة الفقهية في النجف، وقد اقترح عليه أن يذهب إليها زائراً ويستطلع الأحوال، لعله يجد ما يرغّبه في البقاء، فذهب سنة 1927 إلى بغداد ثم إلى النجف، وكان يومها يعتمر الطربوش أسوة بما كان يسود جميع البلاد التي كانت تابعة للدولة العثمانية، ونصحه أحد مريدي والده في بغداد ألا يدخل النجف بالطربوش، فاعتمر كوفية وعقالاً أبيض، وفي اليوم الذي وصل فيه إلى النجف أجمع من يعرفونه على أنه لا يمكن أن يقيم يوماً في النجف بهذا الزي، وأنه لا بد من العمامة، **وقد قضى ثلاثة أسابيع في النجف معتمراً العمامة** ولم يقتنع بالبقاء فعاد إلى لبنان، ورجع إلى الإقامة العبثية في شقرا[13].

وبناء على مساعدة أحد النافذين عُيِّن السيد حسن مساعداً قضائياً في محكمة النبطية الشرعية، ومضت الأيام في المحكمة الشرعية رتيبة، وكان العمل فيها قليلاً.

أحبّ السيد حسن الأمين أن يتابع دراسته بعد أن عرف أن الجامعة السورية في دمشق لا تشترط على غير السوريين الذين يودون الانتماء إليها أن يكونوا حائزين شهادة القسم الثاني من البكالوريا الحكومية، بل يكفي أن يكون طالب الدخول حاملاً شهادة إنهاء الدراسة الثانوية من أي مدرسة ثانوية، وعند ذلك يمكنه الاشتراك في امتحان تجربه الجامعة لحاملي هذه

(13) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص105.

الشهادة؛ وهو امتحان لا يختلف في مواده عن مواد القسم الثاني من البكالوريا الحكومية إلا في اللغة الفرنسية؛ حيث تخلو مواد هذا الامتحان من الترجمة والتعريب، لكنَّ مدرسة أهلية في دمشق قد خصصت صفاً أسمته (صف الجامعة) لغير السوريين فتقبل اشتراكهم في امتحانها من دون حصولهم على القسم الثاني من البكالوريا الحكومية، وكان من حسنات هذا الصف أنه يقبل انتماء كل طالب إليه من دون أن يثبت أنه تدرّج في دراسته الثانوية من صف إلى صف حتى وصل إلى الصف النهائي، فتسجّل في هذا الصف، وقد تطوع صديق له لمساعدته على دروس الجبر؛ واستظهر استظهاراً متقناً مواضيع في اللغة الفرنسية كانت ملخصات عن الشعراء الفرنسيين المطلوبين في الامتحان للتخلص من الصفر، ويوم الامتحان شاء المستشار الفرنسي لوزارة المعارف أن يطوّر طريقة الأسئلة ويجعلها تدور، لا على الإدلاء بما يعرفه الطالب عن الشاعر وشعره، بل على استنتاجات تحليلية فكرية، فلم يفهم من السؤال الأول شيئاً، وفهم من السؤال الثاني ثلاث كلمات (روسو وڤولتير وفلسفة) فأفرغ كل ما اختزنه عن ظهر قلب؛ وملأ ست صفحات باللغة الفرنسية، وضحك له القدر، ونجح في الدخول إلى الجامعة، وتحقق الأمل الذي ظنّه غير ممكن التحقيق.

ب ـ في كلية الحقوق

اختار الطالب حسن الأمين دراسة الحقوق في الجامعة السورية، ومضت الدراسة رتيبة، وألّف مع بعض الرفاق كوكبةً كانت تلتقي في المنازل لقاءات أسبوعية لا تخلو من التسلية البريئة، وأهم ما فيها تنظيم الكفاح الوطني ومقاومة الفرنسيين، والمشاركة الفعّالة في التظاهرات يوم قرر المفوض السامي (بونسو) إجراء انتخابات عامة في سوريا في 20 كانون الأول سنة 1931، ونتيجة لذلك نجح الطلاب في إيقاف عملية الانتخاب في دمشق، وتوصلوا إلى إجبار الفرنسيين في وقت لاحق على إصدار قرار بإيقاف جلسات مجلس النواب والحؤول دون عقد معاهدة بين سوريا والسلطة المنتدبة.

ج ـ التخرج في الجامعة

في نهاية السنة الثالثة تخرّج السيد حسن الأمين من معهد الحقوق سنة 1934، وودّع عهد الدراسة بقصيدة، منها:

«اليومَ لا فحصٌ نبيتُ لأجْلِهِ ... متقلّبينَ على الغَضَا اللهّابِ
واليوم ودّعنا الدروسَ بحسرةٍ ... لمودّعٍ لا يرتجي لإيابِ
وَلَّتْ ليالي الامتحان وأَقْفَرَتْ ... تلك الملاعبُ من جموعِ صحابي»(14)

كان تخرُّج السيد حسن الأمين في المقلب الآخر في جبل عامل حدثاً مهماً، تلقّفه رفاق له يشاركونه خطّه الوطني وتطلعاته القومية، وهو كما نعلم طليعة في محيطه، وابن السيد محسن الأمين، رجل الدين

(14) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص135.

الكبير، المصلح والمرجع المنفتح المتنوّر، فتداعى هؤلاء وأقاموا له احتفالاً في بلدته شقرا كان عبارة عن مهرجان ثوري، ألقيت فيه كلمات وقصائد ضد الانتداب والمتعاملين معه وضد الرجعية والإقطاع وبعض رجال الدين.

وفي سنة 1935 لعب السيد حسن الأمين دوراً مهماً في ترشيح عبد اللطيف الأسعد، فأقنعه بأن يقف في وجه المستشار الفرنسي في صيدا (بشكوف) ويكون مرشح الوطنيين الرافضين أن يخضعوا لسلطة الانتداب[15]. وكان هذا الترشيح تحدياً لنهج التعامل مع الفرنسيين وبداية لخط الشباب الصاعد وإعلاناً لمعركة طويلة قاسية في سبيل الاستقلال والحرية، ولولا تدخل السلطة وممارسة الضغط واعتماد التزوير لما أتيح لمرشحها أن يفوز بالنيابة علماً أن هذه المعركة كانت بواقعها أول نجاح لحركة الشباب وهم يقارعون أعتى أساليب الملاحقة والاضطهاد وكبت الحريات، «ونحن لم نتوقّعْ أن ينجح عبد اللطيف في الانتخاب لأنّ في يد السلطة كل الوسائل لإسقاطه مهما نال من أصوات الناخبين، وكان كل همنا أن لا يفوز مرشح السلطة بالتزكية، وكل خوفنا أن لا ترى السلطة معارضاً يقف في وجهها»[16].

يلفت النظر إلى أن السيد حسن الأمين الذي تخرّج في كلية الحقوق سنة 1934 لم يمارس المحاماة، ويقول: «عندما دخلت معهد الحقوق في الجامعة السورية لم يكن في ذهني العمل في المحاماة بعد التخرج لعدة عوامل، منها أن المحاماة تقتضي التفرغ لها تفرغاً كاملاً،

(15) مقابلة مع السيد حسن الأمين في 11 نيسان 2002.

(16) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص138.

مما كان سيشغل كل أوقاتي فيصرفني عن تنفيذ ما كنت أشغل به ذهني من البحث التاريخي، بعد أن استهواني هذا البحث كل الاستهواء، ومنها أن التفوق في المحاماة في لبنان كان لا يمكن لمن لا يجيد اللغة الفرنسية، فإن كثيراً من الأحداث كان آخر الفصل بها يعود إلى ما سمي بالمحاكم المختلطة، وهي المحاكم التي تتألف من قضاة فرنسيين ولبنانيين ويرئسها فرنسيون ومنها محكمة التمييز، والمرافعة في هذه المحاكم باللغة الفرنسية التي كانت مَعْدودَةً لغة رسمية في جميع دوائر الحكومة، حتى في مجلس النواب، ومعنى ذلك أن المحامي الذي لا يجيد اللغة الفرنسية لن يكون في الصفوف الأولى من المحامين، وأن ذلك محصور بخرّيجي معهد الحقوق في الجامعة اليسوعية في بيروت، ولم يكن بإمكاني التسليم بالقيام بعمل، لا يكون باب التفوق فيه مفتوحاً أمامي؛ ومنها أن طبعي بعيد عن الانغماس في مشاكل الناس وخلافاتهم، والانشغال بخصوماتهم، وهي خصومات يبعثها التكالب المادي، وإن صحّ أن المحامي يستطيع أحياناً أن ينقذ بريئاً، ويردَّ حقاً سليباً، فإنه في كثير من الأحايين سيدافع عن مجرم، وسيناصر ظالماً ويدعم مغتصباً؛ ولم أكن أحتمل أن يكون عماد حياتي قائماً على هذا الأساس. لهذا كله لم يكن في ذهني أن أعمل محامياً، وفي الوقت نفسه كانت الأبواب الأخرى مسدودة أمام أمثالنا في عهد الانتداب الفرنسي، ولم يكن في إمكاني الانصراف إلى ما يستهويني من الدراسات والبحوث، لا سيما التاريخية منها، فرأيت في التدريس في معاهد العراق ما يقربني مما أحاوله؛ لذلك ذهبت إلى العراق مرتاحاً، منشرحاً؛ فكان أن عُهد إليَّ التدريس في ثانوية (الحلّة) المنشأة في العام نفسه»[17].

(17) حسن الأمين، حل وترحال، ص141.

د ـ الترحال إلى العراق

في العام 1938 جاء السيد حسن الأمين إلى (الحلّة) كمدرس للأدب العربي، وكان مدير الثانوية الأستاذ عبد الوهاب الركابي الذي وجد أن لديه شواغر في الأدب العربي والتاريخ الحديث وفي الاقتصاد، فقسّم الدروس بين هذه الثلاثة، وكان السيد حسن مسروراً في هذه البلدة التي ينتمي إليها أساساً، لأن أسرته عراقية الأصل ومن (الحلّة) نفسها، لذلك كانت أيامه في (الحلّة) وفي تلك السنة الدراسية من أمتع أيام حياته.

في العام الدراسي الثاني سنة 1940، نقل السيد حسن إلى دار المعلمين الريفية التي تقع في منطقة (الرستميّة) من ضواحي بغداد، «فواصَلَ العمل فيها، وكانت تقع على ضفة نهر (ديالى) في مكان جميل، تحوطه المروج الخضراء والشجر الغضيض، وكانت دار المعلمين الريفية تجمع مئات التلاميذ القادمين من كل قرية في العراق، فيهم العربي القادم من الشمال والجنوب والوسط، وفيهم التركي القادم من كركوك، وفيهم الكردي القادم من كردستان، وكان تدريس قواعد اللغة العربية وآدابها لهذه المجموعات مهمة من أشق المهمات، كما كانت دار المعلمين الريفية مدرسة الفقراء، والقرويين منهم بصفة خاصة، فهؤلاء لم يكن باستطاعتهم أن يتحملوا الإنفاق ليتابعوا الدراسة الثانوية، لذلك كانوا يقبلون على دار المعلمين الريفية التي تتكفل بمساكنهم وطعامهم وملابسهم، وتضمن لهم، بعد أربع سنوات، تعيينهم معلمين»[18].

---

(18) حسن الأمين، حل وترحال، ص164 ـ 165.

هـ ــ العودة إلى لبنان

1 - في سلك القضاء

في هذه الأثناء، كانت الحرب العالمية الثانية قد أُعلنت وتمت هزيمة فرنسا، فترك السيد حسن العراق، وعاد إلى لبنان، وعُيِّن حاكماً لمحكمة النبطية في 3 أيلول 1942 بموجب المرسوم رقم NI/12333 (كان في حينه السيد ألفرد نقاش رئيساً للجمهورية، والسيد سامي الصلح رئيساً لمجلس الوزراء ووزيراً للمالية، والسيد أحمد الحسيني وزيراً للعدلية).

مارس السيد حسن الأمين عمله كقاضٍ بإخلاص وتجرُّد وشفافيّة، وهذه الصفات الملازمة للقاضي كانت من طبيعة نشأته وتربيته وأخلاقه، لكن لم يطل به الأمر إذ **اصطدم مع بعض رؤسائه** بسبب مواقفه المتشددة وأحكامه ضد من عملوا على تهريب اليهود إلى فلسطين حين تأكد له أن الذين أوقفهم وأصدر حكمه عليهم تقرر إخلاء سبيلهم بالإجماع بعد الاستئناف، وصدر المرسوم رقم K/2127 تاريخ 1944/10/23 بنقله إلى زحلة وتكليفه شؤون محكمة راشيا، فقرّر ترك العمل، وأرسل استقالته دون أن ينتظر قبولها (وكان في حينه الشيخ بشارة الخوري رئيساً للجمهورية، ورياض الصلح رئيساً لمجلس الوزراء، وحبيب أبو شهلا نائباً لرئيس مجلس الوزراء وزيراً للعدليّة، وحميد فرنجية وزيراً للمالية).

ز ــ إلى العراق من جديد

بعد استقالة السيد حسن الأمين من القضاء ومعرفة بعض أصدقائه في العراق بذلك، دعوه إلى بغداد فقبل دعوتهم، لكنه آثر أن يؤجلها إلى

أوائل السنة الدراسية، وبذلك يتسنّى له زيارة مصر التي سافر إليها بالقطار من دمشق وعبر فلسطين.

وفي الصيف قبيل ابتداء السنة الدراسية، كان في بغداد وعاد إلى التعليم، وهذه المرة في معهد الملكة (عالية) للبنات أستاذاً للأدب العربي.

ومن ذكرياته مظاهرة نظّمتها الطالبات سنة 1947 احتجاجاً على تقسيم فلسين، وأصررن على أن يكون السيد حسن معهن، «فقبل أن يسير معهن كمسؤول عن كل ما يجري في المظاهرة قائلاً لهنّ: أنا لا أحسب أن فيكنّ من ترضى بالإساءة إليّ، لذلك سنحدّد الشعارات، فلا تتعدى فلسطين وقضيتها؛ فكان صوتهن واحداً بالموافقة؛ وأردف: سأسير أنا في أول المظاهرة فحيث اتّجهتُ تتجه المظاهرة، وعلى أن يكون السير في صفوف منظمة؛ وهكذا كان، وكان بين الحين والآخر، يترك المقدمة ويرجع إلى الوراء لملاحظة الهتافات، فإذا ما توجّس منه قد وقع؛ إذ سمع صوتاً يصرخ: ماذا تريدون؟ فتجيبه بضعة أصوات: الحرية والخبز (شعار للشيوعيين) فأسرع نحو صاحبة الصوت وبمجرد وصوله إليها، كان صوتها قد انطلق: ماذا تريدون؟ وكان قد صار وراءها تماماً، فأهوى بكفّه على رقبتها صائحاً: نريد أن تخرسي! وإذا بها تراه فخجلت وانطوت على نفسها»[19].

كانت في تلك الفترة انطلاقة ما سمي بالشعر الحديث، وبدء ظهور شعرائه: نازك الملائكة، بدر شاكر السيّاب، عبد الوهاب البيّاتي، لميعة عباس عمارة، وبلند الحيدري.

وكان السيد حسن الأمين «بين الحين والآخر يزور مكان صدور

---

(19) حسن الأمين، حل وترحال، ص193.

مجلة أسبوعية في بغداد يصدرها فريق من خرّيجي الجامعات الأميركية، وأثناء زيارته سمع المسؤول عن تحرير المجلة يعلق على رسالة تحتوي على قصيدة، قائلاً: «ما زالت هذه البنت تشغلنا برسائلها وما تقول إنه شعر. ثم نحّى الرسالة مع ما لا ينشر، وألقى بها مع غيرها من المهملات في درجٍ من أدراج مكتبه»، فتدخّل السيد حسن وفضّ الرسالة وإذا به أمام شعر من أعذب الشعر وأرقاه، منطلق بأسلوب جديد رائع. فقال له: أعطني ما عندك من أمثال هذه الرسالة؛ فناوله رسالتين «كانتا تحتويان على مثل ما احتوت عليه الرسالة الأولى من الشعر العذب الرقيق الجديد الأسلوب»[20]. فصمّم على نشر هذه القصائد وأرسلها تباعاً إلى مجلة **العرفان**، ففوجىء الناس بهذا الشعر الجديد، وفوجئت الشاعرة نفسها بنشر قصيدتها في مجلةٍ لم ترسلها إليها، وكانت هذه القصائد الثلاث التي نشرت كلها أول شعر ينشر لنازك الملائكة.

«أما السيّاب فقد كان طالباً في دار المعلمين العالية التي كان السيد حسن يدرس فيها، ولكن في فرع آخر، وقد علم أن في الدار طالباً شاعراً، أصدر ديواناً صغيراً باسم (أزهار ذابلة) فكتب ـ تعريفاً به وبديوانه ـ مقالاً في جريدة (الأخبار) اليومية كان أول ما يكتب عن السياب»[21].

■ ■ ■

قضى السيد حسن الأمين أربعة أعوام في العراق، كانت حافلة بالاطمئنان والهناء والعطاء؛ وقد خرج سالماً من هذه التجربة الحلوة، إلاّ أنه حمل منها لواعج وأحاسيس ومشاعر أطلّت زفراتها ومعاناتها في نثره وشعره وأحاديثه وذكرياته:

---

(20) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص195.

(21) المصدر نفسه، ص196.

رُدْ عَــلَــيَّ حَــدِيــثَــهُــنَّــهْ ... وأعِــدْ لِــسَــمْــعِــيَ ذِكْــرَهُــنَّــهْ
يَــا مَــنْ يُــسَــائِــلُ كَــيْــفَ هُــنَّــهْ ... أَوَ مَــا رأيْــتَ جُــمُــوعَــهُــنَّــهْ؟!
هُــنَّ الــحَــمَــائِــمُ يَــبْــعَــثُ الــشَّــجْــوَ ... الــكَــمِــيــنَ هَــدِيــلُــهُــنَّــهْ
هُــنَّ الــحَــرائــرُ مِــثْــلُ مــاءِ ... الــمُــزْنِ طُــهْــراً خُــلْــقُــهُــنَّــهْ
هَــيْــهَــاتِ تُــنْــسِــيــنِــي الــلَّــيَــالِــي ... الــمُــنْــسِــيَــاتُ دُرُوسَــهُــنَّــهْ[22]

حـ ـ وداع العراق

يوم عزم السيد حسن الأمين على ترك العراق كتب يودّعه:

«أربعة أعوام توالت عليّ، وكانت أزهر صفحة في دهري، وأنضر صورة في ذهني، وأجمل مشهد في نفسي، وعندما آذنت هذه السنون بالزوال، ومالت إلى الانطواء، وعندما ختمتُ حياتي العراقية، ومشيت أعاود قطع الصحراء آيباً كما عاودْتُه ذاهباً، إذا بي وقد (تناءت عن عيني مشاهد العراق، وغابت معالم السهول والجبال واحتوتني الصحراء بوحشتها) أتلفّت إلى الوراء منشداً:

وَلَوْ قالَ لي الغادون ما أنتَ مُشْتَهٍ ... غداةَ جزِعْنا الرمْلَ؟ قلتُ: أعودُ
أَتَطْلُبُ يا قلبي العراقَ من الحمى؟ ... لِيَهْنِكَ من مرمًى عليك بعيدُ
ترى اليوم في بغداد أنديةَ الهوى ... لها مُبدِىءٌ من بعدنا ومعيدُ[23]

«لقد غابت بغداد عن ناظريّ، ولكن بغداد لا تغيب عن نفسي!!، فلا أزال أرى دجلة متدفقاً بين الرياض والمروج، ولا أزال أبصر نخيلها

(22) حسن الأمين، حل وترحال، ص194.

(23) المصدر نفسه، ص203.

متمايلاً مع النسائم والأرواح، ولا تزال صورها الحلوة تتعاقب في خاطري غضة طرية الألوان؛ ولقد انطوى العراق عن ناظريّ، ولكن العراق لا ينطوي عن ذهني، فلا أزال أشاهده ناضر الصفحة، زاهر الجبين، ولا أزال أتطلع إلى الرافدين يشقّان أديمه الأخضر، ولا أزال أطلّ على ضفافهما الكاسية العامرة، وأرى الدوح الفارد، والأيك الدائح، وأنظر جموع الفتيان وصفوف الشيوخ والكهول.

لقد غاب العراق عن بصري، ولكن العراق لن يبعد عن قلبي»[24].

■ ■ ■

السيد حسن عندما غادر العراق، ترك قلبه فيه، وحمل معه ذكريات لا تُنسى كانت شريطاً مسجلاً لأيام ارتحاله، تنقّل فيها بين المدن والقرى والأرياف، وجاب الشمال والجنوب والشرق والغرب، وشاهد الرافدين من ملتقاهما حتى مصبهما، أيام كانت حافلة بالأفراح والأشجان والأحلام والأوهام، والآمال والأسى، والأوجاع والأشواق، لكنه أحب كلَّ ما كابَدَهُ وعاناه، وبقيت أيامه العراقية ذكرياتٍ حميمة تختزن فترةً حلوةً زاهية من مرحلة الشباب، ونحن عندما نقرأ نثره وشعره عن بلاد الرافدين، نلمس تعلّقه ووفاءه وحنينه إلى تلك المرابع، ونحسّ أنها متجذرةٌ في نفسه وخاطره وذهنه يكاد يراها صوراً تتعاقب، ولوحات تتوالى غضّةً طريّة الألوان.

ط ـ أثر البيئة في تكوين حسن الأمين

في ذكرى أربعين السيد محسن الأمين كتب الشيخ أحمد رضا عن الفقيد «صحبت كثيراً من الفقهاء وطالعت أخبار كثير من العلماء، فما

(24) حسن الأمين، حل وترحال، ص203.

رأيتُ ولا سمعتُ بأكثر جامعيّة لفضائل العلم، وأخلاق العالم، وزهد العالم، وتواضع العالم، وعشق العالم، من فقيدنا العظيم، تلك الصفات التي يجب أن يتحلّى بها أو ببعضها العلماء، كنا إذا تذاكرنا أمامه بالأدب أو باللغة أو بالعلوم العربية، فوجئنا بما فات نظره من هذه المفردات لم يُحجم عن أن يقول: هذه فائدة استفدناها فتكبر بقوله هذا عظمتهُ في أعيننا! وكان ذا صبرٍ وجَلَدٍ على البحث العلمي، وكنت تراه وهو يطوف الفيافي بين الشام والعراق، وبين العراق وفارس وخراسان، طالباً في زوايا خزائنها ما تزوّد به مؤلفاته العديدة، وبما يستريح إليه من الحقائق الراهنة بفعل ذلك، وهو في العقد الأثمن من عمره، وقد وهب شباب ناصيته إلى شباب همّته فزادت ضعفين!!»[25].

وتقول عنه صابرينا ميرفان: «العلاّمة الديني المجتهد الذي أنهى دراسته في النجف ونال إجازات بالاجتهاد، استقر في حارة الشيعة في دمشق حي الخراب في خريف العام 1901، وقد استدعاه المواطنون فيها، وبقي فيها ما خلا أشهر الصيف التي كان يمضيها في شقراء»[26]. وتتابع: «كان السيد محسن الأمين في الرابعة والثلاثين من عمره، عندما قدم إلى دمشق، عالماً دينياً لإدارة شؤون المسلمين الشيعة وهم طائفة صغيرة تقيم منذ زمن بعيد حيث كان يسكن العلماء الشيعة، ممن يمرُّون بهذا المكان، وكذلك الحجاج الفرس وهم في طريقهم إلى مكة، وتقع حارة الخراب في أقصى الشارع الطويل الذي يفصل بين أحياء المسلمين والمسيحيين

(25) محسن الأمين، **رحلات السيد محسن الأمين**، دار التراث الإسلامي، بيروت، لا سنة، ص4 ـ 5.

(26) صابرينا ميرفان، **حركة الإصلاح الشيعي** (ترجمة هيثم الأمين) منشورات دار النهضة، بيروت، الطبعة الأولى، 2003، ص511.

من جهة وحارة اليهود من جهة أخرى»[27]، فعمل جاهداً على إنشاء مدرسة جديدة في الحارة (المدرسة العلوية) وكانت تعلّم العربية والفرنسية والتركية والفارسية والتي أصبحت لاحقاً المدرسة المحسنيَّة، وأتبعها لاحقاً مدرسةً للبنات (المدرسة اليوسفية)، وساهمت هاتان المدرستان في إطلاق حركة إصلاح في الحي الذي أصبح يدعى بحي الأمين، «وقد رفض أن يعتبر الشيعة أقلية مستقلة بأحوالها الشخصية عن المسلمين، ورفض في الوقت نفسه تعيينه رئيساً لهذه الطائفة بعد أن أصدر الفرنسيون مرسوماً بذلك، فقال للرسول الذي جاءه بالكتاب: «قل لصاحبه إن هذا الأمر لا أسيرُ إليه بقدم ولا أخط فيه بقلم، ولا أنطق فيه بفم»[28].

واستمر السيد محسن الأمين في عمله الإصلاحي، وفرض بموقعه ومواقفه الوطنية وانفتاحه احترامه على الجميع، وانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي في دمشق. كان مأخوذاً بتأليف موسوعة (أعيان الشيعة) التي استغرقت معظم أوقاته، وتطلبت منه بحثاً وتنقيباً وتحقيقاً وسفراً وسهراً وكتابة وشرحاً، ووصل بها إلى حرف السين.

تأثر السيد حسن بأبيه في الدين، ودرس عليه قبل أن يدخل المدرسة، وتابع طويلاً هذه الدراسة في المسائل الفقهيّة واللغويّة والأدبيّة، وتأثر به كذلك في المواقف الوطنية، خصوصاً وأن منزل السيد محسن الأمين كان مفتوحاً أمام كبار القوم الذين يتعاطون الشأن العام، «وكان يخالط الوطنيين ويشاركهم الرأي دون أن يتورط في السياسة»[29].

في هذا البيت ولد حسن الأمين، وعلى هذا الأب تهذّب وتربّى،

(27) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص197.

(28) **سيرة السيد محسن الأمين**، تحقيق وشرح هيثم الأمين وصابرينا ميرفان، منشورات رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2000، ص189.

(29) صابرينا ميرفان، **حركة الإصلاح الشيعي**، ص512.

وبه تأثر، ومنه اكتسب ونهل، وعلى هديه سار وعمل.

ويذكر السيد حسن أنه «سار على منهجه في دراسة التاريخ الإسلامي، فيما كان يطالعه في الكتب التي ينشرها في ذلك الحين خاصة كتابه (المجالس السنية) الذي كان يقرأه حين صدوره ملزمة ملزمة، وكتاب (الإمامة والسياسة) الذي كان له يد في انجذابه إلى التاريخ، بالإضافة إلى قراءة الشعر واستظهاره وتسجيل ما يستحسنه في دفاتره»[30].

وتأثر السيد حسن كثيراً برفاقه الطلاب في الدراسة الثانوية والجامعية في دمشق التي كانت تمور بالأحداث منذ معركة ميسلون (24 تموز 1920) وحتى مطلع الثلاثينيات، فشارك في المظاهرات، ووعى أحداث ثورة جبل العرب (تموز سنة 1925) وامتداداتها إلى حوران والغوطة وأطراف لبنان، وكذلك قصف دمشق بالطيران والمدافع. وساهم بفعالية - إلى جانب رفاقه الجامعيين - في تنظيم المظاهرات والاحتجاج ضد انتخابات (20 كانون الأول سنة 1931) التي سقط فيها عدد من القتلى والجرحى[31].

وعندما تخرّج السيد حسن من كلية الحقوق في الجامعة السورية، كان قد حمل معه الكثير الكثير، حمل لهجة دمشقية في حديثه، وذكريات طفولته في أحيائها، وذكريات صداقة مع أترابه، ذكريات وانطباعات وتأثيرات وأحداثاً ساهمت في تكوينه، ورسمت له طريقاً، وحدّدت مساراً لمستقبله.

جاءت هذه المكوّنات - بالإضافة إلى ما حمل من بيئته العاملية - في شقرا والنبطية لترفد لاحقاً أثر بغداد والعراق في تفكيره وشخصيّته التي جاءت نتاج المدن الثلاث وحملت دلالاتها.

(30) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص55.

(31) المصدر نفسه، ص122.

«فقد طبعته **دمشق** ـ كما قال الأب يوسف مونّس ـ بدورها الرائد وهو عروبة دون انغلاق، وثورة تتوهج بالكرامة والاحترام، وإسلام سمح رائد قابل حق الافتراق والاختلاف والتنوع، وبجهاد لإحلال الحق والحرية والكرامة لك وللآخرين باحترام للشخص البشري ليكون الإنسان ينبوع سلامٍ وإخاءٍ وتنوّع حضاري رائد.

وأعاده **جبل عامل** إلى اكتشاف ثرواتٍ ثقافية تدعو إلى المصالحة والحوار والعيش المشترك في الجرح الكربلائي المسكوب على الفقر والتراب المقدّس، حيث البُعد الشيعي يشهد **لهذه الولادة الجديدة من الفاجعة حيث الضحيّة تعطي الخلاص لجلادها من عذابها، ومن على صليبها وموتها وقيامتها** غافرةً له، ومسامحةً داعيةً إلى التجدّد والتراحم ليتجدّد وجه الآخر بالفرح والرجاء والحوار والموادعة.

أما **بغداد** فقد أعطته الاجتهاد والفقه المنوّر فأبعد الفكرَ الديني بالدراسة العلمية وحماه من الخرافة والتخلُّف وجعله في الحداثة المنوّرة فأتى بالرحابة وانفتاح الرأي.

حسن الأمين السوري ـ اللبناني العراقي حمل من هذه البيئات الثلاث الثورة والوجع وانفتاح العقل وفضيلة الحوار وقبول الآخر. والتزم بهذه الفضائل باحثاً عن الحقيقة المجردة بموضوعية بعيدة عن التعصب والأفكار الجامدة»[32].

■ ■ ■

اغتنى السيد حسن الأمين في رحلاته إلى العراق وإقامته في بغداد

(32) يوسف مونّس، في حفلة تكريم حسن الأمين في كلية الآداب الجامعة اللبنانية، قاعة نزار الزين، 20 حزيران، سنة 2002.

أكثر من ثماني سنوات، وممارسته التعليم العالي - كما أغنى طلابه - بثقافة واسعة، وتجارب كثيرة. وعاصر إرهاصات ولادة الشعر الحديث، وشجّع بعض روّاده، وكتب في أدب الرحلات، وحمل معه من العراق شعراً ونثراً وحنيناً وذكريات بقيت آثارها ظاهرة في أحاديثه وكتاباته وتصرفاته.

«كان حسن الأمين - كما ذكر فرحان صالح - ابن بيئته يتدرّج فيها الانتماء من الوطني إلى القومي والإنساني، وبذلك كان لبنانياً بامتياز، كما كان عربياً دون الالتفات إلى الشأن الديني وزجّه في الشأن القومي، وقد انتمى إلى بيئة أنجبت علماء وكتاباً طليعيين، فهو من معدنها، كان منفتحاً على الغير وإن خالفه هذا الغير الرأي، وكان محاوراً في مختلف مجالات السياسة والفكر والقومية»[33].

■ ■ ■

بعد عودته من العراق، أقام السيد حسن الأمين في لبنان، متنقّلاً بين شقرا في جبل عامل وبيروت ودمشق، وقرب والده باستمرار - باستثناء رحلتين لعدة أشهر إلى فرنسا وأميركا -، وقد لازمه حتى وفاته في 30 آذار سنة 1952.

ألقى عليه رحيل والده مهمة شاقة، بسبب التزامه وتعهده له بإكمال ما كان بدأه بإصدار سلسلة (أعيان الشيعة)، علماً أن الأب كان قد وصل في عمله عند وفاته إلى حرف (السين)، فبات على السيد حسن أن ينصرف إلى تحقيق هذه المهمة التي وضعها نصب عينيه، وقد تفرّغ لها ونذر نفسه لإكمالها، وقضى عمره المديد، عازباً، يقرأ وينتقي ويجمع

(33) حسن الأمين، **دائرة المعارف الإسلامية الشيعية**، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، حارة حريك، الطبعة السادسة، 2002، ج26، ص88.

ويناقش ويحقق ويكتب بموضوعيّة وتجرد، حتى توصّل إلى إتمام سلسلة الوالد، وأتبعها بمستدركات أعيان الشيعة (11 مجلداً)، وأصدر عشرات الكتب في التاريخ والأدب بالإضافة إلى دائرة المعارف الإسلامية الشيعية (26 مجلداً) والموسوعة الإسلامية (6 مجلدات).

السيد حسن الأمين الذي طاولت حياته حوالى القرن من الزمان، توفي عصر الاثنين في 14/10/2002. وقد نعاه المكتب الإعلامي في المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، واصفاً إياه المفكّر الإسلامي الكبير، والمؤرخ الأديب الذي «قضى عمره الشريف عاملاً بالبحث والكتابة والتأليف، وله حوالى الخمسين مؤلّفاً منها **دائرة المعارف الإسلامية الشيعية والموسوعة الإسلامية**»[34] ودفن في بلدته شقرا.

(34) حسن الأمين، **دائرة المعارف الإسلامية الشيعية**، ج26، ص69.

ي ـ أربعة أسئلة حول سيرته

وأنا أواكب السيد حسن الأمين رأيتني أتوقف عند محطات لافتة في سيرته أوقعتني في حيرة متسائلاً عن السبب أو الأسباب التي جعلته يسلك منحىً معيناً، حسبت أنه قد لا يتوافق هو ومنطق الأحداث.

السؤال الأول: لماذا لم يختر السيد حسن أن يصبح رجل دين شأن والده؟ وهو المعجب به والأقرب إليه من إخوته خصوصاً «وأنه اقترح عليه أن يذهب إلى النجف زائراً، ويستطلع الأحوال هناك، فلعلّه يجد فيها ما يرغّبه في البقاء»[35]؟.

أول ما يلفت النظر أن الإخوة الأربعة (محمد باقر، جعفر، عبد المطلب، هاشم) لم يقلّدوا أباهم، ولم يتّبعوا نهجاً كانت تسير عليه العائلات الدينية في جبل عامل، كان ولا يزال يقضي بأن يرسل رجل الدين ابناً أو أكثر إلى النجف لتستمر (المهمة ـ الرسالة) في البيت.

الجدير بالذكر أن الابن (هاشماً) ذهب إلى النجف وبدأ الدراسة واعتمر العمامة وشهد تداعيات حملة والده الإصلاحية على شعائر عاشوراء وردة فعل بعض التقليديين في النجف ضده، «وكان قد نشر سنة 1924 **المجالس السنيّة** التي أثارت احتجاج بعض رجال الدين ثم أتبعها سنة 1928 رسالة التنزيه»[36]، وكان مع السيد هاشم يومئذ زملاء عامليون يتابعون دراستهم «أطلقوا على أنفسهم اسم (إخوان الصفا) وأظهروا ابتعادهم عن نظام التعليم المتّبع وشرعوا بانتقاد من سبقهم من رجال الدين، وحاولوا قلب نظام الانتساب إلى مراجع أدبيّة جديدة منهم علي

(35) حسن الأمين، حل وترحال، ص105.

(36) صابرينا ميرفان، حركة الإصلاح الشيعي ص254.

الزين وحسين مروة وهاشم الأمين ومحمد شرارة وابن خاله محسن شرارة، ولم يبقَ منهم على عمامة رجال الدين إلا هذا الأخير، وكان هاشم أول من ترك العلوم الدينية والنجف، وانضمّ إلى الحزب الشيوعي السوري»[37].

وهكذا ابتعد الأبناء مختارين - وربما كثيراً - عن الأجواء الدينية واختطّ كلٌّ منهم طريقاً لنفسه.

السيد حسن اختار دراسة الحقوق، وكان أصلاً يفضل دراسة التاريخ لكن الظروف في تلك الفترة حالت دون ذلك، **وقد حقّق هذه الأمنية الغالية لاحقاً وتفرّغ لها**، وأشار إليها الشاعر عباس فتوني (مؤرخاً وفاته) ببيتين على شاهد قبره:

شقراء كالخنساء ترثي من سخا بيراعه وغدا لوالده أخا

ومباسم التاريخ تنعى نفسها أرّخ: قضى حسن الأمين مؤرخا[38]

2002=842 132 118 910

يبقى أن السيد حسن بعد التعليم في العراق (خلال مرحلتين)، وبعد تركه الوظيفة (في سلك القضاء)، انصرف إلى التأليف والبحث والتعمق في الدراسات الإسلامية والتاريخية، وكان بالواقع والتحصيل علاّمة متبحّراً في الأمور الدينية، لكنه لم يعتمر العمامة، ولم يتفرّغ لهذه المهنة بين الناس.

السؤال الثاني: لماذا لم يتزوّج حسن الأمين وبقي عازباً؟

هو أمرٌ مستهجَنٌ ونادرٌ أن يبقى مسلمٌ أعزبَ خصوصاً في بيئة دينيّة محافظة تعتبر الزواج واجباً دينياً (من تزوج أكمل ثلثي دينه)، وحسن

(37) صابرينا ميرفان، **حركة الإصلاح الشيعي**، ص251.

(38) حسن الأمين، **دائرة المعارف الإسلامية الشيعية**، ج21، ص102.

الأمين ابن هذه البيئة التي كثيراً ما يتزوج أبناؤها صغاراً، لأن الأهل يشجعونهم على ذلك، هذا إذا لم يختاروا لهم زوجاتهم!! والأولاد يخضعون عادةً لهذا (الخيار المفروض) ويستسلمون اعتقاداً منهم بأنّ طاعة الأهل وعدم إغضابهم من مسلمات العقيدة.

السيد محسن الأمين لم يمارس هذا الخيار مع أبنائه، وعمل على توجيههم نحو العلم في (المدارس الحديثة) وأنشأ باكراً في دمشق مدرستين للذكور والإناث تعلمان اللغة الأجنبية وتتبعان البرامج الرسمية التي وضعتها وزارة التربية.

السيد حسن الأمين في هذه الفترة حسم خياره ودرس ودخل الجامعة وتخرّج في كلية الحقوق سنة 1934 وهو ابن ست وعشرين سنة، وكان عليه أن يدخل معترك الحياة الاجتماعية، ويشق طريقه ويتوصل إلى مركز يرضي طموحه، هو لم ينتسب إلى نقابة المحامين، لأن ممارسة هذه المهنة في حينه كانت تتطلّب إجادةً للغة الفرنسية ـ الأمر الذي لم يتوفّر فيه ـ بسبب نظام المحاكم المختلطة. كان عليه أن ينتظر أربع سنوات من الوقت الضائع، ويسافر بعدها إلى العراق مدرِّساً في الحلّة (سنة 1938) ويبدأ هناك في كتابة أدب الرحلات واستئناف نظم الشعر[39] ثم ينتقل في السنة الدراسيّة الثانية إلى دار المعلمين والمعلمات في الرستمية (إحدى ضواحي بغداد) حيث أمضى ثلاث سنوات، عاد بعدها إلى لبنان، ودخل سلك القضاء، واستقال منه بعد سنتين، ليعود مجدداً إلى العراق سنة 1945 معلماً للأدب العربي في معهد الملكة «عالية»، الذي أنشىء في حينه للبنات، «إذ كانت الأسر العراقية المحافظة تتجنب

(39) حسن الأمين، حل وترحال، ص144 ـ 145.

إرسال بناتها إلى التعليم العالي المختلط، واختير ليكون أستاذاً في هذا النوع»[40].

هذه الفترة في العراق التي استمرّت أربعة أعوام «كانت أزهر صفحة في دهره، وأنضر صورة في ذهنه، وأجمل مشهد في نفسه»[41]، كان فيها بين الصبايا وفي أحلى مرحلة من عمرهن، كواعب متفتّحات في نضارة الشباب، ونداء الأنوثة، بين حَوَر العيون واحمرار الخدود وساحر اللفتات وواعد البسمات، بين الأسئلة المثيرة والإيحاءات المحيِّرة، ومادّة التعليم ـ الأدب العربي ـ مغريةٌ خاصة عندما تتناول مواضيعها الشعر الغنائي والغزل ومعاناة المحبين ولواعج الشوق وعذاب البعاد. كان حسن الأمين يصوغ مادته بأسلوب أنيق، يسكب روحه في تعابيره، ويجهد في ألاّ يترك معنىً إلا ويجلوه، ولا نقطةً إلا ويشبعها تفسيراً وتوضيحاً، والطالبات يلتقّيْن الدرس بشغف كمن يصغي إلى نشيد محبَّب، أو يطفىء عطشه بالماء القراح!! بعضهنّ أخذهنّ العجبُ بالمعلم القدير، وشدّهن إليه شيءٌ لم يفهمنه، شيء ارتحن إليه ولم يحاولن تفسيره، وقد سرى خدرٌ في أوصالهن ورحْنَ في دوّامة وفي وجدٍ لذيذ!!! المعلم يجود، يعطي من قلبه ومن فكره أبهى الصور وأحلى الكلمات، يغرف من فيض وجدانه، وقد كتم في داخله شعوراً حاول ألا تعرفه إحداهن، وجهد في ألا تدلّ عليه حركةٌ أو نظرةٌ أو إشارةٌ أمام طالباته!!!

وقد ذكر السيد حسن في سنواته الأخيرة، في مقابلة أجراها معه السيد مهدي الأمين[42]، أن إحداهن ـ ولم تكن جميلة ـ أثقلت عليه

(40) حسن الأمين، **دائرة المعارف الإسلامية الشيعية**، المجلد 26، ص44.

(41) المصدر نفسه، ص47.

(42) مقابلة بتاريخ 8/ 4/ 2005.

بحبها وأزعجته، بينما كان يكتم إعجاباً وانجذاباً وربّما حبًّا لجميلة سواها، وقد رحل السيد حسن وأخذ معه سرّه ومعاناته، وفي هذه الفترة، لم يترك شعراً يدلُّ على ذلك، وعندما ترك العراق كتب:

«غداً لا يبقى من هذه السنوات إلا أطيافٌ تتراءى من وراء الزمن، غداً عندما نعود ونضرب في الآفاق، ويفصلنا عن تلميذاتنا ما لا يُحصى من الأبعاد والأزمان، سنذكر أنه كان لنا في سالف الأيام تلميذات جمعهن إلى رصانة الخلق رجاحة العقل، وضممن إلى التهذيب العلمَ الجمّ، وسنذكر أنه كان لنا بعضُ اليد في إعدادهن لمستقبلهن العتيد، وستكون هذه الذكرى من أحب الذكريات إلى خواطرنا»[43].

■ ■ ■

وبقي حسن الأمين وفياً لعزوبيته وهو يغادر العراق، وقد تجاوز الأربعين من عمره، علماً أن الإنسان في الأربعين ـ وبعدها ـ يصبح أكثر نضجاً، وأعمق معرفة، وأوسع تجربة، فكيف الحال عندما ينصرف متبتلاً للمطالعة والكتابة والتأليف ويتفرّغ لقضية الثقافة؟ في أحد الأيام سأل صديقٌ (السيد حسن) لماذا لا تتزوج؟ فضحك وروى له حادثة جرت مع أحد الطلبة في النجف وقد تزوّج باكراً، وكان يستعير الكتب من زملائه ويحتفظ بها حتى يفرغ منها، وعندما طلب زميلُه يوماً الكتاب الذي لم يُعَدْ إليه، جاء إلى البيت يفتش عنه فلم يجده وسأل زوجته عنه فأجابت: الكتب في البيت مرتع للصراصير والحشرات والغبار وقد ألقيتها خارجاً، ويضحك السيد حسن ولا يعلّق، والحادثة خير جواب[44].

(43) حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ص47.

(44) مقابلة معَ السيد مهدي الأمين بتاريخ 8/4/2005.

لكنّ تجارب السيد حسن لم تغيِّر من واقعه ربما لأنه بات يعتقد أن استغراقه في العمل وتصميمه على إنجاز ما وعد والده به من إكمال موسوعة **أعيان الشيعة** ـ وسواها مما كان يطمح إلى إنجازه ـ من شأنه ألا يسمح له أن ينصرف إلى حياة زوجيّة وما تستتبع من واجبات، وربما لاقتناعه بأن امرأة ـ مهما تكن مثقفة ـ لا تحتمل هذا الاستغراق بين الأوراق؛ ومعظمه على حساب حياتها وسعادتها. لكنّ الرجل لم يعشْ كفيلسوف المعرّة، فلم يبتعد عن المرأة ولم ينقم عليها، وإنما استمرّ موقعُها الأثيرُ في نفسه، وبقي لديه دفءُ إطلالتها وأنسُ جلستها وسحرُ أنوثتها، وكان بين الحين والآخر يخلد إلى خلوة حميمة مع امرأة، من عائلة مرموقة، كانت تبادله الإعجاب والمودة والمحبة ـ وكان كلاهما في خريف العمر ـ كان لقاؤهما نوعاً من التعويض عمّا انقضى من العمر، أو ندماً على الفرص الضائعة في ميعة الصبا، وقد رحلت قبل سنوات من وفاته، فبكاها شعراً ببضعة أبيات[45].

السؤال الثالث: أ ـ لماذا قصر السيد حسن الأمين رحلاته على بعض بلاد الشرق ولم يزر بلاد المغرب والأندلس؟

كانت رحلة السيد حسن الأمين الأولى إلى العراق سنة 1927 ورحلته الأخيرة إلى إيران سنة 1996، ويعني ذلك أنه، خلال تسعة وستين عاماً زار العراق وإيران والبحرين وباكستان والهند في المشرق، وزار فلسطين ومصر والمهديّة (في تونس)، ولم يزر بقية بلاد المغرب ولا أسبانيا، أسبانيا الغنية بالتراث الإسلامي وبأحداث التاريخ، وأتصوّر أن **الحاجة المادية** كانت السبب في ذلك.

السيد حسن لم يكن ميسور الحال للقيام برحلات تتطلب مالاً

(45) مقابلة مع السيد مهدي الأمين بتاريخ 8/ 4/ 2005.

وشراء حاجات وكتب ومخطوطات إلخ. وزياراته لبلاد الشرق كانت بمعظمها - إن لم تكن كلها - بناء لدعوات إلى مؤتمرات أو لإلقاء محاضرات - في مواضيع - تتعلق بالإسلام عامة وبالشيعة خاصة، وقد كتب عن زياراته هذه بحماسة وشغف، لأنها تحمل ملامح من جبل عامل (علماء ذهبوا إلى إيران والهند: الشيخ لطف الله العاملي في أصفهان، بهاء الدين العاملي في خراسان، الشيخ محمد علي خاتون في الهند) أو لأنها تتناول مقامات مقدسة (الإمام علي الرضا في مشهد) أو تتحدث عن أماكن أثريّة (جوامع أصفهان) أو لأن علماء وشعراء خرجوا منها (نيسابور وعمر الخيام). لقد كان له أصدقاء ومحبون يعرفون موقعه، وييسّرون له ما أمكن من أسفار؛ الأمر غير المتوفّر في المغرب العربي، وكثيراً ما كان يعبّر بأسف عن ذلك، ويشكو تقصيراً تجاهه لتوجيه دعوة أو دعوات له لزيارة بلاد المغرب العربي ورباطاته ليكتب عنها، وقد حمل معه عندما رحل هذه الحسرة التي طالما أوجعته.

ب - لماذا لم يحج السيد حسن إلى مكة؟

هو ابن السيد محسن الأمين مؤلف **أعيان الشيعة** والذي تصدّى لمنتقدي الشيعة ومذاهبهم وخاصة (الحركة الوهابيّة) التي كان أتباعها يناهضون الشيعة، وقد قاموا بغزو العراق عدة مرات في أوائل القرن التاسع عشر وحاصروا النجف ونهبوا كربلاء سنة 1802، ومؤسس هذه الحركة محمد بن عبد الوهاب (1703 - 1792م) الذي تمكن، بمساعدة شيوخ القبائل في شبه الجزيرة العربية من بني سعود من تأسيس دولة صغيرة ما فتئت تتوسّع عبر انتصارات وهزائم حتى فرضت نفسها سنة 1926[46].

(46) صابرينا ميرڤان، **حركة الإصلاح الشيعي**، ص138.

ومؤلفات السيد محسن وابنه التي تتناول الشيعة ومعتقدهم ممنوعة من دخول المملكة، ومن هذا الواقع لم يحاول السيد حسن أن يذهب إلى الحج، وكذلك لم يقم بهذا الواجب الديني من الأبناء إلا واحد هو محمد باقر.

السؤال الرابع: هل انصرف السيد حسن لغير التأليف؟ وهل تعاطى السياسة؟

قال السيد محسن الأمين لجعفر الخليلي، وقد زاره في حارة الخراب في دمشق أواخر العقد الرابع من القرن العشرين: «إنني رجل أؤمن بالعمل، وحين وصلت إلى دمشق (خريف 1901) لم يكن للعمل قيمة، فعملت ما بوسعي للتأليف بين **القلوب والكتابة والعمل على الوحدة**»[47]، «كما كان معروفاً في الوسطين الديني والأدبي في دمشق بعقله المنفتح على التقريب وبجهوده المبذولة في سبيله»[48].

في هذا الجو نشأ حسن الأمين، وتأثر بوالده العلاّمة المنفتح على الناس، ووعى مبايعة فيصل ملكاً على سورية، ثم استشهاد يوسف العظمة في 24 تموز 1920، وشهد أول احتفال على قبره بعد أربع سنوات، «وقد كان صغر سنّه وما يبدو عليه من مظاهر الانفعال والتأثر سبباً في أن الجميع كانوا يحيطونه بعطف وحنان، ويدفعونه إلى التقدم إلى جانب الضريح، حيث كان التزاحم للوصول إليه ملموساً»[49].

كانت كل هذه العوامل تساهم في تكوين السيد حسن السياسي، فبالإضافة إلى البيت والمحيط والمدرسة راحت الأحداث تفعل فعلها، انطلاقاً من المظاهرات، إلى الإضرابات، إلى الثورات التي امتدّت من

(47) صابرينا ميرڤان، **حركة الإصلاح الشيعي**، ص344.

(48) المرجع نفسه، ص346.

(49) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص53.

دمشق إلى الغوطة إلى جبل العرب إلى وادي التيم إلى المدن السورية وبعض اللبنانية منها وكان الشاب الناشىء يزداد وعياً، ويترسّخ إيمانه بالقضايا الوطنية والنضال ضد الانتداب.

عندما تخرّج السيد حسن في كلية الحقوق في دمشق سنة 1934 أقيم ـ تكريماً له ـ حفل كبير في بلدته (شقرا) ضمّ كثيراً من وجهاء جبل عامل ورجال الدين والشباب الذين يشاركونه أفكاره وتطلّعاته، وقد أزعج الاحتفال وما ألقي فيه من كلمات السلطة المنتدبة، ورفع رجال الدرك تقريراً للمستشار (بشكوف) في صيدا فرفعه بدوره إلى المندوب السامي، وقد أشير فيه إلى أستاذ السيد حسن (أديب التقي) الذي حصر كلمته بتهنئته تلميذه وامتداح ذكائه ومقدرته، بينما أهاب عبد اللطيف شرارة في كلمته بالشباب الشيعي أن يحذو حذو السيد حسن بالتعلُّم، وطالب بفتح المدارس، ووجّه انتقاداتٍ عنيفة لرجال الدين وزعماء جبل عامل الذي يرسف في التخلُّف والجهالة «كما نُظّم تقرير ثانٍ بـ(حسن الأمين المجاز حديثاً بالحقوق) والذي أرسل في 15 أيلول 1934 برقية لجرائد **النهار والأحرار والبلاغ** و**لسان الحال** عن تعلُّق جبل عامل بالوحدة السورية موقَّعة من واحد وعشرين شاباً من النبطية معظمهم من صغار التجار والإسكافيين»[50].

وكان أول عمل سياسي لافت قام به السيد حسن الأمين إقناع الزعيم عبد اللطيف الأسعد أن يكون مرشّح المعارضة بوجه السلطة الفرنسية للمقعد النيابي في الجنوب الذي شغر بوفاة النائب فضل الفضل سنة 1935 «فذهب برفقته إلى منزل رياض الصلح حيث لقي هناك من

(50) صورة مرفقة عن التقريرين مأخوذة من أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية في نانت
Centre des Archives Diplomatiques de Nantes (CDAN) fonds Beyrouth 1875.

التكريم والترحيب ما أرضى كبرياءه وأثار سروره»[51].

بعد هذه الفترة ذهب حسن الأمين إلى العراق (على مرحلتين)، وكانت أحداث سنة 1948 في فلسطين وما نتج منها من تداعيات ومآسٍ في البلاد العربية، وأطلّ علينا السيد حسن سنة 1960 مرشحاً للانتخابات عن منطقة بنت جبيل حليفاً لعبد اللطيف بيضون بوجه آل الأسعد ولم يحالفهما الحظ، وانسحب من العمل السياسي **أكثر نقمة على السياسيين وأشد إيماناً بالقضية العربية** رغم المحن والهزائم، وقد لازمه هذا الإيمان حتى أيامه الأخيرة، وقد كتب إبراهيم بيضون:

«كان حسن الأمين ـ وهو يقارع قرناً ـ هو نفسه عقيدةً وخطاباً، تغيّر الآخرون ولم يتغيّر، تراجعت المواكب وظلّ في موقعه صامداً مجاهداً، تبدّلت سفارات واستُبيحت قيمٌ وهو قابض على جراحه، يأبى الانحناء أمام العواصف؛ ولكم ردّد في مقامه هذا البيت لعادل أرسلان:

فما غيّروا القلب الذي كان مخلصا ولا أوهنوا العزم الذي كان ماضيا»[52]

(51) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص135.

(52) حسن الأمين، **دائرة المعارف الإسلامية الشيعية**، الجزء 26، ص74.

خاتمة

عاد السيد حسن الأمين إلى لبنان، وهو في الأربعين من عمره، وقد حمل معه العراق بين الجوانح، فها هو يشتاق إليه قبل أن يبارحه وهو ما زال فيه!! لقد قضى بين ربوعه ثماني سنوات كانت أزهى وأمتع وأعذب ما عاش، قضاها في التعليم بين الطلاب والطالبات، أخاً ومعلماً ورفيقاً، وبين الخمائل والنخيل والرياض الغنّاء، وعلى ضفاف الأنهار، وفي بيوت المحبّين ومنازل الأصدقاء والزملاء، وفي رحلات وزيارات للأرياف والمعالم التاريخية، هذا العراق ملأ عليه أيامه، فعشقه وتعلّق به وغدا موزَّع الفؤاد بين أمسه ويومه وغده، بين مرابع الطفولة في (شقرا) ومدارج الصبا في (دمشق) ومراتع الشباب في (بغداد) وكلّها عزيزة عليه، قريبة إلى قلبه:

ظلٌّ على **شطِّ الفرات ظليل**	ومرابعٌ فتّانةٌ وحقولُ
ليست تملّ العين رائع حسنها	إذْ كلُّ حسنٍ غيرُها مملولُ
... يا نازلين **على الشآم** وإنكمْ	بين الجوانح في الفؤاد نُزولُ
ما لذَّ وِردٌ للمشوق وما ارتوى	من بعدكمْ للمستهام غليلُ
يهتاجه الزهرُ النضيرُ إليكمُ	ويهزّهُ في الرافدَيْن نخيلُ
إني ليضنيني **الخزامُ على النوى**	**ويشوقني الزيتون والملّولُ**[53]

إنها حقول بغداد الظليلة مع أمواه بردى في دمشق، والخزام والزيتون والملّول في شقرا، تطلّ جميعها ساحرةً من عالم الذكريات وخيالات الشاعر المشتاق، فيحسّها أوطاناً ثلاثةً تجمّعت وطناً موحّداً في قلب واحد.

---

(53) حسن الأمين، حل وترحال، ص143.

الفصل الثاني

حسن الأمين الرحّالة

مقدمة

أ ـ لمحة تاريخية عن أدب الرحلات

ب ـ مهنة المتاعب

جـ ـ أدب الرحلات

د ـ رحلات السيد حسن الأمين

I ـ رحلات السيد حسن الأمين داخل العراق

1 ـ الخليج

2 ـ الشمال

3 ـ الأنبار

4 ـ ديالى

5 ـ تكريت

II ـ رحلات خارج العراق

1 ـ إلى فرنسا صيف 1949

2 ـ إلى أميركا أواخر 1949

3 ـ رحلات إيران (ست رحلات) بين 1958 ـ 1996

4 ـ إلى باكستان 1964

5 ـ إلى أفريقيا الشرقية أواخر سنة 1964 وأوائل سنة 1965

6 ـ رحلة إلى المهدية (تونس)

خاتمة

مقدمة

إذا كان الاستقرار سمةً لافتةً من سمات الحضارة والتقدم، وسبباً حتمياً من أسباب العمران والاجتماع، فإن ذلك لا يعني أن يبقى الإنسان قابعاً في محيطه، فهو منذ وُجد على هذه البسيطة يحاول أن يكتشف أسرارها، ويسيطر عليها، لا فرقَ عنده بين ارتياد الغابة المجاورة أو الأمكنة البعيدة سعياً وراء المال، أو رغبةً في اكتناه المعرفة، أو تحقيقاً لشهوةٍ في مغالبة المصاعب، لذلك راحت الأرض تضيقُ أمام طموحاته بعد أن ذلّل جبالها وأوديتها، وعمّر خرابها، وقطع بحارها، حتى توصّل - بما توفّر له من إمكانات السفر المتطوّرة - إلى أن يختصر المسافات، وينتصر على الصعوبات، ويتوسّع برحلاته مع مرور الأيام، وعاد لا يقصرها على سطح الكرة الأرضية، فراح يتشوّف رحلاتٍ أَعْجَزَتْهُ قدرتُه على تحقيقها بالفعل، فلجأ إلى خياله وفكره يجوس بها خلال عوالم ودنىً أخرى، وجاء إنسانُ القرن العشرين ليبدأ بالعقل تحقيقَ ما عجز عنه أسلافُه بغير الخيال، «وغدت حياة الإنسان رحلةً دائمةً لا تتوقفُ إلاّ على تخوم الأبدية؛ ويوم يعجز عن افتضاض أسرار الحياة

والأكوان حوله بالرحلة أو بالخيال فلسوف تكون قدماه تقتربان من تلك التخوم، ولربما تكون رحلة من نوع جديد»[1].

الرحلة بهذا المفهوم أمر طبيعي، يقوم بها الأفراد أو الجماعات بدوافع مختلفة دينيّة أو علميّة أو ثقافية أو طلباً للراحة، أو سعياً وراء الغنى، أو بالفضول، أو يقومون بها بخيال الشاعر **رسالة الغفران** لأبي العلاء المعري، **الفردوس المفقود** لدانتي، **على بساط الريح** لفوزي المعلوف أو بخيال الكاتب أو الفيلسوف **قصص السندباد**، **روبنسن كروز**، **حي بن يقظان** أو عبر القصص الخيالية العلمية والجغرافية كما هي حال القاصّ الفرنسي جول فرن Jules Verne **رحلة في باطن الأرض**، **رحلة من الأرض إلى القمر**، **عشرون ألف فرسخ تحت سطح البحر**، **حول العالم في ثمانين يوماً**.

وهكذا، فأدب الرحلات قد يرد في إطار **التاريخ والجغرافيا** وصفاً للمجتمعات الإنسانية وأحوالها وناسها بعاداتهم وتقاليدهم وأنماط حياتهم وأخلاقهم ودياناتهم وعواطفهم ومدى تقدمهم، وقد يرد في **إطار العلم** وصفاً لعوالم البحار وما تحتويه من أسرار وعجائب أو تصويراً لعوالم الفضاء والأفلاك وما يسبح فيها وما تحتويه، وربما يتناول واقع الإنسان وعلاقاته في عالمه الجديد (أنطوان دي سانت أكزوبري)، وقد يرد **قصصاً خرافية مسلية تملأ الفراغ وتقتل السأم (ألف ليلة وليلة، سيرة عنترة، إلخ)**.

في هذا الفصل، سأعرض بإيجاز لأدب الرحلات، وألقي نظرة

(1) حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976 (المكتبة الثقافية 335) ص4.

تاريخيّة على بعض من كتبوا فيه ومارسوا مهنة المتاعب وتحمّلوا متاعب السفر، وتعرضوا لمخاطره، فكتبوا عما شاهدوه، ووصفوا ما عانوه، وأثروا تاريخ الأدب وأغنوه، لأنتقل بعد ذلك إلى رحلات السيد حسن الأمين داخل العراق وخارجه وأستعرض ما ترك من أدبيّات هذه الرحلات.

أ ـ لمحة تاريخية عن أدب الرحلات

كان لعرب الجاهلية رحلاتهم داخل الجزيرة العربية وخارجها نظراً إلى طبيعة الحياة التي حكمت بلادهم، وأجبرتهم على البحث عن الماء والكلأ، أو دفعتهم وراء تجارة تجاوزت محيط الجزيرة إلى الشام والعراق وسواهما. وكانت الفتوحات العربية رحلة في ذاتها، قدمت للعرب تجارب ومعارف جديدة، وخلقت ظروفاً أجبرتهم على التكيف معها، والانتقال إلى بيئات بعيدة، فقد وحّد العرب البلدان التي فتحوها دينياً وثقافياً، وتطلّبت إدارتها معارف وأنظمة لضبط شؤونها المالية والإدارية، وكان من الطبيعي أن تزدهر سوق وصف هذه الأقاليم والتعريف بها، وكذلك التعريف بوصف طرق الحج ومحطات القوافل ومنازل الحجاج. هذه الفتوحات **شكّلت حركة تفجير سكاني**، دفع أهل الجزيرة إلى مبارحتها، والانطلاق إلى الآفاق الجديدة التي خضعت للفتوحات، فترك الكثيرون جزيرتهم وسافروا بعيداً للجهاد أو ممارسة السلطة أو سعياً وراء تجارة، أو رغبة في الكسب، أو ارتياد بلاد لا يعرفونها، غنية بخيراتها، وسحر طبيعتها، واعتدال مناخها، وجمال نسائها، ورغد حياتها، مما ساعدهم على الاستقرار فيها، وساهم في سرعة التبدل الديموغرافي ونشأة إمارات. عَظَمةُ الدولة أنها هيأت آفاق التواصل مع الآخرين، وشجعت

الكتابة عن بلادهم وأخبارهم وطريقة حياتهم، وظهرت كتب **كالمسالك والممالك** (ابن خرداذبه) **والخراج** (230هـ) لقدامة بن جعفر.

وكانت مكة نقطة مركزية يضعها الرحّالة نصب أعينهم، يحجُون إليها أو يعتمرون، ويزورون المدينة المنوّرة وبيت المقدس والأماكن التي ترتبط بدينهم، ويجوبون ـ بعد أداء مناسكهم ـ باقي الأقطار الإسلامية وما تجاوزها، تبعاً للرغبة أو المقدرة أو الإمكانات. كان بينهم المشارقة الذين يتوجّهون إلى بلاد المغرب، كما كان بينهم المغاربة والأندلسيون الذين يتوجهون إلى بلاد المشرق، وكانت رحلاتهم قصيرة تستغرق سنة أو أكثر، أو طويلة تمتد لسنوات، وربما تتكرر عدداً من المرات (ابن بطوطة مثلاً قام بثلاث رحلات استغرقت ثمانيةً وعشرين عاماً) وفي هذه الحال، كان يتداخل الدافع الديني والرغبة في الترحال وحبّ السفر بحثاً عن الجديد والاكتشاف والتعرّف إلى مختلف البلدان وغرائب المخلوقات. وكان المسافر خوفاً من النسيان، وتخليداً للحدث، يحاذر أن تهتزّ صورةُ مشاهداته، أو تضيعَ معالمها، أو يسهوَ عن تفاصيلها، فيعمد إلى كتابتها ووصفها وذكر دقائقها، ويصوّر في الوقت نفسه مشاعرَهُ وأحاسيسه وانطباعاته. كان يكتبها حباً في حفظ هذه الذكريات، أو بناءً لطلب أصحاب النفوذ، أو تعميماً للفائدة، أو تكريساً للمعرفة، أو إرضاءً لنفسه التي سعدت وعانت متاعب الأسفار، وقد أتاحت الفتوحات العربية والواسعة للمسلمين وسائل السفر في امبراطوريتهم وسهّلت تواصلهم وساهمت في إغناء أدب الرحلات بعد أن كان مقصوراً على فئة من الرحّالة تفرّغت له ونقلته إلى الأجيال اللاحقة.

من البديهي أن نفترض أن كثيرين لم يؤرخوا لرحلاتهم، ولم يكتبوا عنها، وبالتالي لم نعرف عنهم شيئاً، شأنهم شأن الشعراء والأدباء الذين

ضاعت آثارهم وفُقِدَ إنتاجهم. والجدير بالذكر «أن الإسلام شجّع هذا النوع من الكتابة الجغرافية من ناحيتيْن، أما الأولى فجاءت عن طريق الحجّ، فالحج فريضة على المسلم ما استطاع إليه سبيلاً، ومن حق الحاجّ على سلفه أن يبيّن له خير الطرق للوصول إلى مكة والمدينة، ويشرح له الصعوبات ووسائلَ التغلُّب عليها، وكان أثر هذا الأمر كبيراً في إثارة الكتّاب إلى تدوين ما لاحظوا ورأوا كـ(ابن جبير وابن بطوطة)، وأما الناحية الثانية التي شجّع الإسلام فيها الكتابة الجغرافية فهي طلب العلم، فقد كان المسلمون يتنقّلون في سبيل انتجاع المعرفة من قطر إلى قطر، علماً أن علماءهم كانوا يحرصون على تدوين مشاهداتهم ليطّلعَ عليها الخلفُ ويستفيدَ منها»[2]، «ويُضاف إلى هذين العاملين عاملا التجارة والسفر وقيام نظام البريد وجباية الخراج ممّا يستلزم زيادة أهمية المعلومات عن أطراف العالم الإسلامي ومعرفة الحدود والمسالك ومواقع المدن والتشجيع على الرحلة والسفر»[3].

وكان القرن العاشر الميلادي فترة النضج التام، زخر بمصنفات مهمة استتبعت لاحقاً كتابات كثيرة في أدب الرحلات، ولعلّ من الفائدة بمكان أن نعرض بإيجاز لبعض هؤلاء الرحّالة لبيان أوجه الالتقاء والاختلاف فيما بينهم في تناول هذا الفن الأدبي وكيفية معالجته وعرض خصائص أسلوب كتابته، مع الإشارة إلى أنه أصبح في العصر الحاضر - عبر الإعلام والصحافة - أدباً هادفاً، لا في البحث عن المعرفة فحسب

(2) نقولا زيادة، **رواد الشرق في العصور الوسطى**، هدية المقتطف، بيت المقدس، الطبعة الأولى، 1943، ص3.

(3) أحمد أبو سعد، **أدب الرحلات وتطورها في الأدب العربي**، بيروت، دار الشرق، الطبعة الأولى، 1961، ص18.

وإنما أضحى بواسطة الدعاية، منبراً للتوجيه ووسيلة تعتمدها السلطة، لإغراء السيّاح بزيارة البلد والتمتع بما فيه من معالم أثرية فريدة، وطبيعة ساحرة ووسائل راحة متوفّرة.

في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كتب المسعودي وهو أديب مؤرّخ، جغرافي، رحّالة، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** وقد وصف جورج غريّب هذا المؤلف الجامع بـ«أنّه سفر في الاجتماع والأدب لرجل وزّع أيامه بين تقاذف الأسفار، وقطع الأقطار، واستخراج كلّ دقيقٍ من معدنه، وإثارة كلّ نفس في مكمنه»[4].

في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ألّف ابن جبير كتابه **رحلة ابن جبير**، وفي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) كانت رحلات ياقوت الحموي (1179 ـ 1129) وأبي محمد العبدري (ت1288م) وعبد اللطيف البغدادي (1162 ـ 1231)، وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ألّف ابن بطوطة (ت1377م) كتابه **تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** وقد وصل بأسفاره إلى الصين والهند والقوقاز إلخ، كما ظهر كتاب (العبر) لابن خلدون (ت1406م)، وفي القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، كانت رحلة الظاهري ورحلة الملك قايتباي (ت1496م).

وفي العصور المتأخرة نذكر في الطليعة رفاعة الطهطاوي (1801 ـ 1873م) العالِم المصري والكاتب والشاعر والأديب والمترجم والصحافي، وأحد أركان النهضة الأدبية، أرسله محمد علي والي مصر في بعثة إلى

---

(4) جورج غريب، **أدب الرحلة، تاريخه وأعلامه**، منشورات دار الثقافة، سلسلة الموسوع في الأدب العربي، رقم 7، ص31.

فرنسا حيث لبث خمسة أعوام؛ وألّف كتابه **تخليص الإبريز في تلخيص باريز** فكتب عن المصريين وعاداتهم وتقاليدهم ومأكلهم وملبسهم كما وصف باريس وقناطرها على السين وجسورها وشوارعها وقارن بينها وبين القاهرة وتحسّر على عاصمته.

كما نذكر أحمد فارس الشدياق (القرن التاسع عشر الميلادي) في كتابيه: **الواسطة في أحوال مالطة، وكشف المخبّا عن تاريخ أوروبا**، وكذلك نذكر جرجي زيدان (1861 ـ 1914) مؤسس دار الهلال، في رحلتيْه إلى الآستانة سنة 1909 وإلى أوروبا سنة 1912؛ ونذكر أمين الريحاني (1876 ـ 1940) في كتابه **ملوك العرب** الذي أنجزه سنة 1924 وهو جزءان، والسيد محسن الأمين (1867 ـ 1952) في كتابه **رحلات السيد محسن الأمين**، والصحافي المصري الرحّالة أنيس منصور في كتابه **رحلة حول العالم في 200 يوم**، وأخيراً الكاتب المصري حلمي مراد رئيس تحرير **كتابي**.

هؤلاء الرحّالة رغم اختلاف أزمانهم كتبوا في أدب الرحلة، وتركوا مؤلفاتٍ وصفوا فيها أسفارَهم ومشاهداتِهم وحلَّهم وترحالَهم، والبلاد التي جابوها وطبيعتها ومناخها وأنهارها وجبالها ومدنها وعمرانها وخرابها وناسها، فجاءت كتاباتهم سجلاً صادقاً للأمكنة التي أقاموا فيها، وصورةً حقيقيّةً للمجتمعات التي عاصروها، واختلفت أساليبهم تبعاً لشخصيّاتهم، ونظراتهم، وطريقة تعبيرهم، وشكل أدائهم، ودقّة ملاحظاتهم ومدى الموضوعيّة في معالجاتهم.

كان واحدهم يوزّع أيامه بين تقاذف الأسفار وقطع الأفكار باحثاً عن كل دقيق أو جديد، مصوِّراً بعين الناقد ما يلفت نظره.

فابن جبير على سبيل المثال كان يُعنى بوصف المرافق والمشاهد والأرباض، فوصف «الكوفة (حرسها الله) بأنها مدينة كبيرة عتيقة استولى عليها الخراب»[5]، ووصف «تكريت (حرسها الله) بأنها مدينة كبيرة غاصّة بالخلق، ودجلة منها في جوفيْها»[6]، ووصف «الموصل (حرسها الله) بأنها مدينة عتيقة حصينة يتّصل بها خراب عظيم يُقال إنه كان مدينة» نينوى[7]. أما «مدينة صور (دمّرها الله) فيضرب فيها المثل في الحصانة، وقد أعدّها الإفرنج مفزعاً لحادثة زمانهم»[8].

وابن بطوطة حين مرّ بلبنان كتب عن صور وصيدا وبيروت وطرابلس وبعلبك، «وكانت صور يومئذ مدينةً خربةً هدمها المماليك إثر تحريرها من الصليبيين، سافرت إليها وهي خراب وبخارجها قرية معمورة وأكثر أهلها أرفاض» (ويعني بهم الشيعة)[9]، «ثم سافرت إلى مدينة صيدا وهي على ساحل البحر حسنةٌ، كثيرةُ الفواكه، يُحمل فيها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر»[10]، ثم سرنا إلى «مدينة بيروت وهي صغيرة حسنة الأسواق وجامعها بديعُ الحسن، وتُجلب منها إلى ديار مصر الفواكه والحديد»[11]، ثم وصلت إلى «مدينة طرابلس إحدى قواعد الشام وبلدانها

(5) **رحلة ابن جبير**، تقديم حسين نصّار، منشورات جريدة السفير، بيروت (طبعة خاصة 2004، ص 200.

(6) المرجع نفسه، ص200.

(7) المرجع نفسه، ص201.

(8) المرجع نفسه، ص206.

(9) يعني بهم الشيعة، **رحلات ابن بطوطة**، طبعة باريس، المطبعة الوطنية، سنة 1874، مكتبة الجامعة الأميركية، الجزء الأول، ص130.

(10) المرجع نفسه، ص131.

(11) رحلات ابن بطوطة، الجزء الأول، ص133.

الضخام، تخترقها الأنهار وتحفّها البساتين والأشجار، ولها الأسواق العتيقة والمسارح الخصبة والبحر على ميلين منها وهي حديثة البناء، وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر تملّكها الروم زمناً فلما استرجعها الملك الظاهر خربت»[12]، «. . .ثم وصلنا من جبل لبنان إلى مدينة بعلبك وهي حسنة، قديمة، من أطيب مدن الشام، تحدق بها البساتين الشريفة والجنّات المنيفة، وبها يصنع الدبس المنسوب إليها»[13].

أمّا **رفاعة الطهطاوي** (1801 ـ 1873) في كتابه (تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز) فصوّر رحلته إلى فرنسا حين أرسله محمد علي باشا وتناول معظم المواضيع بدءاً من سفره من الإسكندرية إلى مرسيليا إلى باريس ومعالمها وناسها وعباداتهم وأغذيتهم (سياسة صحّة الأبدان) واعتنائهم بالعلوم الطبيّة وتقدمهم في الفنون والصنائع وأوضاعهم السياسية، وقارن بين مشاهداته في أحوال باريس وأحوال القاهرة، وبدا واضحاً حُبُه لوطنه مصر وتمنياته بنهضته وازدهاره.

أمّا الصحافي المصري المعاصر **أنيس منصور** فقد عالج في مطلع شبابه أدب الرحلات، وكتب عن الأسفار، وأهوالها ومصاعبها ومغرياتها، وأحب أن يشاركه القراء هذه المتعة المشوّقة المترعة بالراحة والسلوّ وحب الاستطلاع، فهو في أدبه هذا كما يقول طه حسن. «يمضي في الكتابة مع اليسر والإسماح، مرسلاً نفسه على سجيتها، مطلقاً لقلمه الحرية في الجد والهزل، وفيما يشق وما يسهل، والإحساس الذي لا يفارقك أثناء القراءة، هو أنك مع الكاتب تشهد ما يشهد، وتسمع ما يسمع، وتجد ما يجد من ألم أو لذة أو سخط أو رضى تسافر معه،

(12) رحلات ابن بطوطة، الجزء الأول، ص137.

(13) المرجع نفسه، ص185.

وتقيم حيث يقيم، مع أنك لا تبرح مكانك، وإنما هي براعة الكاتب وإسماحه يستأثران بك، ويميلان إليك، وأنك تلزمه في حركته كأنك ظل لا تفارقه، وأشهد أنني وجدت هذا الشعور منذ أخذت في قراءة كتابه **حول العالم في 200 يوم**، إلى أن فرغت منه، فهو قد طوّف فأكثر التطواف، ووصف فأحسن الوصف، وهو لم يزر العالم كله، وإنما زار الأجزاء البعيدة منه، في الشرق الأقصى وفي أميركا، وما زالت أمامه أجزاء كثيرة لم يزرها، وما دام قد بدأ فأحسن البدء فيجب عليه أن يُتم ما بدأه فيزيد في إمتاع قرّائه، ثم هو لا يمتع قرّاء هذا الجيل وحدهم، وإنما يمتع أجيالاً أخرى كثيرة، كما استمتعت أجيال كثيرة برحلات العرب وبكثير من رحلات الأوروبيين»[14].

يقول أنيس منصور: «ورغم مرضي وعذابي ومخاوفي، وطول الطريق وانتقالي من الحر إلى المطر، إلى الجليد، إلى العواصف، فقد كان يعزّيني هذا كله أنني رأيت الدنيا، وأنني درت حول العالم، ويعزّيني أن الملايين تمنُّوا أن يفقدوا نصف عمرهم، أو ثلاثة أرباع عمرهم وأن يسافروا مثلي، والمسافر كما يقول المثل الإنكليزي: «يجب أن تكون له **عينا** صقر ليرى كل شيء، وأن تكون له **أذنا حمار** ليسمع كل شيء، وأن يكون له **فم خنزير** ليأكل أيّ شيء، وأن يكون له **ظهر جمل** ليتحمل أي شيء، وأن تكون له **ساقا معزة** لا تتعبان من المشي، وأن يكون له ـ وهذا هو الأهم ـ **حقيبتان إحداهما امتلأت بالمال والثانية امتلأت بالصبر**.

ولم أنسَ طول الرحلة هؤلاء الجبابرة من المغامرين من أمثال ماركو بولو وابن بطوطة، ولم أنسَ الذين داروا حول العالم في سفن شراعية مثل

(14) أنيس منصور، **حول العالم في 200 يوم**، منشورات دار المعارف، القاهرة، 1966، الطبعة الخامسة، ص29.

ماجلان وفاسكو دي غاما وكولومبوس وأميريكو فسبوتشي. هؤلاء الذين ركبوا سفناً بدائية في محيطات مجهولة وفي ظروف بدائية، بلا طعام، ولا دواء، ولا خرائط؛ لقد كنت أذكرهم في كل قارة اكتشفوها وأنحني إجلالاً لهم»[15].

وأصدر أنيس منصور (170) كتاباً متميزاً. هذه الكتب تراجم، وسيرة ذاتية، وأدب، ونقد، وسياسة، ومسرحيات، وأدب رحلات، عبر بها، ومن خلالها، عن عمق تجربة الإنسان وثرائها في شتى العصور، ومن أجمل كتب الرحلات التي أصدرتها المطابع العربية، وتجاوزت طباعتها عشرين طبعة، كتابه **حول العالم في 200 يوم** الذي شجّع آلافاً من الشباب العرب على اقتحام المجهول، والتفاعل من دون خوف مع تجربة السفر. فالذين سافروا أو هاجروا، مثل الذين صعدوا إلى السماء والذين هبطوا من السماء، الكل مهتم ومهموم.

وينتهي أنيس منصور بعد 200 يوم حول العالم:

«إنني لم أعرف الكثير جداً من الدنيا، ولم أعرف إلا القليل جداً من نفسي، فعيناي مفتوحتان على الدنيا، ولكنني بلا عينين عندما أنظر إلى داخلي، إلى الزحام في داخلي، إلى الوحشة المظلمة في أعماقي.

إن كل الذي استطعت أن أعرفه من دوراني حول العالم هو أنني أستطيع الكثير، وأن كل إنسان يستطيع أن يفعل الكثير، أن يأكل رغيفاً في اليوم وأن يعمل عشرين ساعة دون أن يتعب.

ففي كل إنسان قوة هائلة، لا يستطيع أن يستغلها.

وفي كل إنسان كنز من الحيوية والقدرة على الفهم والقدرة على الاحتمال والصبر.

---

(15) أنيس منصور، **حول العالم في 200 يوم**، ص17.

وإننا لا ننفق من هذا الكنز إلا القليل.

وإن الإنسان يأكل ويشرب وينام أكثر مما يجب.

وأنه يعمل أقل مما يجب.

وأنه يخاف أكثر مما ينبغي»[16].

وقبل أن أختم هذه اللمحة التاريخية عن أدب الرحلات أشير إلى دور الأديب **حلمي مراد** صاحب (كتابي) ورئيس تحريره بدءاً من مطلع خمسينيّات القرن الماضي، والذي أصدر كتاباً شهرياً كان يلخّص فيه بعض الكتب العالمية التي عرضت لأهم عطاءات الفكر الإنساني وإبداعاته في مختلف فروع الثقافة والعلوم والفنون، وكان شعار الكتاب رسماً يمثّل مصباح الفكر عن الإغريق، وكان كل عدد يبدأ محتوياته بنافذة تطلّ على العالم عنوانها (رأيت وسمعت ذلك في (بلد معيّن) من إحدى القارات) مرفقة ببديع الصور وروائع اللوحات لأشهر الفنّانين مشفوعةً بالتفاصيل الدقيقة التاريخية والأدبية والسياسية التي تنقلك معها إلى أجواء الرحلة فتنسى وتذهل أنك قارىء وتواكب الكاتب وترافقه وتتصوّر أنك أنت الرحّالة السائح!!

كان حجم الكتاب صغيراً ـ ككتاب الجيب ـ غنياً بمواضيعه وصوره وأبحاثه وتعليقاته، يلخّص بعد كل رحلة قصةً من المؤلفات العالمية، وينقل قصةً من قصص التاريخ ومآسيه، كما يعرض ما اختار للقارىء من (حوافز الحياة) في التربية وعلم النفس والجنس والمجتمع أو من روائع القصص العالمي أو من ثقافة الأديان أو من مذكّرات العظماء في السياسة والعلم.

(16) أنيس منصور، حول العالم في 200 يوم، ص19.

مع حلمي مراد في (كتابي) بدءاً من منتصف العقد السادس من القرن المنصرم لم تكن وسائل الإعلام كما هي اليوم، فلا (راديو ترانزستور) ولا شبكات اتصال ولا أقمار اصطناعية حتى ولا كهرباء تعمّ المناطق البعيدة، ولا جرائد تصل (طازجةً) من دون تأخير، كان الكتاب مصدر الثقافة الأهمّ، وكان حلمي مراد في (كتابي) يطلع علينا أول كل شهر بأسفاره ورحلاته.

كانت الصور الملوّنة تضفي على الحديث بهجةً، والتفاصيل تشدّنا، وتشعرنا بمزيد من المتعة، وكانت التعليقات والشروحات تأخذنا إلى دائرة الضوء في وسط المكان، حتى لكأننا نعيش التاريخ في الجغرافيا، فنسافر بخيالاتنا السكرى بشوقٍ إلى البندقية و(قنالاتها) و(جنادلها) وخَدَرِ المحبين ومواكب العشاق على جسورها وفي ساحاتها ومبانيها وكنائسها:

«هبطنا من القطار لنجد مدينة الجندول أشبه بخليّة النحل تضجّ بالحياة والحركة، أفواج من جميع الأجناس تروح وتغدو متسكّعةً في شوارعها المستلقية على صدر الماء في دلال، وإذا كانت ضاحية (اللّيدو) تقف في مقدمة أجمل ضواحي العالم فإن موكب الحُسن والأناقة والثراء الذي يمرّ بك وأنت جالس في مقهاك، لأروع موكبٍ يمكن أن يجتمع في مدينة واحدة. حتى لقد أحسست وأنا أشهدُهُ يتلاحق أمامي ـ دون وعي ولا تمهُّل ولا إبطاء ـ بأنني قد أُصِبْتُ بـ«تخمةٍ» من الفتنة والجمال يتعذّر وصفها؛ فقد كان يخطر على الرصيف عدد لا يدركه الحصر من أجملِ وأفتن (وأشيكِ) نساء العالم بلا مراء، وهو عدد لم أصادفه بهذه الكثرة وهذا «التركيز» في أيةِ مدينةٍ أخرى أو عاصمةٍ من عواصم أوروبا ولا في باريس»[17].

---

(17) حلمي مراد، مطبوعات كتابي، السنة الرابعة، العدد 1 رقم 36 (آذار)، 1995، ص34.

إنّ جمال الأمكنة، وأناقة الفن، وسحر الطبيعة، وروعة الوصف، ودقّة الملاحظة، وطلاوة الأسلوب، ونداوة العرض، عندما تجتمع كلُّها في سياق الحديث عن الأسفار تبدع نثراً مشوّقاً وتخلق فنًّا ملوّناً وترسم دائرةً واسعةً لأدب الرحلات.

ب ـ مهنة المتاعب

بمناسبة صدور كتاب **مهنة المتاعب** لمؤلفه أديب مروة كتب السيد حسن الأمين:

«عندما اختار أديب مروّة «مهنة المتاعب» إنما كان في هذا الاختيار أصيلاً كل الأصالة، فمهنة المتاعب تجري في دمه، وتتدفق في عروقه، موروثة من آباء صدق، درجوا على هذا السبيل منذ قرون وقرون. وإذا كانت مهنة المتاعب هذه تختلف اليوم عما كانت عليه عبر تلك العهود البعيدة، فإنما كان هذا الاختلاف قائماً بطريقة معاناتها وأسلوب معالجتها. وإذا كانت تتمثل اليوم بالصحافة، وما فيها من أقلام مشحوذة وأفهام مرهفة، فقد كانت من قبل تتمثل كذلك بوسائل نشر هاتيك الأيام بما فيها من أقلام وأفهام.

«فأي فرق اليوم بين أديب مروة وجده الأعلى السيد حسين عبد الصمد الذي لم تُرْضِهِ الراحةُ في جباع ولا في بعلبك، بل تطلّع إلى البعيد حاملاً محابره وقراطيسه حتى حطّ بعد حين في مدينة هرات[18] منذ ما يزيد على أربعمائة سنة، وهناك كانت له الراحة الكبرى إذ اختير لمنصب شيخ الإسلام مع كل ما في هذا المنصب من مال ونعيم ونفوذ. ولكن التفتيش

(18) مدينة في أفغانستان كانت تتبع إيران يومذاك.

عن المتاعب كان مهنته، فتخلى عن كل ذلك ومضى إلى البحرين متعباً، وأقام متعباً ولكن ملتذاً بتعبه مستريحاً في مشاقه. حتى وصفه أحد المؤلفين قائلاً: (ولم تشغله هذه الحالات عن أن يصنف ويؤلف المؤلفات النافعة أو يستنسخ كتب الحديث بيده ويقابلها بنفسه).

«فإذا ما قفز حفيده أديب بعد مئات من السنين من بيروت إلى مدينة (قم) في أولى قفزاته فكتب في رحلته الطويلة ما كتب، ثم إذا تتابعت قفزاته بعد ذلك من بيروت إلى باريس إلى جنيڤ إلى غيرهما حاملاً في كل ذلك قلمه وأوراقه، وإذا ما عاد من بعد إلى بيروت فلم يُرْضِهِ أن يستريح إلى كنف الوظيفة، بل فضّل الركض وراء المتاعب، فإنه في ذلك يبرز الأصالة في تاريخه الطويل البعيد الذي كان كله ركضاً وراء المتاعب - ولهاثاً في سبيلها - المتاعب التي تريح الآخرين. حسبها بهذا الوصف رفعة وسمواً.

«وهو لم يفعل سوى أنه أكمل رسالة شقيق جده العالِم والمؤلف الشهير الشيخ بهاء الدين العاملين الملقب بـ«الشيخ البهائي» صاحب كتاب «الكشكول» و«المخلاة» والتآليف الأدبيّة الكبرى التي تقف في صف واحد مع «العقد الفريد» لابن عبد ربه و«مروج الذهب» للمسعودي و«الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني»[19].

يريد السيد حسن الأمين من الربط بين أديب مروة وجدّه وعمّه أن يقول: إن في تاريخ الأسرة تراثاً موروثاً تتناقله من جيل إلى جيل يتجلى في نقل المعرفة وإيصالها إلى الناس عبر التفرغ لهذه المهمة الرسالة، وتحمُّل عذاباتها ومتاعب الأسفار والتعرض للمخاطر، سواء كانت في

(19) مجلة العرفان، عدد كانون الأول، 1970، ص669.

السعي إلى الأكمل أو في البحث عن الأفضل، مختصرةً في كتاب أو مبوبةً في رحلة لتكون دليلاً في مستقبل الأيام للباحثين عن الحقيقة أو مرشداً للساعين إلى المعرفة.

وعن أدب الرحلة، وفي معرض تقديمه لـ(رحلة العبدري) التي حققها علي إبراهيم كردي كتبَ شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق:

«تشغل الرحلة مكاناً مميزاً في الثقافة العربية. فقد تضافرت دواعٍ وأسباب مختلفة حضّت الناس على الرحلة، ويسّرت أمرها، فكثرت الرحلات وتنوّعت بتنوّع حوافزها ومقاصدها العلميّة والدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة؛ وراج أدبُ الرحلات الذي استهوى قرّاءَهُ وأمتعهم بما كان يعرض من المشاهد والآثار المجهولة، والعجائب المشوّقةِ يصِفُها وصفَ معاينة، وبما كان يصوّر من عادات الناس وأخلاقهم ومشاعرهم تصويراً يبثُّ الحياة والحركة. وحفلت المكتبة العربية بمختلف أنواع الرحلات، فرحلة تصف الأقاليم والبلاد، وما حوت من الغرائب، ورحلة يهفو صاحبها إلى زيارة البيت العتيق، ورحلة مطلبها الأول لقاء العلماء ومذاكرتهم والأخذ عنهم، ورابعة للسفارة وربط أواصر الصداقة، وخامسة ترتاد المجهول من البقاع حباً للمعرفة، أو سعياً وراء التجارة والربح، أو تطلّعاً إلى نشر الدين، أو بسط السلطان. وتمور صفحات هذه الرحلات، على تعدد أغراضها، بالجليل من الفوائد التي ترسم جوانب هامة من حياة الشعوب وطباعها وعاداتها، وتقدم وثائق وشواهد حيّة لما كانت عليه الحضارة العربية في مختلف عصورها»[20].

(20) أبو عبد الله محمد العبدري، رحلة العبدري، تحقيق علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1999، ط1، ص أ.

من هذا المنظور كان أدب الرحلات نوعاً من المتعة يشترك فيها القارىء مع الكاتب، ويستفيد وهو يواكبه علماً ومقارنة ومعرفة وخلاصة معاناة وتجارب قُدّمت إليه دون أن يبذل جهداً أو يكلف نفسه عناءً وتعباً.

■ ■ ■

أحبّ حسن الأمين ـ عبر ما كتب في ترحاله ـ أن يفتح عيون الناس وعقولهم على الطبيعة وعجائبها وعلى الناس الذين يعمرونها، وطرق معيشتهم، واختلاف عاداتهم، وكيفية تواصلهم، ومستوى تطورهم، وما يعترض حياتهم، ورأى أن (مهنة المتاعب) ربما تستنزف العمر كلّه، وتحيل حياة الإنسان سَفَراً دائماً، لا يكاد يُسلّم حتى يودّع، ويبدأ من حيث ينتهي، ويعاود السلام والوداع والبداية والنهاية، شأن الرائد في الصحراء، أو الربّان في الباخرة، أو الطائرة، الذي كُتب عليه ألاّ يرتاح ويظلّ على سفر لمراودة الأمصار وارتياد المجاهل.

وحسن الأمين لم يقتصر في رحلاته على التنقل بين الأوطان والقارات، وإنما كان على سفر متواصل بين غبار الأوراق وتلال المؤلفات وكنوز المكتبات. لقد اسْتَهْوَتْهُ جغرافية البلدان وبدائع المخلوقات وعجائب الطبيعة، كما استهواه التاريخُ وأحداثُ الماضي والبحثُ عن الحقيقة.

وفي سفره، الطويل، قد تعجب من أنه كان يجد الراحة في التعب، واللذة في الإرهاق، والهناء في نقل الحقائب المتآكلة من تتابع الأسفار، حتى إذا آنس فترة هدوء، انكبّ على البحث والكتابة والتحقيق، فوصف وحدّث وروى وناقش وأبدع شعراً ونثراً، «والسيد حسن، الشاعر والمؤرخ والأديب والمفكر، كل واحد منها، عندما تختار للحديث إحداها دون الآخر، يدلي بحجّته القوية، يقول العلاّمة السيد

محمد حسن الأمين - فهي لا تتعدد في شخصيته إلا ظاهراً، أما في الجوهر فهي متّحدة كل واحد منها يشي بالآخر ويكتمل به»[21].

ترك السيد حسن جملة من المصنفات والمؤلفات، توزعت موضوعاتها على السيرة والتاريخ وأدب الرحلات والأبحاث التاريخية، كانت عصارة عمرٍ امتدّ حوالى قرن، وخلاصة حياة علمية حافلة «وعندي - يقول الشيخ جعفر المهاجر - إن أجمل وأفضل ما كتبه السيد حسن الأمين وأوفاه تعبيراً عن خصوصيته هو في أدب الرحلات الذي سار فيه على خطى والده الإمام، وهنا يظهر حسّه التاريخي وثقافته الواسعة بأبهى ما يكون دون أن يعني ذلك التهوين من شأن الأبواب الأخرى التي منحها عنايته من سيرة وتاريخ وأبحاث»[22].

وإذا كان السيد حسن قد تأثر بوالده وسار على خطاه في كتابة أدب الرحلات، وهو فنّ لا يجيده إلا دقيقو الملاحظة، واسعو الثقافة، الذين يحيطون بالمواضيع التي يعالجونها وينقلونها مستوفية البحث فإنه تأثر كذلك بالكثيرين ممن تعاطوا هذا الفن قديماً وحديثاً لا سيما بأديب الفريكة أمين الريحاني الذي أخذ عنه طريقة كتابة أهم النقاط وقت الرحلة ومن دون تأخير تمهيداً للتوسع بها لاحقاً.

فكان لكتاب **ملوك العرب** للريحاني أعظم الأثر في توجيهه النثري، تأثر به إلى أبعد حدود التأثر، إذ زاده حباً لأدب الرحلات، وعندما بدأ يجرّب كتابة هذا النوع من الأدب كان أسلوب الريحاني فيه يجذبه فيحاول احتذاءه منفعلاً بتعابيره وطريقته، إلى أن أولع بعد ذلك بالرحلات وكتابة

---

(21) جلال شريم، **حسن الأمين مواجهة مع التاريخ**، ص139.

(22) المرجع نفسه، ص139.

انطباعات عنها بأسلوب مستقل»[23].

■ ■ ■

كان الأقدمون الذين تعاطوا أدب الرحلات يقضون معظم عمرهم للقيام برحلة ـ إذا سنحت لهم الظروف ـ وبالوسائل المتاحة في البر على الخيل والجِمال والدواب أو سيراً على الأقدام، أو بواسطة السفن المتوافرة في ذلك الزمن إذا كان السفر عبر البحار، هذا من دون أن ننسى الأمراض والمتاعب والأخطار والأهوال والمصاعب التي كانوا يتعرّضون لها.

في أيام السيد حسن أصبح الأمر أسهل منالاً، وأكثر راحةً، وأوسع مدى، وأشد إغراءً، وربما أقلَّ كلفةً بسبب التنقل بالطائرات النفّاثة والسفن الكبيرة، ومع التقدم المذهل السريع بوسائل الانتقال أصبحت الأرض كلها أضيقَ من طموح المسافرين، وباتت أرجاؤها محطَّ رغباتهم، واشتدت الرغبة إلى مراودة الفضاء الواسع بعد أن نزل الإنسان على سطح القمر وأنشأ محطاتٍ فضائيةً تمهيداً لارتياد المجاهل الكونية.

هذا التقدم المتطور لوسائل النقل عبر البر والبحر والجو فتح الأبواب المغلقة التي كانت تستعصي على العلم، فبواسطة أجهزة التصوير الحديثة سبر الإنسان أعماق البحار واكتشف عوالمها، وبواسطة الصواريخ والطائرات جاوز أبعاد الفضاء، وحلم بالنزول على الكواكب، وبواسطة السيارات والآليات ذلّل المسافات وقرّب الأبعاد، وقهر ما كان مستحيلاً ـ بنظر الأجيال السابقة ـ وبات من السهل مع الأقمار الاصطناعية والإنترنيت والتلفزة أن ترى وأنت مستلقٍ على أريكة في بيتك الكثير مما يجري في

(23) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص54.

أعماق البحار وعلى السهول والجبال والأرض وفي أجواء الفضاء، وأصبح بإمكانك أن تسافر إلى أبعد نقطة يقطنها البشر من دون عناء وبكلفة معقولة.

ونشأت مكاتب متخصصة للرحلات على أنواعها تأخذ على عاتقها تنفيذ برامج الزيارة وتأمين الراحة للمسافرين والسيّاح وإلى أي مكان على هذه المعمورة.

جـ ـ أدب الرحلات

أدب الرحلات فن قائم بذاته يتناول مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والثقافية والسياسية في بيئة معينة وزمن محدد، بحيث يدوّن فيه الكاتب ما شاهد، وما لاحظ، وما صوّر، وما استنتج وما شعر خلال تنقله في سفره، وما تعرّض له من المتاعب والمصاعب والأهوال، وما حققه من لذة ونشوة وراحة نفسية وهو يجوب البلاد، ويكتشف الأسرار ويرى الغرائب، وعجائب المخلوقات، وسحر الطبيعة، وتنوّع المناخات، وقساوة الصحارى ونداوة الخمائل ويغتني بالمعارف ويتزوّد بالعلوم؛ ثم يروي كل ذلك، ويشدّك إليه حتى لكأنك ترافقه، وتقاسمه متعته وسعادته وعذابه، وترى بنفسك وأنت تواكبه كيف يتداخل المكان مع الزمان، ويتواصل التاريخ مع الجغرافيا، ويتشارك العلم مع الأدب، ويتعانق العقل مع العاطفة ويحلّق الخيال أحياناً حتى عوالم الخرافات ويقترب أحياناً أخرى ليلامس الواقع.

من هذا المنطلق كان حب الاستطلاع، واكتناه المجهول، واكتشاف المغلقات، ومراودة الأبعاد أساس الرغبة في السيطرة على ما يحيط بالإنسان، وكان وصف الرحلة والتجربة بجميع ما رافقها واكتنفها ولازمها

ونتج منها من ذكريات يمثّل القضية المشوّقة التي تشدّ إليها القارىء أو المستمع، فالذي يواكب الكاتب - في رحلته - يعيش مراحلها وأجواءها وملابساتها شأنه شأن المشاهد فيلماً سينمائياً على شاشة كبيرة تُعرض عبره التفاصيل الدقيقة من دون أي إغفال أو تجاهل.

وهكذا فأدب الرحلات بالنتيجة هو الفن الذي يتناول الأحداث والمواضيع والمشاهدات والناس وعاداتهم وتقاليدهم وأحوالهم وطريقة عيشهم وما يعرض للرحالة في سفره فيوثّقها بأسلوب أنيق، ملوّن الرؤى، مجنح الخيالات، بعيد عن جفاف العلم وصرامة المنهج، ويشدّ إليه القارىء بمشاعره وأحاسيسه، وهو يقدم له بعفوية وبساطة ومن دون تعقيد المعلومات والأفكار التي يهدف إلى إيصالها له.

هذا الفن الأدبي يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد إذ تتوفر فيه مادة غزيرة مما يهم المؤرخ والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير، فالرحلات منابع ثرّة لمختلف العلوم، وهي بمجموعها سجل حقيقي لمظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور، فالرحّالة وهو يطوي الأرض أثناء رحلته يغطي في الوقت نفسه ما يلاحظ من مظاهر مختلفة في الحياة يشاهدها أو يسمعها وينقلها في رحلته. ولا شك في أن الرحّالة يختلفون في دقة ملاحظتهم وفي درجة اهتمامهم، وفي نوع هذا الاهتمام، كما يختلفون في درجة صدقهم وأمانتهم وفي تنوّع فهمهم للأمور تحت الظروف المتغايرة التي يخضعون لها ومن هنا كان للرحلات قيمتان عظيمتان: قيمة علمية وأخرى أدبية.

القيمة العلمية تتمثل بما تحتويه معظم هذه الرحلات من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها من جراء اتصال الرحّالة المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة خلال رحلته.

«أما القيمة الأدبية فتتجلى فيما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني والتنوع في أساليب السرد القصصي والحوار والوصف. وقد أثار هذا الأدب اهتماماً بالغاً بسبب تنوعه وغنى مادته، فهو تارة علمي وتارة شعبي وهو طوراً واقعي وأسطوري على السواء تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة، ويمكن بالتالي اعتبار هذا الفن نمطاً خاصاً من أنماط القول الأدبي، قد لا يرقى إلى مستوى الفن القائم بذاته كفن القصة أو الشعر أو المسرحية أو المقالة الأدبية مثلاً، ففيه تجتمع أساليب هذه الفنون وموضوعاتها كلها من غير أن تضبط تعابيرها أو أن يخضع لمقاييسها»[24].

وإذا كان للرحلات مكان مميّز في الثقافة العربية، كما هي الحال لدى مختلف الشعوب فذلك يرجع إلى أنها فتحت الباب أمام معارف تطلّبها تطور المجتمعات وتواصل الناس، فالإنسان البدائي لم يحبس نفسه في بيئته الأولى وإنما تحرّك فيها بحثاً عن طعامه وشرابه، ووسّع دائرة هذه الحركة تبعاً للحاجة ومتطلبات الحياة، أو طمعاً في السيطرة، أو رغبة في الاكتشاف، وكان كلما ازداد تحضّراً تنامت لديه بواعث التقدم واكتناه المجهول وتذليل الصعاب، فلم تُرضِ رغباتِه الأماكنُ المجاورةُ، وإنما تجاوزها إلى حيث استطاع الوصول. وقد فرض عليه هذا التوسعُ نوعاً من الإدارة والتنظيم ووجوب التعرف على طبيعة البلاد وطرقها وقربها وبُعدها وأنهارها وجبالها وتراثها، وبات بالتالي وصفُ هذه البلاد ضرورةً تعميماً لمعرفتها، وترغيباً بزيارتها، ودليلاً على جغرافيتها، وشرحاً لتاريخها، وصورة واضحة لخصائصها.

(24) حسني محمود حسين، **أدب الرحلة عند العرب**، ص10.

هذا النمط الجديد لكتابه الرحلات ظهر إذاً في مراحله الأولى ملازماً لتنظيم السلطة وتوسّع الفتوحات، وازدهر مع تنامي هذه الظاهرة ودوافعها الاقتصادية والعلمية والسياسية وحب المغامرة، لكن السبب الديني كان الدافعَ الأهمَّ، فقد ألزم كلَّ قادرٍ على الحجّ أن يقوم بهذا الواجب، ولو مرةً واحدة على الأقل، ومراراً إذا رغب وكان مستطيعاً، وكان كل حاجٍ يستفيد من تجارب سواه، ويطّلع على ما كُتب بهذا الشأن، وقد أصبح كثيراً مع مرور الأيام، فظهرت كتبٌ في المشرق والمغرب أَغْنَتِ التراث العربي، وصوّر كلٌّ منها البلاد التي زارها المؤلف وطبيعتها وطرقها ومناخها وعمرانها وناسها وكل ما اتصل بحياتهم.

ففيها ـ عدا ما قاساه كاتبوها من ألوان المتاعب والأهوال ـ صورٌ وتقاريرُ وافيةٌ عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعمرانية للعرب ومن جاورهم من شعوب آسية وأفريقية وشطر من أمم أوروبة كذكر المعالم والأتربة ودرس العلاقات الاقتصادية، ووصف الممالك والبلدان والأصقاع والأقطار والمسالك والطرق وغير ذلك مما لا يزال يعتبر حتى اليوم مرجعاً أساسياً في دراسة وصف بعض البلدان الجغرافي والعمراني والاقتصادي. هذا بالإضافة إلى «أنّ ما أورده هؤلاء الرحّالون في مذكّراتهم يمكن أن يأخذ سبيله إلى عالم الأدب والخيال كأنموذج من أرقى النماذج في الوصف الفني الحيّ، والإيثار للتعبير السهل»[25].

هذه المؤلفات تميّزت بوحدة المواضيع (رحلة الحج) وتناولت بمعظمها المواقع نفسها وربما البلاد نفسها ـ تبعاً لتنوع الرحلات وطولها

(25) أحمد أبو سعد، أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي، ص5.

وقصرها، وإن اختلفت في أزمانها - (رحلة ابن جبير، ابن بطوطة، رحلة العبدري إلخ...) لكن اللافت فيها أن **كلاً من هؤلاء كان يرى بعينه ويكتب بقلمه ويتحدث بأسلوبه**، أي أن النظرة كانت تختلف حسب الرائي، والكتابة حسب المشاهد، والحديث وفقاً لأسلوب القاصّ وباتت بالتالي مقاربة هذا النمط فنًا أدبياً تبرز فيه مقدرة الكاتب وطريقة عرضه للموضوع، وكيفيّة معالجته ومدى وضوح أفكاره، وأداء تعابيره، وبساطة لغته وإشراق أسلوبه.

من هذه الرؤية أرى أن الذي يربط الجيل الأول من الرحّالة مع الأجيال اللاحقة منهم هو **وحدة الموضوع**، أي وصف الرحلة، أو الرحلات، وما رافقها من أحداثٍ في إطاريّ الزمان والمكان.

ومع مرور الأيام راح أدب الرحلة يشقّ لنفسه طريقاً متميّزاً، ويتشكّل ككيان مستقل ربما لأنّ الأرض ضاقت عن طموح الإنسان، وأصبحت أبعادها تحت السيطرة، وتمكّن الإنسان بوسائل الانتقال من اختصار الزمن في تقليص المسافات؛ فَعَبَرَ الأجواء، وجاوز الأبعاد، وذلّل المحيطات، وراود أغوارها، وقَلَبَ النظرةَ إلى الرحلات، فبَعْدَ أن كانت تعباً ومعاناةً وأهوالاً أضحت راحةً وترفاً ومتعة، وبعد أن كانت وقفاً على الخاصة أصبحت مباحةً للعامة، وبعد أن كانت متروكةً للمصادفة، أمست مهمّة من مهمّات الشركات الخاصة أو المؤسسات العامة، تضع لها خططاً وتفرد لها موظفين، وأصبحت وزارات السياحة من أهم الوزارات تعمل على تزويد السيّاح بالكتب والمنشورات وأماكن الزيارات وتؤمّن لهم وسائل الراحة كلّها لأنها تعود عليها بموارد عظيمة.

أدب الرحلات ليس فقط كتابة عن التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع. إنه اليوم **فن يحمل نكهة من هذه العلوم** وعبقاً من تراثها،

وملامح موروثاتها وفوق ذلك تنبِضُ فيه الصورُ الجميلة، والخيالات المجنّحة، والعبارات النديّة المسكوبة في أسلوب مشرق، إنه دعوة لبرنامج مشوّق، وبطاقة مذهّبة تغري بالزيارة وتعد بتأمين المتعة والتسلية، وقد استطاع مع آلات التصوير والتقنيات الحديثة أن ينقل إليك الطبيعة أكثر جمالاً وإشراقاً وسحراً، وباتت الكتابة عنه أبرع وصفاً وأكثر تشويقاً، وانضم إلى هذا الأدب الإعلام والإعلان والصور الملوّنة وبرز صحافيون موهوبون كتبوا وأبدعوا في هذا المضمار.

د ـ رحلات السيد حسن الأمين

يقول السيد حسن الأمين: «هذه رحلات قمت بها في أوقات متباينة متباعدة كنت أسجّل خلالها انطباعاتي عما تراه عيناي، وأردت أن أُشرك بها قرّاء العربية فنشرتها أول ما نشرتها في الصحف ثم شئت أن أجمعها كلها في كتاب واحد. وخلال هذه الرحلات كانت نفسي تجيش أحياناً بالشعر حنيناً إلى الوطن أو انفعالاً بالمشهد فضممت الشعر إلى النثر لأنه جزء من واقع الرحلة وأثر من آثارها»[26].

هذه الرحلات التي أشار إليها رحالتنا حاولتُ أن أرتّبَها حسب تواريخها والبلد الذي زاره وفقاً لما يلي:

I ـ رحلة عن طريق بغداد للنجف سنة ١٩٢٧ (بناء لرغبة والده في متابعة الدراسة الفقهيّة وقد استمرت ثلاثة أسابيع).

II ـ رحلة إلى العراق (مرحلة أولى) حيث عمل أستاذاً ثانوياً في

(26) حسن الأمين، **من بلد إلى بلد رحلات في الشرق والغرب**، دار التراث الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، 1974، ص3.

الحلّة ثم في دار المعلمين الريفية في بغداد بين السنوات ١٩٣٨ ـ ١٩٤٢.

III ـ رحلة إلى فلسطين ومصر (دمشق، حيفا، القدس، يافا، القاهرة) سنة ١٩٤٥، وكان قد استقال من سلك القضاء اللبناني الذي عمل فيه سنتين وشهرين.

IV ـ رحلة إلى العراق (مرحلة ثانية) ١٩٤٥ ـ ١٩٤٩ (أستاذاً في معهد الملكة **عالية** الجامعي).

V ـ رحلة إلى فرنسا (صيف ١٩٤٩) من بيروت إلى بور سعيد فالإسكندرية فمرسيليا ثم بالقطار إلى باريس وقبل العودة زار نيس وكانْ ومونت كارلو.

VI ـ رحلة إلى أميركا الجنوبية في أواخر سنة ١٩٤٩ (استغرقت ثلاثة أشهر) والعودة عن طريق نيويورك.

VII ـ رحلة إلى لندن وروما سنة ١٩٥٤.

VIII ـ رحلة بالقطار انطلاقاً من باريس (من غرب أوروبا إلى شرقها حتى إسطنبول) كتب عنها في أعداد مجلة **العرفان** أعداد حزيران وتموز وآب 1954 وفي عددي تموز وكانون الأول 1955 وعددي كانون الأول وتشرين الثاني 1957.

IX ـ رحلة إلى إيران سنة ١٩٥٨ (ويشير إلى زيارات أخرى قام بها في السنوات ١٩٦٦ و١٩٨٨ و١٩٨٩ و١٩٩٣ و١٩٩٦).

X ـ رحلة إلى باكستان سنة ١٩٦٤.

XI ـ رحلة إلى أفريقيا الشرقية في أواخر سنة ١٩٦٤ وأوائل سنة ١٩٦٥ عن طريق القاهرة، نيروبي، دار السلام، أروشا، كليما نجارو، ماتيارا (الغابات الوحشية) والعودة عن طريق أديس أبابا.

■ رحلة إلى المهدية في تونس تلبية لدعوة وزارة الثقافة التونسية.
■ رحلة إلى بومبي في الهند.

I ـ رحلات السيد حسن الأمين داخل العراق

قام السيد حسن برحلات داخل العراق وخارجه.

سأعتمد على كتاباته لأتمكن من إلقاء الضوء على طريقته في معالجة هذا الفن الأدبي، وإبراز ما كان يلفت نظره في مشاهداته وكيفية التصدّي لها، وأسلوبه في الكتابة، والغاية التي هدف إليها من الرحلات علّني أتوصل إلى الحكم على موقعه بين الرحّالة الأدباء.

والرحلة مع السيد حسن بدأت متعة وسفراً طلباً للراحة في الوقت الضائع خلال العطل، **ولم تكن غاية في ذاتها**. كانت وسيلة للبحث والتنقيب، فأفاض فيها وتوسّع حيث أتاح له الموضوع واختصر في المجالات الأخرى، وكان لكل رحلة شأنها تبعاً لما حملته من الجدّة أو وقعت فيه من التكرار.

الرحلات ضمن العراق قام بها السيد حسن خلال السنوات الثماني التي أمضاها في التعليم عندما كانت تسمح له ظروف العمل، وقد زار فيها معظم مناطق العراق الجغرافية وهي تمثل أول عهده بمعاطاة هذا الفن الأدبي، وتحدث في مقاله الأول **(جولة العيد)** عن بغداد التي كانت تتهيأ لاستقباله، ووصف ازدحام السيارات واحتشاد الجماهير وإطلاق المدافع، والطلاب الذين يتركون مدارسهم والجنود الذين يغادرون مراكزهم وانتقال الكثير من الناس إلى الأرياف والقطارات الخاصة بالركاب والمسافرين، وتحدّث عن **زيارته للحلّة** وعن عادات أهلها وزيارته **لأنقاض مدينة بابل** ومشاهدته لأسدها الحجري (أسد نبوخذنصّر) وزيارته لمدينة **الكوفة**

وكذلك زيارته لمقام **عمران** وعودته بالزورق إلى الحلة.

في عدد تشرين الثاني سنة 1939 لمجلة **العرفان** وصف زيارته **لسامراء**، وتحدّث عن مراحل رحلته بالقطار وعن القرى المبنيّة بالطين، وعن قلعتها ونهر دجلة الذي كان يومها فائضاً هائجاً وكانت الزوارق الكثيرة تنتظر لتنقل الناس إلى الضفة الثانية لأنه لا جسر هناك يعبرون عليه وأن رجلين كانا يجرّان الزورق يسيران طوراً على اليابسة وطوراً في الماء، وأن سامراء قرية ليس لها من عظمة الماضي إلا الأطلال الدوارس، وهي محاطة بسور عالٍ يدور عليها من جميع جوانبها، وهي نظيفة الأزقة جميلة الموقع طيبة المناخ، وهي مركز قائمقامية.

ويتحدث عن زيارته وعن سرداب (دار الإمامين) وعن بقايا قصور شاهقة وعن الحديقة العامة وزهور الدفلى التي ذكّرته بمثيلاتها على نهر الليطاني.

وفي أعداد **العرفان** أشهر شباط وآذار سنة 1940 وكانون الثاني وشباط وآذار ونيسان سنة 1942 وآب سنة 1945 وآب سنة 1948، يتحدث عن رحلاته إلى (الخليج) وإلى أطلال الأنبار وإلى لواء ديالى وإلى مدينة تكريت.

أ - رحلة الخليج

يتناول في **رحلة الخليج** زيارته للحلّة، والديوانية والناصرية والبصرة والزبير والقرنة وشط العرب وعبادان وأبي الخصيب، ويتحدث عن الجنوب العراقي ونخيله (أعظم غابة من النخيل في العالم) وعن جزيرة (أم الخصاصيف) وبيوتها القروية المنتشرة على الساحل وعن صواري سفن بارزة وسط الماء قيل إن الأتراك في الحرب الماضية أرادوا أن

يسدُّوا طريق الشط في وجه الإنكليز فأغرقوها ولكنها لم تُجْدِ فتيلاً[27].

2 ـ رحلة الشمال

«وكانت هذه الرحلة من بغداد باتجاه بعقوبة، قاعدة لواء ديالى ومنها إلى المقداد وشهربان و(قرة غطان) الواقعة على ضفة ديالى والمحاطة بسلاسل التلال إلى كركوك التي يخترقها فرع من نهر العُظَّم ويسمونه هناك نهر (چاي) وهو ينضب في الصيف وينقطع ماؤه وعليه جسر جميل يوصل طرفه إلى تل عظيم يشرف على النهر، ويقوم عليه حي كبير يسمّونه (القلعة) وفيه مدرسة دينية يدرسون فيها بالعربية، ويفسرون بالتركية ثم إلى مقام النبي (دانيال) ف(القيسرية) وفيها الخانات التجارية كخانات دمشق من حيث إنه بناية واحدة، ولكنه يختلف عنها بأن في داخله أسواقاً متعددة الأصناف من الصنائع فتخرج من سوق لتدخل في سوق آخر»[28].

وفي كركوك كانت أعمدة اللهيب تتسامى ضاربة في عِنان الجو، حيث النار الأزلية التي لا تنطفئ، والتي يطلق عليها الأهلون هناك الاسم المقدس (بابا گرگر) كانت: ناراً تنبع من قلب التراب ولهيباً يفور من صميم الأرض لا تطفئه الثلوج ولا تخمده الأمطار ولا تزيده الأيام إلا ضراماً، وغير عجيب أن يقدسه الأقدمون وينحنوا لجلاله.

3 ـ الأنبار

«لواء الدليم هو أول ما يُرى في الدخول إلى العراق، فبعد تلك

(27) حسن الأمين، **مجلة العرفان**، عدد شباط وآذار، 1940، ص42 ـ 48.

(28) المرجع نفسه، عدد نيسان، ص203 ـ 207.

الصحراء القاحلة تطلع (الرطبة) فتنعش النفوس وتحيي الآمال، ثم تعود الصحراء ووحشتها، حتى تطل نخلات (الرمادي) ويلمع وجه الفرات، تدخل **(الفلّوجة)** وتعبر جسرها البديع فتعرف أنك أصبحت من بغداد على قاب قوسين، وأي شيء أحب إلى النفس من أن تلوذ بأفياء النخيل وتسرح على ضفاف دجلة بعد أربع وعشرين ساعة تقضيها في ذاك الدوّ المفزع قلعة مستوحشة، لذلك كان للرطبة والفلّوجة والرمادي في الأذن رنّة موسيقية يعرف لذتها مَنْ عبر الشام وفوّز من دمشق إلى بغداد، وما أن يصيح الصائح (الرمادي) حتى تتصوّر الأفياء الوارفة والماء الرقراق والخضرة الحانية، وما هو أن يقول القائل (الفلوجة) حتى ترى الفرات ورياضه، ودجلة ومروجها وبغداد ومياهها»[29].

4 ـ ديالى

كتب حسن الأمين:

«على ضفته اليمنى تلال ترابية تقوم في وسطها (مقبرة الشريف) أما الضفة اليسرى فكلها بساتين ممتدة على طول النهر، تحوي مختلف الأشجار والأثمار، التي تشتهر بها (بعقوبة) وتصدرها إلى جميع نواحي العراق، وكل ضواحي بعقوبة على هذا النسق تشتهر بجمال الطبيعة، وكثافة الأدواح وكثرة الفواكه، وبالقرب من بعقوبة **النهروان ومقبرة الخوارج** والذين قتلوا فيها عندما حاربوا الإمام علي بعد أن خرجوا عليه وكانوا فريقاً من جيشه»[30].

(29) حسن الأمين، **مجلة العرفان**، عدد كانون الثاني وشباط، 1942، ص23 ـ 27.

(30) نهر من أنهار العراق وبه يسمى اللواء الذي قاعدته بعقوبة، **مجلة العرفان**، عدد آذار، 1942، ص135..

5 ـ تكريت

«بعد ست ساعات على الانطلاق من بغداد ـ يقول حسن الأمين ـ كنا نقبل على تكريت فنرى أول ما نرى فيها مقبرتها وقبابها المنتشرة.

في الصباح خرجنا إلى مقام الأربعين لنشاهد احتفال الأهلين بالعيد، واجتزنا مقبرة البلدة، فرأينا على شواهد القبور صوراً ونقوشاً غريبة، وعلمنا أن العادة هنا أن ينقشوا على شاهدة قبر الميت ما يشير إلى مهنته وطراز حياته (فالقبر المنقوش عليه أسواره) تشير إلى أن الميت من طبقة الأفندية، والمنقوش عليه خنجر أو مسدس فهي تشير إلى أن صاحبه كان من الشجعان»[31].

II ـ رحلات خارج العراق

1 ـ إلى فرنسا صيف 1949

بعد سنوات أربع من الترحال في العراق، حافلة بأزهى الصور، وأجمل الذكريات، عاد السيد حسن الأمين إلى لبنان سنة 1949، عاد وحيداً، لا أدري إذا كانت أتعبته الغربة، أم أمضّه الحنين، واشتاق إلى الوالد والأهل والرفاق؟ عاد وقد اغتنى بتجربة طويلة خلال إقامته في بغداد، وتزوّد بكنز من الثقافة والمعرفة والاطلاع.

لكنه ما كاد يسلّم حتى راح يودّع لكأنه في سباق مع الزمن، كان مسكوناً بحركة لا تهدأ، وبشغف بالمعرفة والاطلاع، وارتياد الأبعاد، وكشف المخبآت، والبحث عن كل جديد. أتُراه كان يرى أن سرعة الأيام

(31) حسن الأمين، **مجلة العرفان**، عدد آب، 1945، ص491 ـ 497.

تستلزم صراعاً مع الزمن وعملاً دؤوباً للاستفادة من العمر بحيث لا نضيعه في الراحة والاستكانة والفراغ القاتل؟

كان حسن الأمين على سفر، أحبَّ أن يستفيد من شبابه الطامح، وعقله المنفتح، وهواياته المحببة.

في صيف 1949 أبحرت الباخرة من ميناء بيروت، «وبيروت تمتد على الساحل كمدرج ذي لونين أحمر وأبيض، وقد ارتفع فوقها الجبل بقراه وغاباته فكأنها سلّم جميل يرتفع إلى القمم الجميلة، وأخذت تبتعد عن الساحل قليلاً قليلاً، والشمس إلى يميننا تجنح للمغيب، وقمم الجبل تتوهّج بانعكاس أشعة الشمس على زجاجها الكثير فيغدو الجبل برّاقاً لامعاً من كل صوب»[32].

ومن بورسعيد إلى الإسكندرية، إلى الشواطىء اليونانية، إلى مداخل الأدرياتيك، إلى الشواطىء الإيطالية، بين زرقة البحر وزرقة السماء، ورست الباخرة في مرسيليا، ولم يلبث القطار أن مضى إلى باريس، وكان الازدحام فيه ازدحاماً عجيباً، والممرات مملوءة بالناس وبالأمتعة، وكان بعض الناس قد طووا أجسامهم فوق أمتعتهم وأغفوا، وكان بعضهم لا يزال واقفاً على قدميه يغالب التعب والنعاس إلى أن غلبهم، فوضعوا أيديهم تحت رؤوسهم وناموا في المداخل والممرات.

2 ـ إلى أميركا أواخر 1949

وحسن الأمين حتى في أربعينه لا يعرف الاستقرار والهدوء، هو لم يكد يرجع من رحلته الحافلة، مشبعاً بروعة ما راقب، وغِنى ما اكتنز،

(32) حسن الأمين، مجلة العرفان، عدد كانون الثاني، 1954، ص270.

وسحر ما شاهد، وجمال ما رأى، وعظمة ما استنتج، حتى عاوده الحنين إلى السفر. إن عالماً جديداً ينتظره، وأصدقاء محبين يدعونه، وهو مشوق إلى أن يلقاهم، ويرتاد دنياهم، ويبحث عن أسرار مغلقة، ونمط حياة في المقلب الآخر من الأرض.

سافر من مطار دمشق في أحد أيام كانون الأول ـ ديسمبر 1949 عن طريق روما وباريس ومدريد إلى دكار، ومن مطار دكار «أخذه نوم طويل حتى إذا استيقظ رأى خضرةً ونخيلاً» وراح يتساءل «أين أنا من النخل الذي خلفته في العراق، وفي القلب إليه حنين لا يفنى، أهو الشوق يصوّر لي النخل هنا أم هو الخيال يحملني الآن إلى بغداد الحبيبة؟ كلا إنه النخل، نخل أميركا حقيقة، لا خيالاً، وها هي الطائرة تحط فإذا إلى يسارها عدة نخلات، يا نخلات أميركا: إنك والله جميلة، ولكن حب نخلات العراق لم يدع في القلب مكاناً لحب نخل آخر»[33].

ومن مطار عاصمة البرازيل (ريو دي جنيرو) اتجهت الطائرة نحو الأرجنتين، حيث تقيم تلك الجماعة العربية الكريمة التي طال نأيها عن أوطانها، ولكنها ظلت وفيّة لتلك الأوطان، حفيظة على تراثها، أمينة لأهدافها.

وطوال ثلاثة أشهر ونصف الشهر عاش السيد حسن الأمين مع الجالية العربية في بونس آيرس وفلورنس ومتديرو وبيرسيو وفي (الروساريو) على ضفاف نهر (بارانا) وفي الدارات والباحات، والبيوت المضيافة، وأقيمت للضّيف القادم حفلات استقبال وتكريم بهذه المناسبة.

(33) حسن الأمين، **مجلة العرفان**، عدد كانون الثاني، 1951، ص160.

ووقف الشاعر أحمد سليمان الأحمد يحتفل بقدوم صديقه:

بُرْغمَ المجد قد حملتَ شذانا فتفتَّحْ مجداً على دنيانا!

أنتَ من روضة العروبة قُطُفتَ فعَطُرْتَ عالماً وزمانا

أيُّ نجوى على جراحك سالت فتنفَّسْ أطيابَها وتَفانَ!

حَسْبُنا الطيب، كم غسلنا بريّاه وجوهاً وكم صبغنا رؤانا!

■ ■ ■

يا صفيّ العقيدة البكر لم ترضَ سوى رحب ساحها ميدانا!

من بلادي أطلّ شادي العلى م يُلقي نشيد العروبة الفتّانا

والبطولاتُ عُطّفٌ تشرب الألحان م كيما ترنّح الألحانا

والبطولات ما أعزّ دماءً سفحَتْها عقيدةٌ في ثرانا!

■ ■ ■

إيْ فتى المجد كم حملتَ جراحَ المجد في قلبك الكبير حنانا؟!

وتعهدْتَ بالمعارف نشئاً رفَّ في روضة العلى أقحوانا

تتمنى جوارحُ القوم إذ تلقي م حديثاً! لو تغتدي آذانا!

هكذا يخلد العظيم فلا سامرَ م قلبٌ إلا للعلى ندمانا

يا رفيقي! وكم نظمنا الليالي من جهادٍ ومن هوًى ديوانا!؟

وهززنا أضالع المنبر الثوريّ م إن نخوةً أو استحسانا

أوَ ما قبّلتْ جفونُك عني شاطئاً مثلَ عهدنا هيمانا؟!

أيّ عطر حملت من جنّة الوحي م ورفّت أضواؤه لقيانا

الفراتان نغمة وهديرٌ فسلِ الغوطتيْنِ ما بَردانا؟!

وهُمُ في جسم موطني كالشرايين فلا قَطَعَ الصدى شريانا!

فـي غـدٍ نـلـتـقـي عـلـى بـردى يـغـسـل آثـامَـه بـوهْـج تُـقـانـا
رفْـرقَـتْـه مـع الـعـروبـة غـسـانٌ فـحـكـى فـي غَـدْقِـهِ غـسّـانـا

■ ■ ■

نـدوةُ الـمـجـد مـا لـمـستُ بـهـا إلا م شـبـابـي وأغـنـيـاتـي الـحـسـانـا
والـجـهـادُ الـذي حـمـلـنـا لـواه وعـلـى دربِـهِ زرغـنـا مُـنـانـا
هذه دحية الخلود أزَحْتَ السّتْرَ عَنْها م فـزيّـنـتْ مُـنـتـدانـا[34]

«كانت إقامة السيد حسن الأمين في الأرجنتين بعثاً لحركة أدبية رائعة بما ألقي في الحفلات التي أقيمت من شعر ونثر، كما كانت حفلةُ الجالية العاملية الوداعية في العاصمة من أزهى الحفلات، تكلّم فيها في مَنْ تكلم كل من سيادة المطران نيفن سابا والشاعر أحمد سليمان الأحمد والشاعرة اللبنانية الأصل الأرجنتينية الجنسية (نيليدا شرارة) Nelida وغيرهم»[35].

وعاد السيد حسن ـ عن طريق نيويورك ـ إلى الوطن بعد أن أمضى ثلاثة أشهر في الأرجنتين، وحمل معه ذكريات لازمته طوال أيامه وكثيراً ما تحدّث عنها بحنان وعاطفة وشفافية.

3 ـ رحلات إيران (ست رحلات) بين 1958 ـ 1966

يقول حسن الأمين:

«قيمة الوقت عندك هي بمقدار ما يزيدك علماً ويلهمك اطلاعاً، وهكذا فعليك أن تدع الراحة التي تغريك، والرفاه الذي يثبّط همتك،

(34) مجلة العرفان، عدد شباط، 1950، ص381 ـ 382.

(35) المرجع نفسه، والصفحة نفسها

فترفض الجهل مع الكسل، وتفضل العلم مع التعب»[36]. السنة 1958 - وكأني بالسيد حسن يقول -، وها أنت في الطريق إلى طهران، وقد آن لك أن تسافر بجسدك وترود الأبعاد التي طالما حلمت أن تأتيها، والتي عاشت في ذاكرتك وخيالك وأنت تطالع تاريخها وجغرافيتها وأدبها وفلسفتها، وتغرف من معارفها الكثير الكثير، لقد مرّ عليك زمن طويل لم تسافر خلاله، وأنت غارق بين صفحات الكتب وغبار الأيام وكرّ السنين!!!

هذه الطائرة تحط في طهران، وقد خرج الناس في يوم عطلتهم (نهار الجمعة) إلى الضواحي القريبة، فضاقت بهم السبل والمسالك، وازدحموا بانتظام على مواقف الأوتوبيسات، وأمام دور السينما والمخابز والحوانيت دون تدافع أو تسابق، وإذا ما دنا المساء لا تشعر بأن الحوانيت سوف تقفل، والمخازن سوف تسدّ، بل تشعر أن حياة جديدة ستتدفق في هذه الأسواق الطويلة وما حولها من شوارع ومسالك.

فإذا ما خرجت من طهران والمزارع والقرى تُفاجأ بالصحراء تطالعك من حيثما تلفّت، برمالها وحصاها وجفافها، ولكنها لا تطول فلا تلبث مشاهدُ الخضرة أن تلوح، ويبدو فلاح يذرو القمح، قروي يسوق البقرة، وساقية تجري وشجرة تعلو.

ويقول السيد حسن:

«ثم ها هي نيسابور أمامي أفتحها كتاباً، وأجلوها صحفاً، فتفيض أمامي علماً جماً وذكرى حية وتبعث في نفسي أشجى ما تبعثه بقايا الأحباب. ويوم كان يهولني التاريخ متحدثاً عن نكبة نيسابور بالمعقول، بعدما كان يشوقني قاصّاً سير العلم والأدب والشعر فيها، لم أكن أحسب

(36) حسن الأمين، حل وترحال، ص425.

أني سألمس تلك النكبة بيدي وأحسها بنفسي وأبصرها بعيني!!!.

«ولكنني وأنا أتطلّع إلى هذا الركام المتجمّع، وأمشي في هذه التلال المتلاحقة، وأعلم أن ما تجمّع فكان ركاماً، وما تلاصق فاستحال تلالاً، لم يكن إلا دور المدينة المهدومة، وقصورها المنقوضة، ومدارسها المنسوفة!!..».

«ولكنني وأنا أرسل البصر إلى الآماد البعيدة فأرى امتداد الخراب، أوقن أن ما حدّث عنه المحدثون في التاريخ ما كان ليصوِّر حقيقة المأساة!! وأن كلَّ خيالٍ يقصر عن إدراك بربريّة المغول ووحشيّة جنكيز وهمجيّة هولاكو!!»[37].

4 - إلى باكستان 1964

يقول حسن الأمين:

«اللطف والإيناس يطالعانك في أول خطوة تخطوها في مطار كراتشي، ويرافقانك وأنت أمام موظفي الجمرك والأمن العام وأمام كل مَن تلقاه من رسميين وغير رسميين، وتلفتك لغة (الأوردو) الباكستانية بحروفها العربية على الجدران، وعلى الأبواب، وكذلك بعض الكلمات العربية الأصيلة»[38].

ويتابع:

«وسائل النقل هنا طرفة من الطرف، فواسطة النقل التي كانت سائدة قديماً لا تزال تسود شوارع كراتشي، السيارات والأتوبيسات والدرّجات؛

(37) حسن الأمين، من بلد إلى بلد، ص190.

(38) المصدر نفسه، ص367.

الجمال تجر عربات النقل الكبيرة، تجر العربات بدواليبها المطاطية الضخمة تسير جنباً إلى جنب مع أجمل السيارات الأميركية، كراتشي لم تترك الجمل، سفينة الصحراء، بل جعلت منه عربة المدينة؛ في بعض شوارع كراتشي عربات الحمير، الحمير هناك أصغر حجماً من سواها في بلادنا، لكنك لن تجد أقوى منها نشاطاً ولا أسرع عدواً، وهناك «تكسيّات» الدراجات النارية، فقد صنعوا للدراجات النارية عجلتين خلفيتين، وبنوا فوقهما مقعداً يتسع لشخصين، كما أن «الترّام» يعد الآخر من وسائل النقل في كراتشي. لكنه ليس الترام الكهربائي بل هو ترام مازوتي»[39].

في كراتشي شوارع رحبة نظيفة مستقيمة شجراء تمضي في امتدادها على اتساع ونضارة وحسن تنظيم، وفيها حدائق عامة معشوشبة، شجيرة، يستمتع بها الجمهور في الآصال والليالي.

«لاهور ـ العاصمة الفكرية ـ، مشهورة بحدائقها (حدائق شالامار) وبمسجدها الجامع الذي بناه المغول وجنائنها التي بنتها (نورجهان)، وفي لاهور معهد الدراسات الإسلامية، وجمعية محبي العالم الإسلامي، ومجلس الشاعر إقبال»[40].

5 ـ أفريقيا الشرقية (أواخر سنة 1964 وأوائل سنة 1965)

يقول حسن الأمين:

«للرحالة نهاراتهم وعيونهم المنفتحة بكل اتساعها على جمال الطبيعة وسحر المناظر وروعة خلق الله. أي خسران للعين إذا لم تتملَّ وتسكرْ من الإبداع الإلهي.

(39) حسن الأمين، **من بلد إلى بلد**، ص371 ـ 372.

(40) المصدر نفسه، ص151 ـ 154.

«وصلنا مطار القاهرة وقد لفّ الكون هدوء الفجر المطلّ، حتى لتؤخذ به أخذاً، وعندما تحركت الطائرة مجدداً، كنا نجوز سماء أفريقيا متجهين نحو نيروبي ومضينا عابرين خط الاستواء متنقلين من جو إلى جو من الشتاء وبرده إلى الصيف وحرّه، ثم عبرنا فوق غابات سوداء متكاثفة، وامتدت الغابات امتداداً بعيداً، وكانت الطائرة تقترب من مطار نيروبي، ومن نيروبي إلى دار السلام إلى موشي إلى أروشا وبالسيارات إلى الغابات الوحشية و(مانيارا) حيث الطبيعة كما بدت من أول عهودها، وكما عاشت حيواناتها على حريتها وانطلاقها وتنوع أجناسها واختلاف أصولها.

«هاهنا البحيرة والغاب، وهاهنا العصافير والطيور، هاهنا الغزلان والزرافات، وهاهنا حمر الوحش والجاموس الوحشي والبقر الوحشي، وهاهنا الأسود واللبوات والأشبال، كل هذا طليق سارح في نواحي الغابة وسهولها ودروسها كما عهدته من أول خَلْقها؛ الأسود واللبوات والأشبال والنمور تضيق بالأرض فتصعد على الشجر العالي ملقيةً بأجسادها على الأغصان الكبيرة ثم تضيق بالشجر فتنحدر إلى الأرض مضطجعة أو متهادية وئيدة.

«لقد ذلّل الإنسان هذه الغابة وصار يدخلها بالسيارات آمناً مطمئناً، ولكن حذراً كل الحذر فلا يُباح له الدخول إلا بقافلة بصحبة الأدلاّء المسلّحين»[41].

6 ـ رحلة إلى المهدية (تونس)

ارتحل حسن الأمين في الكثير من البلدان، وكتب عن تواريخها ومواقعها وعمرانها وناسها وحضاراتها، كتب بعين المراقب الذي يجهد

(41) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص412.

أن يبرز خصائصها المميزة، وما يختلف منها عمّا في بلده وما يأتلف. هذه المقارنة كانت إحياءً للذكريات الكامنة في وجدانه عن الوطن والأرض.

كان في ترحاله وحيثما وطئت قدماه، **يحاول أن يوقظ الماضي ويتذكّر أحداثه**: في شوارع البصرة تمثّل «المربد» غاصّاً بالشعراء والأدباء والنحاة، وفي جامع الكوفة تصوّر الإمام عليّاً يخطب ويعظ ويفقّه في الدين، وفي نيسابور تذكّر عمر الخيام وأبا هلال العسكري وأبا منصور الثعالبي ونصير الدين الطوسي، وفي المهدية وشوارعها تمثّل المعزّ وهو يخطر في المسالك وكيف انطلق ليحقّق تطلّعاته للوحدة الإسلامية، وفي الطريق إلى كركوك تذكّر طريق تبنين في جبل عامل التي طالما مرّ عليها طفلاً وشاباً وشيخاً.

■ ■ ■

وعندما وصل إلى باريس، لم يصدّق نفسه مشى في شوارعها وبين جامعاتها ومكتباتها، وتصوّر عظماء وقادة وأدباء وشعراء وفنانين مرّوا قبله على هذه الطرقات، وتركوا بصماتهم وآثارهم في المنعطفات والساحات.

«لا لستَ بالحالم ها أنت في باريس! أأنت دارسٌ تحب أن تتعلّم حتى آخر ساعة من حياتك؟، إنك واجدٌ فيها كلّ ما يزيدك علماً، هاهنا في دروب الحي اللاتيني، وعلى مفارق السان ميشيل وساحة السوربون، هاهنا في هذه المنعطفات وراء تلك الجدران وتحت هذه القباب يتفجّر العلم فتعبُ منه الأقوام التي هبّت إلى باريس من كل أرض!! هنا المعاهد والمكتبات، هنا المدارس والجامعات؛ من هنا يخرج أعلام السياسة والأدب والعلم؛ هاهنا في هذه الدروب مرّ جبابرة الفكر، هنا مشوا، وعلى هذه الكراسي جلسوا، وفي هذه المقاهي شربوا، وفي هذه

المطاعم أكلوا، إنك لتحسهم في كل شيء، وترى حياتهم في كل صوب، فتروعك باريس العالم أم العلماء»!!!

«باريس هذه المدينة التي لا تنام ليلاً قد حفظت ذكرى عظمائها، ووفت لهم وفاءً كريماً، فحيثما سرت في دروبها تشاهد نصب شاعر أو رسّام أو كاتب أو سياسي أو عسكري؛ أما الفنانون والشعراء والمفكرون فلطالما وقفت أمام بيوتهم، ولطالما شاقني التردد إلى دورهم والمشي في طرقهم»[42].

■ ■ ■

حسن الأمين الرحّالة لم يرسم خرائط لرحلاته، ولم يُكثر من توثيقها بالصُور كما هي الحال في العصر الحديث، وكان في معظم الرحلات لا يتحدث عن أحاسيسه، وأرقه وقلقه، ومراحل استعداده ليلة السفر، كان يواري كل هذه المشاعر خلف الحديث عن الرحلة نفسها وإطارها الجغرافي وما تستدعي من التاريخ، ربما كانت الثقافة هدفه الأساس من الترحال ليبحث في خزائن الكتب عن المخطوطات ودفائن الماضي وأسراره التي لم تنشر بعد في التاريخ الإسلامي، أو عن أخبار آل البيت التي طمست أو أريد لها ألا تُصرف، وقد جعل من هذا الهدف قضية ونذر نفسه لها فأتمّ **أعيان الشيعة** وألّف **مستدركاتها** وأصدر كما حلم طويلاً **دائرة المعارف الإسلامية الشيعية**.

«كان السيد حسن الأمين يرحل بحثاً عن مصادره، وكان يرحل **في هذه المصادر**، إنها رحلات بحث عن المصادر وفيها، وتثمر الرحلات أدباً يُغني نوعاً أدبياً عرفه الأدب العربي هو **أدب الرحلات**، وتثمر شعراً

(42) مجلة **العرفان**، عدد تموز، 1955، ص1102.

يمثّل تجربة البُعد والفراق والحنين، وتثمر حقائق تاريخية يتبيّنها الباحث ببصيرةٍ نافذةٍ، ويقولها بجرأة نادرة، السيد حسن أمضى عمره في رحلات أولاها بحثٌ عن الكتب والوثائق، وثانيها بحث في هذه الكتب والوثائق عن الحقائق، وثالثها بحثٌ في الذات الإنسانية، فكان أديباً، شاعراً، ناثراً، ومؤرّخاً ومصنّف موسوعات، ومحقّقاً وموُجهاً يحظى قاصدوه بالرعاية والمحبّة»[43].

حسن الأمين في أدب رحلاته **كان تقليدياً**، توكأ على من تقدّمه في هذا الفن وتأثر بهم، واتبع طريقة أديب الفريكة أمين الريحاني في تسجيل ملاحظاته دون تأخير ليتوسع بها لاحقاً، وقد ساعدته ثقافته التاريخية الواسعة على إغناء مواضيعه وأسبغت عليها ثراءً وعمقاً. كما أمدّه تبحُره الديني بالتعمُق في التحليل والنقاش، وقد **كان بالفعل علاّمة دون أن يتزيّى بزي رجال الدين ويعتمر العمامة**، فهو الذي أكمل بعد وفاة والده **أعيان الشيعة** وأتبعها بأحد عشر جزءاً من المستدركات، وهو الذي أصدر **دائرة المعارف الإسلامية الشيعية**، وألّف عشرات الكتب في الأدب والتاريخ والإسلاميات، «وقد كرّس عمره في خدمة العلم بحثاً وكتابة وتأليفاً، سابراً أغوار التاريخ، مبيّناً حقائقه، لتكون معالم ساطعة تنبض بالحقيقة العلمية المضيئة للحاضر والمستقبل»[44].

يلفتك في حسن الأمين هذا الجلد النادر على مصاحبة الكتب وقضاء معظم الوقت مرتحلاً بين سواد الحبر وغبار الورق والكتابة، كان يسكب من قلبه ومن روحه على بياض الصفحات، يرتّبها سطوراً وينمّقها

(43) عبد المجيد زراقط، **بحث منشور في دائرة المعارف الإسلامية الشيعية**، ج26، ص98.

(44) علي أكبر محتشمي ممثل رئيس جمهورية إيران في احتفال تكريم السيد حسن الأمين (قصر الأونيسكو) جريدة الانتقاء، 7/ 3/ 2003.

أفكاراً ويلوّنها صوراً ويأسرنا بها أحاديث شيّقات، وعندما سئل ألم تتعب من الكتابة؟ أجاب: «لم أتعب أبداً لأن الكتابة عندي جزء من حياتي، وإذا كان الإنسان يتعب من نفسه فأنا أتعب من الكتابة!! الكتابة أعطتني جلَّ ما أطمح إليه ومطامحي ليست مطامح ماديّة ولا سلطوية وإنما هي مطامح ثقافية، يكفي أن الكتابة حققت لي دائرة المعارف والمستدركات وبضعة عشر كتاباً في التاريخ»[45].

يبقى أن حسن الأمين **الأديب** كان يطل علينا ونحن نواكبه في رحلاته، وفي كتاباته، ولم يستطع أن يتواري خلف مواضيعه. في رحلة (الغرّاف) حيث «الطبيعة الساحرة وجمال الريف الباهر والمروج الغنّاء والحقول الخضراء ـ راح يدوّن رحلته قائلاً ـ وقد يطغى الدهر فيمحو من الذهن صوراً جمّة من الماضي القصير الطويل ولكنه لن يمحو منه هذه الصفحة المشرقة التي خطتها ذكريات العراق وأهله:

تلفّتُّ حتّى لم يَبِنْ من بلادكم — دخانٌ ولا من نارهنَّ وقودُ

وإنّ ٱلتفاتَ القلب من بعد طرفه — طوال الليالي نحوكمْ ليزيدُ

ولو قال لي الغادون: ما أنت مشتهٍ — غداة جزعنا الرّمل؟ قلت: أعودُ»[46]

(45) زينب حمودي، جريدة **الأنوار**، الأربعاء 30/10/2002.

(46) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص350.

خاتمة

أن تقرأ ما كتب الرحّالة وتطالع وتطّلع، فترافقهم فيما شاهدوا وما صادفوا وما عانوا في أسفارهم، وهم يقطعون الفيافي ويذرعون بلاد الله الواسعة، يوم كانت المسافات همّاً، والارتحال ضنكاً، والانتقال خطراً، والطرق مخيفة، والسفر غير مأمون العواقب.

هذا الحلم بالسفر طالما وعد كلُّ رحّالةٍ نَفْسَه بتحقيقهِ!! ربّما قضى سنوات أو أشهراً وهو يعيش على هذا الأمل الجميل، يعدّ العدّة ويتهيأ لليوم الموعود، مصطحباً الزوجة أو الرفاق، حتى إذا عزم على المسير فرِحاً، راوَدَتْه الوساوس وأقلقَهُ الغيب وما قد يحمل من أخطار.

كان الوداع احتفالاً صعباً تذوب فيه القلوب وتسيل العبرات؛ وكانت فترة الانتظار ـ لطول زمن الغياب ـ مسكونةً بالوساوس وقاتم التصوّرات، وتتكرّر المشاعر والأحاسيس عندما يتهيّأ المسافر للرجوع ولكنها مشاعر وأحاسيس مختلفة عمّا كانت عليه في بداية الانطلاق. إنه خلال سفره وأثناء رجوعه يشتاق إلى الأهل والأقارب، وأبناء البلدة والبلدة، والبيت والأماكن والزوايا والحي. يشتاق إلى الرّاحة والاستقرار والإقامة بعد طول غياب!! وقد بات سفرُهُ حلماً تحقق أو واجباً قام بأدائه.

هذه الرحلات عندما يُكتَب عنها وتوصف تشكّل فناً أدبياً، نفتح مدوّناته وسجلاّته، ونسافر عَبْر صفحاته إلى الأمكنة نفسها في الزمان نفسه الذي حدثت فيه، فنشارك ناسه حياتهم، ونستحضر ماضيهم، ونستعيد محيطهم وبيئتهم كما لو أنهم بُعثوا من جديد.

من هذه الزاوية نرى في أدب الرحلات استعراضاً أشبه بالشريط

السينمائي الذي نستمتع بأحداثه وناسه، بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم ومستوى رُقيّهم، ونلاحظ كيف نظر الرحّالة إليهم وتحدّثوا عنهم ووصفوا حياتهم بأساليب تختلف سرداً وعَرْضاً وتحليلاً وإمتاعاً.

هؤلاء الذين رافقتهم في الصفحات السابقة مثّلوا أدوار مراسلي الصحف في أيامنا نحن، وفتحوا عيوننا على مشاهداتهم وملاحظاتهم، ونقلوا لنا إرث الماضي فربطوا بين السلف والخلف، وتربعوا في موقع وسيط بين الأدب والتاريخ والجغرافيا والاجتماع.

هذا الفن الأدبي كان مقصوراً على الرحلات البرية، ثم تجاوزه إلى الرحلات في البحار والمحيطات، وتعدّاهما في أيامنا إلى رحلات الجوّ، ولسوف تكبر دائرة هذا الفن كلما تقدّم الإنسان في اختراعاته واكتشافاته.

يبقى أن حسن الأمين في رحلاته **كان تقليدياً**، توكأ على مَن سبقه، واتبع خطواتهم في وصف الطبيعة والمحيط والناس، لكنه كان ـ بحكم اتساع ثقافته ـ **يُدخل التاريخ والأدب في كتاباته**، ويتحدث ـ على سبيل المثال ـ عندما يزور بلدة عن عظمائها وأدبائها ومؤرخيها (نيسابور، أصفهان، مشهد إلخ.) ويستطرد عندما يسمح له الموضوع.

«في أدب الرحلات عند السيد حسن ـ يقول جورج جرداق ـ تلتقي دقة الملاحظة بوضوح الصورة، بمعرفة التاريخ معرفة واعية، بالقدرة على الربط بين الحقائق الإنسانية المشتركة ولو في عصور متباعدة، بشمولية النظرة إلى الأحياء والأشياء، بطرافة الأسلوب وحرارة جوّه»[47].

كان حسن الأمين في أسفاره ورحلاته أميناً على تصوير مشاهداته وإيصالها للقارىء بسيطةَ واضحةَ المعنى، سلِسة الأسلوب، مشوّقة السرد.

(47) جلال شريم، **حسن الأمين في مواجهة مع التاريخ**، ص106.

لكن حسن الأمين، كان **يبحث عمّا وراء الرحلة**، كانت رحلاته ترمي إلى التفتيش عن كتب ومخطوطات ومعلومات يحتاج إليها لكتاباته، وكان هاجسه أن يحقق ما وعد به أباه، وكان هدفه أن يُخرِجَ موسوعةً إسلامية تتضمن ما لم يرد من معلومات فيما ظهر منها؛ كانت غايته أن يكمل نقصاً أُغفل قصداً أو عمداً، ويذكر السبب الكامن وراء ذلك. كان حسن الأمين أقرب إلى ابن خلدون في أدبه، لكن الأخير بحث وتوسّع في أسباب العمران والتطور وعلاقات الناس واجتماعهم وتقدمهم ونُظُمهم وازدهار دولهم وضعفها وانحلالها بينما نحا حسن الأمين نحو غايةٍ أخرى ترمي إلى إلقاء مزيد من الضوء على مواقف ملتبسة في التاريخ، أو المعتقد. «كان السيد حسن في أسفار كثيرة باحثاً عن مصادر العلم وعمّا يقرّب من الحقائق، كان مثال الباحث المجتهد الدؤوب - يقول جودت فخر الدين -، الذي يسعى إلى إظهار الحقائق، متسلّحاً بالنزاهة والمعرفة والصبر»[48].

(48) جلال شريم، **حسن الأمين في مواجهة مع التاريخ**، ص104.

الفصل الثالث

حسن الأمين أديباً

مقدمة

أ ـ حسن الأمين والأدب

1 ـ المحاولات الأولى

2 ـ مقالاته الأدبية

ب ـ حسن الأمين الشاعر

I ـ المحاولات الأولى

II ـ مواضيع شعره

1 ـ الوطنيات

2 ـ الوجدانيات

III ـ الأسى في شعره

IV ـ هل أحب حسن الأمين؟

ج ـ حسن الأمين الموسوعي

خاتمة

مقدمة

كان السيد حسن الأمين موسوعي الثقافة، واسع الاطّلاع، عميق النظرة، حلو الحديث لا تكاد تطرح عليه سؤالاً إلا وتجد عنده جواباً له، خاصة في حقول الأدب والتاريخ والفقه والدين. «كان موسوعياً بامتياز، وهو الذي ساهم في ثقافة تحسين العلاقات بين الناس، ثقافة حوار لا انغلاق فيه وقد قال عنه صديقه يوسف الحوراني: حيث يكون حسن الأمين يوجد مجلس للأدب والفكر والمعرفة وعقد الصداقات»[1].

كان لنشأة السيد حسن قرب والده أثرٌ كبيرٌ في تكوينه الثقافي وتوجّهه الوطني، فقد شهدت هذه الفترة أحداثاً عاصفة انسحبت نتائجها وآثارها على البلاد العربية بدءاً من الحرب العالمية الأولى ومعاهدة سايكس بيكو ووعد بلفور والانتداب الفرنسي وسقوط الحكم الفيصلي في دمشق مروراً بثورات سوريا والعراق ولبنان وفلسطين وما استتبعت من تداعيات لا تزال تلفّ المنطقة والعالم العربي، لقد وعى السيد حسن هذه الأحداث فكتب نثراً، ونظم شعراً، وألقى خطباً أبرزت مواقفه وآراءه وتطلّعاته.

(1) حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج26، ص88، مقالة لفرحان صالح.

كتب نثراً في بدايات وعيه الوطني وكان لا يزال في الصفوف التكميلية وتناول موضوعات قومية، وقد شجّعه في حينه معلمه أديب التقي وعمل على نشر بعضها في مجلة **العرفان**، ونظم شعراً ثورياً، متأثراً بالحركة الوطنيّة واستشهاد يوسف العظمة وشارك في الكثير من المظاهرات والاجتماعات. حتى إذا كبر، وتعمّق وَعْيُهُ، وتوسّعت دائرة تحصيله راح يكتب بتدفّق، بلغةٍ مشرقةٍ، وأسلوب شيّق، وحماسةٍ ظاهرةٍ، ملقياً الضوء على مواضيع لافتةٍ في التاريخ الإسلامي، وناظماً قصائد وطنيّةً ثورية وغزليّة رقيقة ووجدانيّة ينبض فيها الحنين والتعلّق بالوطن والديار والأرض، ثم ليتفرّغ في فترةٍ لاحقةٍ إلى إكمال ما بدأه والده (أعيان الشيعة) ومستدركاتها (11 جزءاً) ثم إلى التأليف التاريخي والموسوعي [الموسوعة الإسلامية 6 مجلدّات] و(دائرة المعارف الإسلامية الشيعية 26 مجلداً) حتى تعدّت مؤلفاته الثلاثين موزّعة على أكثر من دار نشر.

كان السيد حسن مهموماً بالثقافة، - يقول لامع الحر - متفرّغاً لها، متبحراً في عوالمها، ومضيئاً ما تخبّئه من درر ثمينة تلمع كأنها البرق»[2].

عاش حسن الأمين عمراً مديداً قضاه بين صفحات الكتب قارئاً ومؤلفاً ومحققاً ومثيراً للجدل ومناقشاً للكثير مما اعتقد أنه من الثوابت. عاش بين المكتبات ملتصقاً بكنوزها متفرّغاً للتزوّد من معارفها ومخبآتها، وعمل على إلقاء الضوء عليها ونقلها إلى الناس بأمانة وموضوعيّة، وبقي حتى أيامه الأخيرة مسكوناً بهذا الهاجس يُعدّ مشاريعه المستقبليّة.

«حسن الأمين - أستاذ الأدب العربي في بغداد، - يقول إبراهيم

(2) حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، مقالة لفرحان صالح، ج26، ص81.

بيضون ـ والشاعر المحلّق في قوميّاته ووجدانياته، والرحّالة من بلد إلى بلد ـ بحّاثة يمسك بزمام التاريخ، وشاعر ينثر القوافي الزاهيات، وفي كليهما الإنسان العاشق لجبل عامل»[3].

«إنه من الذين لا يضمّهم عنوان أو هوية ـ يقول منذر جابر ـ، هو لا يدور في نتاجه أو مواقفه على مروحةٍ واحدة، عالمه واسع. واسع لأنه عالم مشاهدات وممارسات، يُديره في إلفةٍ نادرةٍ، وقد أرسى في شخصيته الفذّة علاقة بالغة الدقة بينه مفكّراً، وبينه إنساناً، وهذا ما جعل منه مقيماً دائماً في مناطق مختلفة، ووافقاً على منابر متعددة، هو شاعر مع الأدباء والمؤرخين، وهو أديب مع الشعراء والمؤرخين»[4].

في سيرة حسن الأمين علاقة مميزة لصاحب السيرة مع المطالعة والبحث والتفتيش والتأليف ـ وعلى حساب حياته الخاصّة ـ التي استنزفت معظم أيامه فتفرّغ لها مختاراً، ووهبها عمره، وقَفَهُ عليها، وبقي عازباً من دون أن يأنس بزوج أو يفرح بولد، ربما اعتقد ـ وقد جاوز الأربعين، أن زمان الصبا ولّى فَجَبُنَ وخاف، وربما اعتقد أن السعادة أضحت في مكان آخر، تقيم بين أصحاب العقول في خزائن المكتبات بين أكداس المؤلفات، وربما عانى صراعاتٍ موجعة كانت تتوالد وتتعاظم عندما يخلو إلى نفسه.

كانت حياته رتيبةً تجري على هذا المنوال، باستثناء لمحة مشرقة لوّنت هذه الرتابة وهزّت كيانه وبعثت فيه حركة أيقظت كوامن الوجد وأحاسيس الهوى ونداءات الشباب.

(3) حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، مقالة لفرحان صالح، ج26، ص117.

(4) المرجع نفسه، ج21، ص119.

سوف أحاول أن أستشفّ بعضاً من سرٍّ حاذر أن يُطلع عليه أحداً، وجهد في أن يُبْقِيَهُ طيَّ الكتمان.

أ ـ حسن الأمين الأديب

«جبل عامل موطن من مواطن الفكر والشعر والأدب، أنجب علماء أسهموا في البناء الحضاري والتطور الاجتماعي، ولم يكن الأدب ـ بمعناه الحقيقي ـ في جبل عامل موسمياً، بل كان ولم يزل منبعاً دائم التدفق ترفده طبيعة شاعرة ونفوس فطرت على الشعر. وقد قال الأمير شكيب أرسلان: لم أجد أصدق من قريض أبناء جبل عامل صورة للشعر العربي الصميم، ولا أخلص منه عرقاً في نسب اللغة، ولقد أراني أشرب ولا أرتوي حتى إذا وقعت في يدي بعض قصائد من نظم العامليين شبعت كبدي رياً وامتلأ دماغي بياناً عبقرياً».

بهذه الكلمات قدم مؤلف **روائع الأدب الفكاهي العاملي** علي مروة لكتابه معتبراً أن «مجالس الأدب والأدباء وندواتهم التي كانوا يعقدونها في بيوتهم ومنتزهاتهم وفي أماكن ومجالات كثيرة كانت مناسبات دائمة للمساجلات والمطارحات الأدبية»[5].

هكذا كانت (الأخوانيات) بين شعراء جبل عامل، الذين كانوا يتراسلون ويتواصلون ويتندّرون هكذا كانت جلساتهم وحلقاتهم حول ندوات راقية تتنقّل مواضيعها من الأدب والسياسة والدين والفقه والفلسفة والاجتماع، ولم تكن هذه (العكاظ) العامليّة المزدهرة لقاء موسمياً بتاريخ

(5) علي مروّة، **روائع الأدب الفكاهي العاملي**، مطابع الأمان، درعون، الطبعة الأولى، 1972، ص9.

محدد، وإنما كان نمطاً معاشاً فيه وسمة تطاول كل جبل عامل، وقد لا تعجب إذا ما تناهى إلى سمعك أن هذه البيئة تبعث الشعراء وإن الرجل إذا مات لا يرتاح إذا لم يحمل شاهد قبره أبياتاً من الشعر[6].

وفي جبل عامل عائلات موهوبة تتنفّس الشعر وتلهج النثر بلسانٍ طلق وأداء بليغ، كانت ـ ولا تزال ـ مختصّة بتخريج العلماء الدينيين كآل الأمين وشرف الدين وفضل الله وشمس الدين، ومروة، فإذا ما قُدِّر لك أن تدخل بيتاً من بيوتهم وتلقى فيه أطفالاً مثقفين، فإنك بعد سنوات لن تفاجأ إذا ما شهدت بين هؤلاء محدثاً لبقاً أو قارئاً نهماً أو شاعراً (على السليقة) قبل أن يعرف أن هناك أوزاناً وضعها الخليل بن أحمد.

وبيت العلاّمة السيد محسن الأمين خير مثال على ذلك، فالأب والأبناء حسن وهاشم وجعفر وعبد المطلب كانوا شعراء وأدباء وناثرين، كان كل مَنْ في البيت وما حوله يساعد على إظهار المواهب وصقل الإمكانات، ولا عجب إذا ما رأينا الصغار ينضجون باكراً وتتابع أخبارهم السارة وتتفتح قرائحهم الواعدة.

1 ـ المحاولات الأولى في الكتابة

كان حسن الأمين في السادسة عشرة من عمره تلميذاً في المدرسة العلوية في دمشق، وكان مديرها يومئذ أديب التقي أستاذ اللغة العربية ومدرّب التلاميذ على الخطابة، كان معلماً ناجحاً وموجّهاً وطنياً تأثر به تلامذته. وكثيراً ما شجعهم، ورعى خطواتهم، وأسهم في نجاحاتهم. حسن الأمين يذكر أنه مدين له في توجيهه الدراسي والفكري وفي مساعدته على نشر محاولاته الأولى في مجلة **العرفان**. المقال الأول الذي

(6) كثير من القبور في جبل عامل إن لم نقل معظمها يحمل تواريخ شعرية.

نشر كان عبارة عن مناجاة لجبل عامل الذي اشتاق إلى ربوعه وأطلاله، وتألّم لناسه الغارقين في الجهل، ودعاهم إلى العلم والاجتهاد والرقيّ علّهم يستفيقون من سباتهم؛ أرسل المعلم هذه المقالة طالباً من صاحب **العرفان** «نشرها على علاّتها»، واستجاب الشيخ أحمد عارف الزين للتمني:

«أي عامل! كلمة ما أعذبها في فمي، وما أحلاها وأقدسها وألذها عندي!! كلما لهج بذكرها لساني اهتزّت أوتار قلبي الشجيّة، ونزفت دموع عيني العسجدية لذكرها، وضعف فؤادي بأجنحة الحنوّ للقياها، فسلام على تلكم الرجوع! وتحية لتلك الأطلال! أنا أيتها البلاد لك كالطير الفاقد إلفه أو كالفطيم عن ثدي أمه لا أترنّم إلا بذكرك ولا أحنّ إلا إلى لقياك!!

أيتها الربوع! أنت هدف آمالي وعروسة خيالي أفديك بروحي ومالي!

أحبك لا كالحب، وأشغف بك لا كالشغف، إن اسمك الشريف كلما يُتلى على أذنيّ أو يلهج به لساني تخور لذاك قواي، وأقف حائراً لا أدري ما دهاني!!

وينهي مقالته ـ بعد توجّع على جهل العامليين وتخلّفهم، إن لم تستيقظوا ولم تنتبهوا فعلى عامل ونشئه السلام»[7].

هي محاولات أو خطوات أولى لطالب في تصوير عواطفه نحو مراتع طفولته وبلاده وقد اغترب عنها وبرّحه شوق عارم، تحسّ فيها الحنين إلى الأرض واضطراب المشاعر لصغير أبعد عن حضن أمه، «وكان من فضل الشيخ عارف الزين وتشجيعه أن نشرها (على علاّتها) وما أوضحها من علاّت كما تبيّن بعد ذلك، لقد فتحت له مجلة **العرفان** باب

(7) مجلة العرفان، عدد حزيران، 1926، ص609.

الكتابة وجعلته يؤمن أنه يستطيع أن يكتب وينشر، وتكرر الأمر أكثر من مرة، وكل ما كان ينشر إنما يُنشر على علاّته»[8].

تكرر الأمر بعد ستة أشهر في مقالة عنوانها بين عامين (1926 ـ 1927) ومما ورد فيها:

«هو ذا اليوم الأخير من شهر كانون الأول تغيب شمسه، ويتقلّص ظلّه، فتغيب معه مرحلة طويلة من الحياة، قطعناها بجزع الغصص ونحتسي الهمّ والكدر ونذرف دموع الحزن والألم. وتذهب في طيّه ليالٍ وأيام مرّت علينا مرّ السحاب، هي ذي الشمس تحتجب خلف الجبال، وتغيب وراء الأفق، وهي ذي آخر ساعة تمرّ بنا من العام الراحل، وهو ذا الفجر يرسل أشعّته اللجينيّة الباهرة مؤذنةً برحيل عامٍ طويلٍ إلى عالم الفناء وبدخول هذا الكون في عالم جديد!

فيا أيها العام الراحل المخلّف وراءه جفوناً كسرت أهدابها الدموع، وقلوباً ملأتها الأيام هماً وحزناً وأجساماً هدّها فرطُ العذاب والشقاء، لا كانت لياليك، ولا كانت الساعة التي جئت فيها تحمل في طيّاتك هذا الهمّ وذاك الحزن وهذا العذاب وذاك الشقاء!!

وأيها العام القادم، ماذا بين جنبيك؟ وماذا تحمل لهذا الوطن التاعس ولهذه الأمة البائسة؟ أم ماذا في تلك الأيام القادمة والليالي المقبلة من حوادث الزمان وطوارق الحدثان؟

رحماك! ولا تكن قاسياً فهذي دموعنا لم تجفّ، وها هي الآلام والأحزان لم تكفّ!!

حنانيك، ارحم أمة لم تعرف الهناء، وشعباً لم يَدْرِ ما السرور،

(8) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص47.

وبلاداً أَخْنَتْ عليها المصائب والنوائب، ونفوساً لا تزال ذكريات العام الماضي تثير فيها لواعج الأشجان وبواعث الأحزان»[9].

بين المقالتين يبدو واضحاً أن الكاتب أصبح أكثر وعياً، ولغته أكثر إشراقاً وأفكاره أبعد عمقاً وصوره أغنى ألواناً، هذا هو في موقف يتوزع بين الوجع والرجاء، والمغيب والشروق. بين عام راحل حمل في طياته هموماً وأحزاناً وعذاباً وإلى عام قادمٍ يجهل ما يخبّيء للوطن وللأمّة.

اللافت أن الطالب يفكّر بمستقبل وطنه، وغد أمته، وعذابات شعبه. ما أعظم هذه المشاعر الوطنية لدى شاب في هذا العمر، وما أسمى هذه الأفكار وأنبلها لقد شاء هذه المرة ـ وخلافاً للمرة الأولى ـ أن ينشر مقالته مرتبطاً بجبل عامل وليس بدمشق مع التأكد أنه أرسلها من مدرسته في أوائل العام الدراسي وفي الشهر الأول من السنة.

هذان المقالان المنشوران في مجلة **العرفان** شكّلا إطلالة مبكرة للطالب حسن الأمين على عالم الأدب من دون أن يستغلّ اسم والده. وكان بوسعه أن يفعل ذلك بكل سهولة، وقد حفظ لصاحب **العرفان** هذه المأثرة ليصبح لاحقاً ولعقود طويلة أحد كتّابها.

2 ـ المقالات الأدبية

حسن الأمين كتب كثيراً طوال بضعة عقود قاربت الثمانية في مختلف المواضيع الجغرافية والتاريخية والدينية والاجتماعية والأدبية بالإضافة إلى التأليف الموسوعي، وكثيراً ما كانت تتداخل هذه المواضيع أو تتقاطع فيما بينها، لذلك سوف أحصر بحثي في حسن الأمين الأديب.

(9) **العرفان**، عدد يناير/ كانون الأول، 1927، ص55.

بعد ثلاث سنوات على نشر حسن الأمين مقالته عاد ليطلّ مجدداً عبر مجلة **العرفان**، كان طالباً في الكلية العلمية الوطنية ـ في دمشق ـ وقد بلغ الثانية والعشرين من العمر، يتوقّد حماساً واندفاعاً وإيماناً بالقضايا الوطنية. في تلك الفترة قامت «عصبة من فتيان جبل عامل الذين هم من الفرقة الهاشمية للكشاف المسلم برحلة إلى بعض القرى العاملية يتعرفون إليها ويبثّون بين أهليها حب العلم، فكتب السيد حسن: «إيه فتية عامل وشبّانه الغاصبين! يميناً بمجد العرب لن تموت أمة أنتم حماتها ولن يفنى شعب أنتم سيوفه. إن صرخاتكم هذه لتزلزل صروح الغاصبين، وتهز دعائم العادين، وإن زئيركم في هذه الفلوات لترتجف له ركاب الأعداء، وتقشعر أجسادهم، فسيروا باسم العروبة ـ بعد اسم الله ـ مسراكم، وسيروا إلى الهدف الأسمى والمثل الأعلى واصعدوا بعزم حديدي وإرادة فولاذية نُجودَ الاستقلال وهضابَ الحرية»[10].

وإلحاقاً بهذا المقال كتب:

«أجل سنحييها مدنيَّةً سلفت في ماضي العصور، وسنعيده مجداً طوته غابرات العصور، وسنقيمها دولة عربية كريمة يبسم لها الزمان العابس، وهذه مُهَجُنا وقفٌ على تلك الأمنية الغالية وذلك الأمل السامي»[11].

الطالب أصبح شاباً ثورياً يحلم بغدٍ واعد لأمّته، التي ترسف في الجهالة والتخلف وقد سلبت حرّيتها ودنست كرامتها، واختال فيها الفاتح تيهاً. الطالب الشاب أصبح واعياً، حمل قضية الأمة في التحرر والانعتاق

(10) حسن الأمين، مجلة **العرفان**، عدد شباط، 1930، ص205.

(11) المرجع نفسه، عدد تشرين الثاني، 1930، ص455.

وراح يدعو لها، لقد حدّد مساره واتخذ قرارَهُ، ودمشق ومعها سوريا في تلك الفترة كانت تغلي بهذه الأحلام.

وعبر مجلة **العرفان** تابع حسن الأمين محاولاته، فكتب قصة (السائلة) «عن امرأة مشت تتلمس صدقة تحفظ بها حياة ابنها المريض، ومرت أسراب الناس دون أن تعطف عليها وقد شغلتهم سعادتهم عن شقاء غيرهم وبسمت لهم الحياة، وتعود السائلة وتفاجأ بابنها يسلم الروح، فأكبت عليه تحضنه وتقبّله مجهشة باكية حتى فاضت روحها فوق فراش ابنها، بعد أن تحجرت قلوب سكان الأرض ففقدوا كل شعور إنساني: أيتها السماء امطري عليهم حمماً لاهبة وبدليهم بالغيث شراراً، وناراً حامية بل اطبقي أيتها السماء على الأرض، أو اخسفي يا أرض بمن فيك قبل أن تشهدي هذا المشهد المفجع»[12]!!.

حسن الأمين ليس كاتب قصة يحبك أحداثها ويوجّهها نحو عقدة تمسك بمجرياتها، وتربط خيوطها وتتلاقى في تصاعد أزمتها لتصبّ في حل يوضح الهدف الذي سعى إلى إبرازه، ليس في قصة حسن الأمين من القصة الهادفة إلا الدعوة إلى التضامن الاجتماعي والصرخة المدوية بوجه الطبقة المتخمة!!

وكتب السيد حسن عن المواقف السامية في كربلاء وعن أبطالها الذين ثاروا على الظلم والاستبداد وعرض للواقعة وصوّر فاجعة استشهاد الحسين[13].

في سنة 1932 نشر نقداً لديوان معلّمه أديب التقي ولم ينظر إلى

(12) مجلة العرفان، كانون الثاني، 1931، ص41.

(13) المرجع نفسه، أيار، 1931، ص202.

الديوان إلا نظرة قوميّة بحتة، هذا الديوان الطافح بالشعر الوطني والقوافي القومية، والذي رافق مؤلفه النهضة العربية أيام شَعَرَ العربُ بالحيف النازل بهم من جرّاء استسلامهم للاتحاديين الذين غدروا بهم[14].

في هذه الفترة ـ وعلى الأقل بالنسبة لقارئي **العرفان** ـ بات اسم حسن الأمين معروفاً، هو في السنة الأخيرة في كلية الحقوق، وقد أرسل للمجلة مقالاً عن مصيف جباع نشر في حينه مع التعريف التالي: «صاحب هذا المقال وطني مخلص وكاتب لبق، وشاعر ذو شعور ما زال في ميعة الصبا، ولا شك أن المستقبل يحفظ له بين خفاياه شأناً وقد نشرنا الآن هذا المقال بمناسبة حلول فصل الصيف للتدليل على مصيف جباع الجميل.

والواقع أن لغة حسن الأمين الأدبية باتت أكثر إشراقاً وأسلوبه جذاباً وتعابيره واضحة وصُوَرُهُ زاهية، كأنها لوحة فنيّة متناسقة جذابة الألوان.

«هنا الجمال الخالد يأخذ بمجامع القلوب ويملك الألباب فيقف المرء مبهوتاً حائراً أمام عظمة الخالق الديّان!!

أين الشعراء؟ هنا منزل وحيهم، ومهبط إلهامهم، فليستوْحوا هذه الخمائل الفينانة وهذه المنبطحات الخضر والمنعطفات النضر لأنها تنزل عليهم السحر حلالاً، وليصوغوا لنا قوافيهم من أغاريد هذه الطيور، ولفحات هذه الجداول، وحفيف هذه الأفنان وليعطّروا أبياتهم بشذا هذه النفحات، وعبير تلك النسمات!!!

جباع: يا منازل الخلد، ومرابع الحسن، يا بهجة النظر وصفوَ النفس! يا جنة الله في أرضه!

(14) مجلة العرفان، عدد أيار، 1932، ص116.

لن ننسى إقرارك عيوننا، وإنعاشك نفوسَنا، ولن يُمحى أثرُ رسمه جمالُكِ على صفحات قلوبنا!

فسلام عليك السلام على روابيك الزاهية، وعيونك الجارية، سلام على خمائلك الفينانة، ودوحاتك المظلالة، سلام على حدائقك الغنّاء، ومناظركِ الحسناء، سلام على الحَوْر والصفوف والملّول والسنديان، سلام على الكروم والدوالي»[15].

السيد حسن الأمين كتب في جباع نثراً كالشعر بصُوَرِهِ وإيحاءاته وبيانه نحسّ ونحن نقرؤه بصبا النسمات وشذا النفحات وعطر الأزهار وخرير المياه وزقزقة العصافير والخمائل الفينانة واللوحات المظلالة.

■ ■ ■

لم تشهد الفترة الممتدة بين تخرج السيد حسن الأمين من الجامعة سنة 1934 وارتحاله إلى العراق سنة 1938 أي نشاط أدبي يذكر باستثناء بعض قصائد، ويظهر أنها كانت فترة ضائعة مقصورة على المطالعات والنشاطات الاجتماعية تمهيداً لاتخاذ قرار باختيار ميدان العمل مستقبلاً.

في العام الدراسي سنة 1938: أمضى السيد حسن سنته الأولى في الحلّة مدرساً للأدب العربي والتاريخ الحديث والاقتصاد. وكانت من أمتع أيامه وأعذبها، مع أنها كانت المرة الأولى التي يتغرّب فيها عن الأهل والوطن، لكنه فوجىء في السنة الثانية بنقله إلى دار المعلمين الريفية التي تقع في منطقة (الرستمية) من ضواحي بغداد على ضفة نهر (ديالى)، وهي مدرسة للفقراء والقرويين الذين يتخرجون منها بعد أربع سنوات وتضمن لهم تعيينهم؛ وقد قضى هناك مدرساً ثلاث سنوات.

(15) مجلة **العرفان**، عدد أيار، 1934، ص127.

في مرحلة لاحقة عاد السيد حسن ثانية إلى العراق سنة 1945 أستاذاً للأدب العربي في جامعة بغداد كلية الملكة عالية للبنات حيث أمضى أربع سنوات.

اللافت في ترحاله إلى العراق أنه نشر مقالة أدبية واحدة في كل فترة وبمناسبتين مختلفتين:

الأولى (في ترحاله الأول) عند سماعه محطة الإذاعة اللبنانية.

والثانية: (في ترحاله الثاني) بمناسبة صدور ديوان شعري لبدر شاكر السيّاب.

في المرة الأولى كان في الحلّة وفوجىء ـ عندما فتح (الراديو) على بيروت ـ بصوت علي الحاج الشاعر الزجلي يصدح (عطشان وقلبي محروق) فأثار كوامن وجده وأوجاع غربته وحرّك أشواقه للوطن والأهل والمنزل والمرابع والديار: «ها هو الراديو يدار إلى بيروت لعلّ فيها الساعة تلك الألحان العربية التي تملك المشاعر. بيروت لقد طغى الوجد على القلب هذه العشيّة وثارت اللواعج في النفس هذا المساء فتطلّعت إليك بنفس منقبضة وقلب شجٍ، فهل عند شاطئك اللازوردي نسمة عطرة يرسلها على غارب الجو حاملة أدواء الفؤاد. لقد فاجأتنا بيروت مفاجأة سأظل أذكرها فهاهنا من وراء صحراء الشام، ومن بيد دونها بيد. هاهنا في (الحلّة) أسمع صوت علي الحاج، فهل كنت تدري يا علي الحاج أن وراء هذا الأفق البعيد إنساناً يحبّك؟ هل كنت تدري وأنت تتلو أنشودتك في بيروت إني كنت في الحلّة منكباً على الراديو يكاد قلبي يقفز من صدري»[16].

(16) حسن الأمين، من بلد إلى بلد، ص114.

في هذه المفاجأة قلب ظامىء يطلب الريّ، أنهكه البعاد وبرّحه الشوق، ومغترب قلق أتعبته الوحدة، وأرهقته الذكريات.

■ ■ ■

في معهد الملكة عالية في بغداد تتلمذ على حسن الأمين في الأدب طالبات كثيرات، «وقد شهدت تلك الفترة انطلاقة الشعر الحديث وبدء ظهور شعرائه نازك الملائكة وبدر شاكر السيّاب، وعبد الوهاب البيّاتي ولميعة عباس عمارة وبلند حيدري. وكانت نازك الملائكة قد تخرّجت من دار المعلمين العالية (كلية التربية) وبدأت التدريس الثانوي، وكانت ترسل قصائدها إلى مجلة أسبوعية تمنّعت عن نشرها، وكان حسن الأمين حاضراً ـ في زيارة لصاحب المجلة ـ عند ورود إحداها، فأخذها من مدير التحرير ـ الذي كان تمنّع عن نشرها ـ وأرسلها إلى مجلة **العرفان** التي نشرتها؛ وفوجئت الشاعرة بذلك وكان أول شعر ينشر لها؛ وكتب السيد حسن الأمين في المرة الثانية عندما نشر بدر شاكر السيّاب ديوانه **أزهار ذابلة** وممّا كتب معرّفاً ومحلّلاً: «ديوان شعر ملؤه غزل! غزل مبدع خالق لا يحاول أن يجري على سنن غيره ولا أن يحتطب من هاهنا وهاهنا، بل يغرس البذرة بيده ثم يتعهّد نبتةً غضّةً وزهرةً خضلة ثم ينشرها للناس عبيراً فوّاحاً. ويعرضها جمالاً جذاباً يغريك بالاستزادة من التطلّع والتأمّل.

غزل حيّ مشبوب يتحدث إليك حديث الروح للروح، حديث الجسد للجسد، حديث العاطفة للعاطفة لا حديث المادة للمادة، يحدثك عن القلب والضمير لا عن اليد واللسان عن اللواعج والهواجس لا عن النزوات والعربدات.

غزل وهّاج تشيع الظلال والألوان في كل مشرق من مشاهده، وصورةٍ من صُوَره، ألوانٌ وظلال انتزعها من احمرار الوردة واسمرار

الشفة وابيضاض الجبين ووضح الفم وتألّق القمر وتأجّج العاطفة.

كم كان موفّقاً في اختيار القصيدة الأولى في الديوان، وهي وحدها ديوان شعر يفيض بالأحاسيس والصور والعواطف، فكم هو عذبٌ رقيقٌ، وكم هو واقعيٌ صادق حين يصف العذارى وهنّ يقرأن ديوانه متسائلات عمّن يهوى؟ «كلٌ تقول من التي يهوى؟ ثم يقول:

ولـربـمـا قـرأتــه فـاتــنــتــي   فمضت تقول: مَنِ التي يهوى؟!

أحسست في قوله: كلٌ تقول من التي يهوى؛ صوراً زاخرة بشتّى الأفكار والأخيلة، صورة تتمثّل فيها الحرقة والأمل المكبوت، والغضب العاصف، والتأنيب المرّ، كلّ واحدة تقول وهي تقرأ الديوان من التي يهوى؟ وفي قول كل واحدة منهن تتمثّل نيّة الأخرى وفكرتها وصورتُها، وهكذا يجمع هذا الشطر مشاهد شتّى من العواطف الإنسانية ويبلغ الذروة حين يتحدث عن فاتنته وهي الأخرى تمضي وتقول من التي يهوى؟

هذه كلمة سريعة في هذا الديوان أقولها وأنا موقنٌ مع الموقنين بأن لكل مسمّى نصيباً من اسمه، وهذا السيّاب قد ولد في أفق الشعر أول ما ولد (بدراً) وأنه شذّ عن السنن الطبيعية فلم يبدأ هلالاً ثم تدرّج إلى البدرية، لقد رأينا هذا الشاعر أول ما رأيناه بدراً كاملاً»[17]!

هذا المقال الذي كتب في أواخر الأربعينيات ومع أولى محاولات كتابة الشعر الحديث، جديرٌ بأن يكون مقدمة للديوان بتحليلاته وأسلوبه ولغته وتعليقاته ولا عجب فقد كتبه أستاذ أديب لشاعر ناشىء.

■ ■ ■

أقام حسن الأمين في ارتحاله الثاني إلى العراق أربع سنوات، زار

(17) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص196.

فيها الكثير من المدن والأرياف، وشاهد الرافدَيْن من ملتقاهما حتى مصبّهما، وكانت هذه الفترة «أزهر صفحة في دهره، وأنضر صورة في ذهنه، وأجمل مشهد في نفسه، وعندما مشى يعاود قطع الصحراء آيباً، وتناءت عن عينيه مشاهد العراق وغابت معالم السهول والجبال واحْتَوَتْهُ الصحراء بوحشتها تلفّتَ إلى الوراء منشداً:

تلفَّتُ حتى لم يبِنْ من بلادكمْ دخـانٌ ولا مـن نـارهـنَّ وقـودُ

ولو قال لي الغادون ما أنت مُشْتَهٍ؟ غداةَ جزعنا الرمل ـ قلت أعودُ

هو يقف الموقف الذي وقفه بالأمس عندما هجر الشام وأمَّ العراق، وها هو اليوم يهجر العراق ويؤمّ الشام، «لا يكاد يدري أين ترابه؟ أفي قمم قاسيون وذروات لبنان وسهول الغوطة أم هو في قمم (حمرين) وسهل الرافدين؟ وإذا به لا يكاد يعلم أين أهله وصحبه أعلى ضفاف الليطاني وبردى أم على ضفاف الفراتين «وإذا ما حنّ الناس إلى أرضهم وأهلهم يحن إلى أرضين وأهلين، وإذا ما اشتاقوا بلادهم وقومهم، اشتقْتُ بلادين وأهلين»[18].

حسن الأمين أضحى في هذه الفترة موزع القلب بين بغداد ودمشق وبيروت، كلها غدت وطنه، فإذا حلّ وأقام في أي منها تنازعه حبٌّ غامر للآخرين، فإذا ودّع يحزن، وإذا قدِم لا يفرح، كأنّما كُتب عليه أن يبقى في شوق مشتعل للأرض والديار والأهل والأصحاب في هذه الأوطان التي غدت موحّدة ومتباعدة في آن واحد!!.

(18) حسن الأمين، من بلد إلى بلد، ص117.

كتب يصف وداعه للعراق:

«لقد غابت بغداد عن عيني ولكن بغداد **لا تغيب عن نفسي** فلا أزال أرى دجلة متدفقاً بين الرياض والمروج، ولا أزال أبصر نخيلها متمايلاً مع النسائم والأرواح، ولا تزال صورها الحلوة **تتعاقب في خاطري** غضّة طريّة الألوان.

لقد انطوى العراق عن ناظري، ولكن **العراق لا ينطوي من ذهني** فلا أزال أشاهده ناضر الصفحة زاهر الجبين إلخ، لقد بعُد العراق عن بصري ولكن العراق **لن يبعد عن قلبي**»(19).

هذا الارتباط المقدّس بين الإنسان والمحيط يحفر عميقاً في الذات، ويمثّل بذكرياته نوعاً من الإمساك بالزمان وسكبه على المكان، حين يغدو الزمن مختصراً في حادثة جرت في موقع محدّد، ويندغم عندها كلاهما (الموقع والحادثة) في ذات الإنسان! وبهذا المفهوم صوّر شوقي مدارج الصبا ومرابع الهوى بين قيس وليلى على منحنيات جبل التوباد.

ما لأحجاركَ صُمّاً كلّما ... هاجَ بي الشوقُ أبتْ أن تسمعا؟!

هذه الربوةُ كانت ملعباً ... لشبابيْنا، وكانت مرتعا!

كلّما جئتكَ راجَعْتُ الصِّبا ... فَأَبَتْ أيّامُهُ أن ترجعا

قد يهونُ العمر إلا ساعة ... وتهون الأرض إلا موضعا

حسن الأمين لم تغبْ بغدادُ عن نفسه، ولا غابَتْ صُوَرُها عن خاطره، ولا انطوى العراق عن بصيرته ولا بَعُدَ عن قلبه! هذا الطراز من حب

(19) حسن الأمين، من بلد إلى بلد، ص117.

الإنسان للأرض هو مرض، لكنه مرض حميد، متعب ولذيذ، موجع ومفرح، نُصاب به ونتمنّاه وإذا وقعنا فيه لا نقلق ولا نخاف!!

■ ■ ■

ورجع حسن الأمين ـ بعد أن ترك التعليم في أواخر الأربعينيّات ـ من العراق واستقرّ نهائياً في بيروت، وانصرف إلى الكتابة والتأليف، واستمرت **العرفان** المجلّة الأثيرة لنشر مقالاته ـ التي كان يكتبها في أوقات متباينة ـ بالإضافة إلى بعض الصحف العربية والدّوريّات.

الجدير بالملاحظة أن السيد حسن تفرّغ للكتابة التاريخيّة وللتأليف الموسوعي وكان في معرض قراءاته وتحقيقاته يعرّج على كتابة الأبحاث الأدبيّة حتى إذا أصبحت كَمّاً جمعها في كتاب قال في مقدمته: «هذه بحوث نشرت في الصحف العربية في أوقات متباينة، وظروف متباعدة، جمع ما بينها أنها من تاريخ هذه الأمة في الصميم، سواء كانت بحوثاً في التاريخ أو بحوثاً في الأدب، **ولم أشأ أن أفصل فيها بين ما هو تاريخي بحت أو أدبي بحت ليقيني بارتباط الاثنين وتمازج النوعين**. وبعد أن نشرتها فصولاً متفرّقة، رأيت أن أؤلّف بينها في إضمامةٍ واحدة، إذا تنوّعت أغصانها وتلوّنت أفنانها، فستظلّ من روضٍ متكاملٍ وحقل متماسك، لا يعدو تاريخ العرب وأدب العرب، وحسبي بالعرب محتداً يمدّ بكلّ كريم ويرفدُ بكل طيب»[20].

كما نشر السيد حسن الأمين مقالاتٍ في مجلة (العربي) الكويتيّة التي بدأت بالصدور سنة 1957 في مطلع كل شهر، وبلغت مقالاته

(20) حسن الأمين، **قيم خالدة في التاريخ والأدب**، دار التراث الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1974، ص3.

العشرين كان أولها في عدد آذار سنة 1964 (عن معركة عين جالوت) وآخرها في عدد أيلول سنة 1995 (عن صلاح الدين الأيوبي نظرة مغايرة).

الأمر اللافت أنك وأنت تواكب السيد حسن، تلاحظ أن الحدث التاريخي يظلّ النقطة المركزية التي يدور حولها الموضوع الأدبي؛ وربما كانت ثقافته الواسعة، والعلاقة الحميمة بين الأدب والتاريخ، ووعيه العميق للتلازم بينهما هي التي طبعت أدبه بهذا اللون وجعلته **مؤرخاً بين الأدباء وأديباً بين المؤرخين**.

ب ــ حسن الأمين الشاعر

I ـ المحاولات الأولى

«في بيئة اعتبر فيها العلم نوراً، والجهل ناراً، والثقافة غنى للروح وزاداً للعقل، ولد السيد حسن الأمين، وترعرع، وكبر، وأنتج، فكان الوريث لفضائلها بامتياز»[21]. بهذه الكلمات تولّت إلهام كلاّب البساط بصفتها عريفة الاحتفال الذي أقامته حلقة الحوار الثقافي تقديم السيد حسن الأمين.

وفي الاحتفال نفسه قال أحد الخطباء: «في ولادته يطل أبٌ كبير غارقٌ في البحث والكتابة والقيادة والإصلاح، ومنزل متواضع يرمي عليه الإيمان برسالة بُعداً شاهقاً من الكبر والمعرفة والكفاح والزهد والتجرد، قيم البيت طبعته فأعطته ثوابت تصرفه الأدبية والفكريّة فتجذّر في بيته

(21) حلقة حفلة تكريمية للسيد حسن الأمين في قاعة نزار الزين، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب بتاريخ 20/ 6/ 2004.

وأهله ووطنه، وقضاياه قضايا الحرية والاستقلال»[22].

وبيت السيد محسن الأمين كان بيتاً مفتوحاً لكل الناس، ومدرسة يؤمّها الكبار مع أبنائهم ليتعلموا الدين والفقه والأدب واللغة والاجتماع، وفي هذا المحيط وُلد حسن وإخوته وتربّوا وتعلموا واكتسبوا وقبل كل ذلك ورثوا موفوراً من المواهب والإمكانات، ولدوا ودرجوا ووعوا طفولتهم وهم يرون الأدباء، ويسمعون الشعراء، ويشهدون العلماء في مجالس الأدب وندوات الثقافة معقودة عند والدهم حول سماور الشاي.

كان الصغار ـ حسن وأخوته ـ يحفظون غيباً الكثير من الأشعار حتى قبل دخول المدرسة، ـ شأن بيوت العلماء ـ الأشعار التي تتناسب مع البيئة والتاريخ وتدور حول النبي وآل البيت. وهي من (حواضر) البيت، حتى إذا كبروا قليلاً كانوا يستظهرون كَمّاً كبيراً من الشعر ثم لا نلبث أن نراهم مع تقدم سنهم وفي مطلع شبابهم ينطقون بالشعر إذا حرّكهم الهوى أو هزّهم موقف مؤثّر.

حسن الأمين ذكر أن «الاحتفال الذي حضره على ضريح يوسف العظمة وكان في السادسة عشرة من عمره في 24 تموز 1924 أثّر في نفسه إلى حد أنطقه لأول مرة بالشعر»[23] (سلاماً أيها الثاوي سلاماً). وبعد ذلك يورد أنه في إحدى السنين نظم **قصيدة** ودّع بها البيادر ووقف على أكوام القمح وآثار الخيام، ولا يذكر منها سوى بيتين مع أنها من شعر الصبا غير الناضج:

(22) من كلمة الأباتي يوسف مونس منشورة في كتاب جلال شريم **حسن الأمين مواجهة مع التاريخ**، مكتبة الفقيه، 2004، ص165.

(23) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص53، (لا يورد سوى هذا الصدر من الشعر).

خلتِ البيادر بعد طول عجيجِ ومحتْ بها الأيامُ كلَّ ضجيج
لا سامرُ الأحباب ثمّة سامرٌ أنساً ولا ليل الهوى ببهيج[24]

في السنة الدراسية الأولى لدخوله الجامعة 1931 شارك مع رفاقه في مظاهرات، احتجاجاً على إجراء الانتخابات «تمهيداً لتزويرها وإخراج مجلس نيابي مطواع» وجرى صدام عنيف مع السلطة المنتدبة، وسقط قتلى وجرحى ونظم قصيدة صوّر فيها ما حدث إذ «اعتبر هذه المناسبة من أغلى مناسبات حياته:

...ولربّ طاوية على أشجانها وارتْ يداها في التراب وحيدا
دفعت بفلذتها لمعترك اللظى وأبت عليه أن يعود طريدا
أبُنَيَّ دافعْ عن بلادك إنه ليقرُّ عيني أن أراك شهيدا
إحملْ على النيران حملة ضيغمٍ واستقبلِ الخصمَ الشديدَ شديدا»[25]!!

شِعْرُ السيد حسن في هذه الفترة ثوري حماسي متناسب مع عمره في غليان الشعور وتمرد الشباب

سنقلب هذه الدنيا فنجعلُ بطنها ظهرا!
سنملأ من جنود العُرْب منها السهل والوعرا
سنملك ـ بعد تشريدٍ وترويعٍ ـ بها الأمرا
سنخضبُ من دم الإفرنج منها البرَّ والبحرا
سنملأها بنا عدلاً كما مُلئتْ بهم جوْرا
سنطلع من بريق البيض في ليل الدجى فجرا

(24) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص77.

(25) المرجع نفسه، ص123.

سنجعلها على ظلم الفرنجة ثورةً حمرا...[26]

هذه الأبيات السبعة الحماسيّة المندفعة تمثّل نزق الشباب الذي لا يعرف حدوداً، واندفاعهم المتهوّر الذي يتوهّم أن كل أحلامهم قابلة للتحقيق، وهذه (السينات) في أول كل بيت ربما تصلح لإثارة الناس، وإلهاب حماستهم في المواقف الخطابيّة، لكنها في حساب المنطق، وتحكيم العقل ليست سوى صراخٍ واحتجاج، تعبيراً عن غليان داخلي، ومراهقة سياسية غير محمودة العواقب، لكننا عندما نضعها في زمانها وإطارها المكاني، وتطلّعات ناسها، وأعمار المشاركين فيها نعطيها الأسباب التخفيفيّة وربما نتفهّم مجريات أحداثها.

حسن الأمين كان طالباً في كلية الحقوق في الجامعة السورية، عندما زار الشاعر المصري أحمد رامي دمشق، حيث أقيمت له حفلات تكريم، رآها الطالب مناسبةً للتنفيس عن الآلام، وعرض معاناة الحاضر، واستثارة المشاعر بأمجاد الماضي، وحسن الأمين قد صلب عودُه **وتماسك شِعرُه، ووضحت صُوَرُهُ، وَحَسُنَتْ معانيه، وعظمت تطلّعاته،** فوقف يدعو لوحدة الموقف بين البلدين، وللتعاون والتآزر، لاستعادة بعض الأشراق من الماضي:

يا نازلاً والشعر يعبق نَشْرُهُ ... من رُدْنِهِ، فتهزّنا نفحاتُهُ

بردى وأيّ تحيةٍ مِسْكيَّةٍ ... بَعَثَتْ إليكَ مع الصَّبا ضفَّاتُهُ

حنّتْ خمائلُهُ إليك تشوّقاً ... وحَنَتْ عليك - بِظلِّها - دَوْحاتُهُ

غنّيْتُهُ الشعرَ الطروبَ فصفّقتْ ... أمواهُهُ، وتأرّجَتْ نسماتُهُ

(26) حسن الأمين، حل وترحال، ص127.

إنـزلْ بـضـفّـتـه وَرَجِّـعْ مُـنـشـداً شعراً، تهيجُ قلوبَنا نغماتُهُ
حدّثْ عن النيل الشقيق، فنيلكمْ تـشـتـاقـه، وتـحـبّـه أخـواتُـهُ
مـا بـالـه يـجـفـو الـعروبة إنـهـا تدمي قلوبَ بني أبيه جفاتُه؟
واليوم، تُغزى أرضُهُ من بعدِما بلغتْ أقاصي المغربيْن غُزاتُهُ!!
يا ويح قلبي كم يكابد حسرةً حتـى تـكـاد تُـذيـبـه حـسـراتُـهُ
أتـرى تـعـود لـيـعربٍ أمجادها؟! ويعودُ فيها مُلْكُها وبُناتُهُ؟![27]

■ ■ ■

وانتهت سنوات الدراسة في معهد الحقوق سنة 1934، وخرج الرفاق إلى الحياة العامة يكافحون الزمن وصروفه وأحداثه، ومن قصيدة نظمها بهذه المناسبة مودعاً عهد الدراسة:

حسبي وحسبك ما لقيتُ وما بي فـلـقـد أذبتُ فـتـوّتـي وشـبـابـي
عـلّـقـت آرابـي عـلـيـك ولا أرى أنـي سـأظـفـر مـنـك بـالآراب
وسهرت فيك الليل أجرع دونه مرَّ العذاب، وما سواك عذابي!!
. . . اليوم (لا فحصٌ) نبيت لأجله متقلّبين على الغضا اللهّاب
والـيوم ودّعـنـا الـدروس فحسرة لـمـودّعٍ لا يـرتـجـي لإيـاب!
لهفي على تلك العهود فليتها عادت بما فيها من الأوصاب!!
إنـي لأذكـرهـا وأذكـر عـنـدهـا خير الرفاق وأفضل الأصحاب
أيام تجمعنا على صَفْوِ الهوى متـآلـفـيـن، شـمـائـلُ الأحـبـاب
ولّـت لـيـالـي الامـتـحـان وأقـفـرت تلك الملاعبُ من جموع صحابي

(27) حسن الأمين، حل وترحال، ص129.

لا الدار بعدهُم تلذّ لسامرٍ فيها، ولا تحلو الرياضُ لصابي!![28]

إنّه وداعٌ للدراسة والصفوف لا لقاء بعده، وتفرُّقٌ بعد سنوات حافلة بالذكريات، جمعت الرفاق جنباً إلى جنب، كانت أياماً فيها كثير من المرارة والعذاب، وفيها كثير من الصفاء والإلفة. ها هي قد انقضت وأخذت معها هواجس الامتحان وسهر الليالي، وأقفرت الملاعب والديار ولم تعد تبعث الأنس، وتحضن المسرّات، فالأحبّة تفرقوا، والسمّار رحلوا، والحياة فقدت نبض حركتها وطيب حيويّتها.

■ ■ ■

وكان لتخرج حسن الأمين من الجامعة سنة 1934 صداه الكبير في المقلب الآخر، في جبل عامل، فأقيمت له حفلة في بلدته شقرا، توافد إليها الناس من مختلف المناطق، وبينهم بعض رجال الدين وقليل من الزعماء، نظراً لأن (حسن الأمين) كانت تربطه علاقة حميمة بمجموعة من الشباب، أخذوا على عاتقهم التصدّي للزعامات السياسية ـ المرتبطة أو القريبة من سلطة الانتداب ـ وللمتحالفين معها من علماء الدين، وكانت في هذه الفترة تخوض معارك معهم تميّزت بالحدّة والعنف، وصلت إلى (التكفير) وهدر الدم، وقد نظّم الدرك في حينه تقريراً رفع إلى السلطة بما جرى في الاحتفال وما تخلّله من انتقادات واتهامات للسلطة وللسياسيين ولرجال الدين[29].

كانت السنوات الأربع بعد تخرج السيد حسن الأمين من كلية

(28) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص130 ـ 131.

(29) وثيقة CADN (Centre des Archives Diplomatiques de Nantes) 1875 (29 juin - 4 Août) 34.

الحقوق فترةً ضائعة، لم أعثر له فيها إلا على قصيدة واحدة نشرتها مجلة **العرفان** سنة 1937 وقد أرسلت لها من دمشق. يدعو فيها صديقاً له ـ اسمه أنور ـ أن يبتسم للزمان، وينصحه أن يكون جلوداً، صابراً، يهزأ من غدر الأيام. ومن المفارقات أنه ـ هو شخصياً ـ يختم قصيدته بالشكوى من الزمان، ويخبره أن أوجاعه، وأحزانه، أعيت الطبيب، وأن سواد الليل يلهب جراحه، وأنه قد رضي بنصيبه من الحياة، وهو عبارة عن الأشجان والمتاعب والآلام. في هذا الموقف كان شاعرنا **ـ وهو في ريعان الشباب ـ** كالطبيب الذي يداوي الناس وهو عليل:

رأيتكَ ترسلُ الشعر الكئيبا ... وتنشدنا التوجّع والنحيبا
فلم أملك لدمعك دمعَ عيني ... ولا قلبي لشجوكَ أن يذوبا
(أنورُ) والزمان بُكاً وضحكٌ ... تبسَّمْ للزمان وكن طروبا!
تبسم للحياة بحالتيْها ... وخلِّ الشجوَ، واطْرح الكروبا
بعثتَ لنا القوافي رائعاتٍ ... تثير بنا الصبابةَ والوجيبا
أمنْ حُور العيون قَبَسْتَ سحراً ... ومن ورد الخدود لَمَمْتَ طيبا؟
فكانت منك أبياتاً عذاباً ... تجيد بها التغزّل والنسيبا
وكنتَ الناي يُشجينا غناهُ ... إذا غنّى وكنتَ العندليبا!

■ ■ ■

دعوتُكَ للسرور وفي فؤادي ... **من الأشجان ما أعيا الطبيبا!!**
وجرحٌ في حنايا النفس يذكي ... ـ إذا جنَّ الدجى ـ فيها لهيبا!!
نصيبي في الحياة شجىً مُلحٌ ... وحسبي قد رضيت بها نصيبا!!

إذا قطع الأنام الدهرَ صفواً قطعنا دهرنا رَنَقاً عصيبا[30]!!

وجه الغرابة، أن السيد حسن الأمين، هو نفسه بحاجة إلى التجلّد والصبر، وأنه راح يُظهر التجلّد ويطلب من صديقه أن يبتسم، ويتناسى الكروب والأشجان، ولا أدري إذا كان طبّق هذه النظرة على نفسه، ورضخ لنصيبه من الدنيا؛ أم أنه يقول شيئاً ويفعل ضدّه، ويكابر بعد ذلك ويرسل النصائح!!

II ـ مواضيع شعره

1 ـ الوطنيات

حفلت قصائد السيد حسن بمختلف المواضيع، لأنها جاءت سجلاً صادقاً لحياته، وصورة نابضةً لمشاعره، تحسّ وأنت تتلوها بحرّ أنفاسه، وحرارة قلبه، واضطراب أحاسيسه، فإذا وقف على شط الفرات أو دجلة، بين النخيل والرياض والبساتين، تذكر بردى وخمائله وجنائنه، وإذا أنس بتدفق مائه، حنّ لماء البركتين في شقرا وشجرات الرند، كلُّ الأماكن تستدعي في خاطره أماكن أخرى، وتجعله موزّع الفؤاد، مشتّت البال، مشطور الذات، قلقاً، حائراً، فلا العراق يُغنيه عن الشام، ولا دمشق تنسيه جبل عامل، ولا شقراء تسلوه عن بغداد!

يا شطَّ دجلة ـ والذكرى تؤرّقنا قد طال فيكَ على أشواقنا الأمدُ

هل في ظلالك للأشواق مطّرحٌ؟ أم في ضفافك للحرّانِ مبترَدُ؟

ضاقتْ عليَّ سهولُ الرافدَيْن جوىً ـ بعد الأحبّة ـ والآكامُ والنُّجُدُ!!

(30) مجلة العرفان، عدد حزيران، 1937، ص295.

واستوحش الشطُّ لا تروي مناهلُه قلباً يلوبُ، ونفساً كاللظى تَقِدُ[31]!!

كان في بغداد عندما جلا الفرنسيون عن لبنان، ورحلت جيوشهم، واسترجع في خاطره كيف دخلوا بالأمس منتصرين، منتشين بزهوهم، وقد أذكوا الحرائق في دمشق، وزرعوا الموت في ميسلون:

...والبيضُ مرهفةٌ والخيلُ مرسلة والجند سادرة في الهَوْل تقتتل

وللقواذف أنّى ترتمي حممٌ وللمدافع أنّى تنتحي (شُعَلُ)

وقد صمدنا لهم في الروع لا خوَرٌ عند اللقاء ولا جبنٌ ولا وَجَلُ

فاليوم تهتف والدنيا مهلّلةٌ يا للبشائر إن القوم قد رحلوا!!!

هو بعيد عن المشاركة في هذه الفرحة، يتمنّى ولو كان في الوطن لتشهد عيناه هذا المهرجان الوطني:

يا ساري الريح والأفراح قائمةٌ ماذاوراءك؟كيف الصحب؟ مافعلوا؟

عُجْ بالرياض التي طابت مطالعها ولذَّ للعين منها مربعٌ خضلُ

واحمل إلينا من الذروات نافحةً تُروى بعاطرها الأشواقُ والغللُ

كيف الأحبّة في الوادي وسامُرُهُمْ كيف الشواطىءُ والكثبانُ والقللُ

إنا لنذكرهم والشوق مضطرم والقلب مضطربٌ والدمع منهمل[32]

وكذلك كان في بغداد سنة 1948، وتتابعت أخبار معارك العرب في فلسطين مع الصهاينة، كما تتابعت أخبار الحماسة السورية، وكانت النفوس تفور بالأمل وتتفجّر بالعزائم، فكانت قصيدة منها هذه الأبيات:

يا ليتني في الشام أرتاد الذرى وأهيم في الأجزاع والأسناد

(31) حسن الأمين، حل وترحال، ص231.

(32) المرجع نفسه، ص242 ـ 243.

أستاف عُرف أحبتي وأراهُمُ — متسابقين لغارةٍ وطراد

وأشارك الغازين فيها غزوةً — عربيّة الإصدار والإيراد

أغدو على الثكنات ثمَّ مصاولاً — وأروح بين الخيل والأجناد

يا ثائراً بالنار يحمي أرضه — ويذبّ عنها - جاهداً - ويفادي

أنشدتني لحن الرصاص، وربما — أشجاك في ليل الوغى إنشادي!

قد صُغْتُ فيك الشعر حرّاً ثائراً — يذكي الجبان ويستهيج الهادي

أرنو إليك، فمن لظاك قصائدي — نُظمتْ، ومِنْ قاني دماك مدادي

قل للغفاة عن القتال، ألَمْ ترَوا — ماذا يراوح (قُدْسُكُمْ) ويغادي؟!

يا نائمين على الحرير وما درَوْا — أنّا ننام على فراش قتاد!![33]

■ ■ ■

وكان حسن الأمين في باريس عندما ذاع أن العرب كسروا احتكار السلاح، وأنهم اشتروه من الشرق بعد أن منعه عنهم الغرب، وأن وفداً غربياً، جاء يعالج الأمر ويسأل العرب: ماذا يريدون؟ وأن الغرب في ضجةٍ من هذا الأمر.

يستفهمون وقد بُحّت حناجرهم — ويسألون وقد أعيوا وقد تعبوا

ما تطلبون؟ وقد كنا نطالبهم — حتى مللنا، وحتى ملّنا الطلب

تلك (اللقيطة) شدتم من دعائمها — حتى استقامت على أجداثنا القبب

هذه حرابكمُ منها، هُمُ طعنوا — وذي سيوفكمُ منها هُمُ ضَرَبوا

النار في شرفات القدس لاهبةٌ — وفي شوارع حيفا القتل والسلب

دورُ الأعزّة في يافا وفي صفد — ذلّتْ لفاتحها الأطلال والخربُ

---

(33) حسن الأمين، حل وترحال، ص244.

في دير ياسين ثأر لا تنام له ... منا العيون، ولا يُنسى له طلب

عزلاً نقابل بالأجساد ناركُمُ ... لا الصبرُ يعصمها منكم ولا الهرب

ثاراتُنا الحمر فيكم كاللظى حنقاً ... وحقدنا المرّ كالبركان يلتهب

هبّت على النخوات الحمر ثائرة ... وجلجل البأس فيها والتظى الغضب

وماجتِ البيد بالتكبير وانطلقتْ ... بعد الهوان إلى ثاراتها العرب[34]

كان حسن الأمين يتمنّى أن لو قيّض له أن يكتب عن انتصار عربي في فلسطين، كان يستشرف في انتفاضة الحجارة بدايةً لعهد جديد، كان يحلم ويتحرّق أن يرى أفقاً آخر، وقبل أشهر من رحيله، وفي احتفال تكريمه في قاعة نزار الزين في الجامعة اللبنانية في 20 حزيران سنة 2002 وقف شاكراً قائلاً: «نحن نقيم حفلنا هذا في وقت يتردد به في نفوسنا، وفي أسماعنا، صوتُ إخواننا الذين يُذبحون في فلسطين ويُهانون ويُذلُّون في أمّة أَلِفَتِ الهوان واستطابته، نحن لن نيأس، نحن مؤمنون أن النصر لنا، وإن ما يراق من دماء وما يعاني الناس من مذلّة، وهوان، هو شيء مرَّ في تاريخنا وفي تاريخ غيرنا، لقد هوجمنا في الغزوات المغولية التي كانت أقسى من هذه الغزوات، كان يقال إن الشعب المغلوب يتأثر بالغالب، وإذا بالمغول الغالبين يتأثرون بالشعب المغلوب، فينتهي أمرهم إلى أن يسلموا»[35].

2 ـ الوجدانيات ـ الوفاء والحنين

لو طلب إلى حسن الأمين أن يصوّر نفسه، ويحدد مطامحه، ويعبّر

(34) حسن الأمين، **من بلد إلى بلد**، ص352.

(35) حسن الأمين، **دائرة المعارف الإسلامية**، ج26، ص331.

عن مشاعره، لما وجد خيراً من هذه الأبيات التي اختصر فيها ذاته:

أنا ذلك العربيّ ملءَ جوانحي ... شِيَمُ الصحارى، نجدةً وغراما
أهوى الزمان قصائداً عربيّةً ... وأرى الحياة حبيبةً وحُساما
غنيتُ آفاقَ الجمال ملاحنِي ... وسكبْتُ روحي في الهوى أنغاما
أهفو لدجلة في الشآم وطالما ... ناجى الفؤاد على الفرات الشّاما[36]!

إنه ابن هذه الأمة العربية التي انطلقت من الصحراء حاملة رسالة إنسانية عظيمة، ناشرة فضائل الكرم والمروءة والشجاعة والفروسيّة والنجدة وغوث الطريد، والمحافظة على الجار، والوفاء للعهود، ومجانبة الغدر والالتزام بالأخلاق، وما تمثّله المواقف النبيلة!! إن شيم الصحارى تمثّل كلَّ هذه الشمائل التي طالما تغنّى بها الشعراء، وراحوا يصوغونها شعراً، ويسكبونها أحاسيس، ويغنّونها أناشيد، تتردد أصداؤها، وتتجاذب في الأبعاد، وعبر الأزمان، لكنَّ وجه الغرابة أن حسن الأمين لم يكن فارس قتال يخوض المعارك وغمرات الحروب، ولا عاش عمره حباً وهناء حتى يغنّي آفاق الجمال ألحاناً ويسكب روحه أنغاماً، من أجل ذلك يطالعنا في قصائده أسىً مقيم، وحزنٌ موجع، ولولا فسحات مرت مسرعة في عمره أحسّ خلالها بألق السعادة، وأنسِ الرفيق لما وقعنا في شعره على غزل نديّ ولمحاتٍ من الرّغد البهيّ! وعند حسن الأمين كان الوفاء التزاماً في سلوكه، ونهجاً في حياته، وفضيلة لازمته، وتجلّت في علاقاته بالناس والأمكنة:

وفيْنا، وإن كان الوفاء عذابا ... ألا ضلَّ من خان العهود وخابا!!!
أنبعَ الصفاء الثرّ لا زلت دافقاً ... تفيض فتوناً في الهوى وشبابا

(36) حسن الأمين، **من بلد إلى بلد**، ص355.

ستـرعـاك يـا نـبـع الـصـفـاء أحبَّةٌ وفـيِّـيْـن - إن لانَ الأنـام - صـلابـا
فـلا تـذكـر الـغَـدْرَ الـمـمضَّ فـربـمـا لقيتُ من الوافين فيك عجابا
سلامٌ على الينبوع ما جفّ ماؤه ولـذَّ عـلـى وِرْدِ الـهـيـام وطـابـا
وإن ينضب الينبوع يوماً فإننا سنرويه من ماء الوفاء عبابا[37]

هذا الوفاء الذي لازمه طيلة حياته كثيراً ما بان وهو يتحدث عن والده، كان وفاءً يطلّ من رقّة الكلمات، ونبرة الصوت وتعابير الوجه، وترقرق الدمع في الأحداق، وحتى عندما كان في باريس **وبين كل ما فيها ومَنْ فيها** خاطب والده:

فيا نائياً لم يُنسني النأيُ طلعةً تفيض بها النُعمى، ويزكو بها السَّعْدُ!
ويا غائباً ما غبتَ عنّيَ ساعةً ولا انطوتِ الذكرى ولا انصرمَ العهدُ
حرامٌ على قلبي السرور وإنما يطيبُ له من بعدك الهمُّ والسّهد!!
ويا جدثاً في الشام أنت لي الهوى وأنت ليَ النجوى، وأنت لي القصد[38]

وبين حسن الأمين العراق رابطة امتدت عميقاً في ذاته، وأقامت بين حنايا الضلوع، كانت مثالاً لعلاقة الإنسان بالمكان، حيث تتواصل وتتشابك أرقّ العواطف، وأزهى اللقاءات، وأجمل الذكريات، ذلك المكان الذي يستودع فيه الإنسان ساعات أو أياماً أو أشهراً أو سنوات لا تُنسى، يحفظها في خاطره محطة عزيزةً لزمان من العمر مسكوبٍ على مكانٍ معيَّن من الأرض، وقد قضى حسن الأمين سنواتٍ في العراق فأحبَّه طبيعةً وأنهاراً، خمائل ونخيلاً، مُقاماً وناساً، وصوَّر مشاعره وحنينه

(37) حسن الأمين، من بلد إلى بلد، ص341.

(38) المرجع نفسه، ص326.

وأشواقه، ودنيا الصحراء، والرياض الغنّاء، وواحات النخيل وشطّ دجلة وضفاف الفرات، وقمر الليل، وأيام الرستميّة والحلّة وبعقوبة وبغداد:

يا نخلَ دجلةَ والفراتِ لكم هفوْتُ إلى لقاكْ!

وتطلّعت نفسي إليك لعلّها يوماً تراكْ!

يا نخلَ دجلة ما نسيتُ على الندى أبداً هواكْ![39]

وعندما قرّر ترك العراق بعد أعوام ثمانية ـ كانت من أزهى فترات عمره وأحلاها ـ أحسَّ أن العراق أمسى في دمه وقلبه وكيانه، وأنه في موقفه الصعب، لم يستطع أن يحبس دموعه بعد أن فَقَد تجلّده وصبره، هاهو يحاول أن يقنع نفسه أمام هذا الضعف غير المعتاد:

إني عهدتُكَ في النوى متجلّدا ... هيهاتِ هذا اليوم أن تتجلّدا

أَرِقِ الدموعَ! فلستَ أوّلَ شاعرٍ ... يبكي الأحبَّة والديارَ توجُّدا

لمنِ الدموعُ تصونُها إن لم تكنْ ... لفراقهم؟! ولمن تجودُ بها غدا؟!

. . . قل للأحبّة ـ والديارُ بعيدةٌ ـ ... هيهات قلبيَ بعدكمْ أن يسعدا!!

هذا الفؤاد المستهام بحبّكمْ ... هيهات يُخمد حبَّه إلا الرّدى!!

بيني وبينكُمُ البحارُ قصيَّة ... ما أطولَ المسرى - عليَّ - وأبعدا!

ما زلتمُ أدنى إليَّ ولم تزلْ ... أيامُكمْ أهنا - لديَّ - وأرغدا

تلك الشواطىء ما نسيت عهودها ... تلك الخمائل، ما جحدت لها يدا!!

سأظلّ بالنخل النضير متيَّماً ... سيظل قلبي في الهوى «متبغّدا»[40]

هذه (العراقيّات) في الحنين والوفاء، تقابلها (دمشقيّاتٌ) كذلك،

---

(39) حسن الأمين، من بلد إلى بلد، ص351.

(40) المرجع نفسه، ص312.

فكلٌ من العاصمتيْن لها مقامها الأثير في قلبه، لقد تقاسمتاه، وكان سعيداً بهذا الشعور ولم يبخلْ يوماً على أيٍ منهما بالتغنّي بهذا الحب:

. . . يا نسمة الشام الحبيبة هدهدي روحاً بصالية الجوى تتحرق

أنا في هواي بجلقٍ «متبغددٌ» وعلى الفرات ودجلةٍ «مُتَدمْشق»

يا نسمة الشام الحبيبة علّلي قلباً على الوجد المبرّح يخفق

يرنو إليك وشوقهُ متضرّمٌ ملءَ الضلوع ودمعُهُ مترقرق

هبّي عليَّ من الجبال لعلّني أستاف عُرفَ الظاعنين وأنشقُ

الواردي الماءَ الفراتَ وما دروا أنا نغصُّ على الفرات ونشرق

والعاتبين وما دروا أنّا لهمْ أوفى على العهد القديم وأوثقُ[41]

وكما ظلّت دمشق - وهو في العراق - في باله، فإن (شقراء) ومرابعها، وأشجار الزيتون والملّول، بقيت كذلك تطلّ معهما عبر الذكريات:

يا نازلين على الشآم وإنكم بين الجوانح في الفؤاد نُزولُ

ما لذّ وِردٌ للمشوق ولا ارتوى من بعدكمْ للمستهام غليلُ

يهتاجه الزهرُ النضيرُ إليكمُ ويهزُّهُ في الرافديْن نخيل

إني ليُصبيني الخزامُ على النوى ويشوقني الزيتون والملّول[42]

■ ■ ■

(41) حسن الأمين، من بلد إلى بلد، ص347.

(42) المرجع نفسه، ص348.

في أول عيد أطلّ على حسن الأمين مغترباً في العراق، كان حديث العهد في ارتحاله، فتذكر الأهل والخلاّن والحي والبلدة والمرابع، وأخذه الحزن والحنين وسأم الوحدة، ولم يرَ في العيد إلا الشجن والأحزان، يتذكّر (الدواوير والبركتيْن ووادي السلوقي في جبل عامل) لقد كان عيداً حزيناً أثار الأشجان وحرّك الأوجاع وهيّج الأحزان:

أطلَّ علينا كالحَ الوجهِ خابيا	يُثير شجوناً في الضمير سواجيا
أطلّ فلا القلب الطروب كعهده	طروبٌ، ولا غُرّ الليالي كماهيا!
تلفتُ للعيد المطلّ فلم أجدْ	**على جنبات العيد إلا مآسيا!**
ورائي من الأشواق ثَمَّ مفاوزٌ	وبحرٌ من الأشجان طامٍ أماميا!
لئن لذّ للورّاد عذبُ فُراتهم	فإن فؤادي فيه ما زال ظاميا!
فما راقني بعد (الدواوير) مربعٌ	ولا اعْتَضتُ عن وادي السلوقيِّ واديا!
نناجي مغانيها النضيرة لَوْ وَعَتْ	على منتأى الدار المشوقَ المناجيا
ونسأل عنها الركب هل كان زاهراً	ربيعُ الحمى فيها وهل كان زاهيا[43]؟!

■ ■ ■

وعندما ذهب السيد حسن الأمين إلى بغداد ـ بعد سنوات من الغياب ـ في شباط 1965 ألقى قصيدة في مهرجان الشعر العربي، عبَّر فيها عن شوقه وحبّه وتعلّقه بالعراق، ذلك الشوق العارم، والحب المتجدّد، والتعلّق العميق، حتى ليكاد يسمع صوت الشريف الرضيّ مترنّما بالهوى، ويبصر ثغر البصرة الفيحاء لامعاً في ظلمة التاريخ، ويصغي إلى هتاف جرير وصوت الفرزدق، ويرى وجه الكوفة متورّداً، ومتخيّلاً نور الإمام

(43) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص144.

ووجهه، ويستوحي كلّ الطلول الناطقات:

حبٌ يظل على المدى متجدّدا وهوىً يعود به الوفاءُ كما بدا
بغدادُ يا حلم النفوس إذا هَفَتْ شوقاً، ويا لحنَ المحبّ إذا شدا
الوجد فيك، كما عهدتِ، ولم يَزَلْ شوقُ الأحبة ما عرفتِ توقّدا!
من رافدَيْكِ كما تبسّم دجلة عبر الضحى وكما الفرات تنهّدا
أكرِمْ بدجلةَ للعروبة مجمعاً وبأرض بغداد الحبيبة منتدى
من سفح (عاملَ) من شوامخِ هضبه من أرز لبنانٍ، نمدُّ لكم يدا[44]

تكاد عندما تقرأ حسن الأمين تلمس لهيب الشوق، وحمّى الحنين إلى الأماكن وذكرياتها، والوفاء لهذه العلاقة الحميمة بين الإنسان والأرض، يطلّ بحرارة وأنت تسمعه أو تتلوه:

يا شطَّ دجلة والذكرى تؤرّقنا قد طال ـ فيكَ على أشواقنا ـ الأمَدُ
هل في ظلالك للأشواق مطّرحٌ؟ أم في ضفافك للحرّان مُبْتَرَدُ؟
ضاقتْ عليَّ سهول الرافدين جوًى ـ بعد الأحبّة ـ والآكامُ والنجدُ
واستوحش الشطّ لا تروي مناهلُهُ قلباً يلوبُ ونفساً كاللظى تقدُ!!
يا من حفظْنا على بعدٍ عهودَهُمْ لا يُنْسِيَنْكُمْ أيامنا البعدُ
القلب في الحبّ لا يهفو لغيركمُ ولا يُثير سواكمْ شَوْقَهُ أَحَدُ!![45]

«لا ريب عندي ـ يقول ممثل وزير الثقافة غسان سلامة في ذكراه ـ إن مشاعر الحنان والحنين التي كانت تربطه بالجبل الأنوف، رغم ولادته في دمشق، وعمله فيها وفي إيران، وترحاله عبر البلاد العربية والأوروبية

(44) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص144.

(45) حسن الأمين، **من بلد إلى بلد**، ص316.

والأميركية وسواها، قد تجلّت لا سيّما خلال ما تولاّه في لبنان من مناصب، من خلال شعره الوجداني والوطني على السواء»[46].

وبقي السيد حسن الأمين - الذي أقام في بيروت يحنّ إلى العراق ونخيله وخمائله، وأنهاره وصحرائه، ولياليها وصباحاتها، ويتصوّر بيوتاً مشرعة، مشبوبة نارها للضيوف الصابرين، ومواكب مسافرين أناخت راضية طمعاً بأن تستمع إلى شاعر يشدو مترنماً فيجيبه آخر. وقد ترددت في الأبعاد ربّابة لراعٍ طربٍ، راح يعزف سعيداً كأنه ملك أو أمير:

إني لصبيني الصحارى سمحةً ... وتروقني فيها الظبى والأينقُ
ويهيج وجدي الليل في تلعاتها ... ويهزّني فيها الصباحُ المشرقُ
ويثيرني - والنخلُ أتلعَ جيدَهُ - ... عصفورةٌ فوق النخيل تزقزق
ومواكبٌ يشدو جريرٌ حولها ... طرباً، ويهتف بالفخار فرزدقُ
وتشوقني - والذاريات عواصِفٌ - ... نار القرى بين البيوت تحرق
والطلعة السمراء لوّحها الضحى ... ولوى معاطفها الغرامُ المحرق
وربابةُ الراعي الطروبِ ونغمةٌ ... يشدو بها في اللّيل صبٌّ شيّقُ[47]

III - الأسى في شعر حسن الأمين

يقول شاعرنا: «هذه الذكرى الشعرية في ساعة من ساعات الأصيل على ضفاف دجلة في الكرّادة الشرقية:

أنا في الضفاف على شجوني مُفْرَدُ ... لا طلّةٌ تحنو عليَّ ولا يدُ!!
الأمسُ أضواني، فهل يضوي الغدُ؟! ... **أفكلما خلق الأسى يتجدّدُ؟!**

(46) فوزي عطوي، **دائرة المعارف الإسلامية الشيعية**، ج26، ص113.

(47) حسن الأمين، **من بلد إلى بلد**، ص 335.

يا ليل هل يدري هناك الهجّدُ أني بوادي الرافدين مُسهَّدُ؟!

هو في ريعان شبابه وفي بغداد، على ضفاف دجلة، وبدلاً من أن يكون في جلسة تصخب برغد الحياة، وتمور بالفرح، والأنس، مع صديق، أو صبيَةٍ أو رفاق، نشاهده وحيداً، منطوياً على أحزانه، يشكو تباريح الأيام وأشجانها، ويتساءل عما إذا كان هناك - في وطنه - من يتصوَّر أن المغترب البعيد يشكو - حيث يقيم - من القلق والسُّهاد؟!!، ومتى يُقدَّر له أن يفرح إذا كان وهو في عنف الشباب، وألق الصبا، ونضارة العزوبيّة، وإقبال الدنيا، والفرص المتوافرة، لا يعرف كيف يوفّر لنفسه أياماً هانئةً وليالي دافئة، وأنساً ومرحاً؟! هو في عاصمة الرشيد بين زملائه وزميلاته وطالباته، يشكو الوحدة والسهاد!! ولا يلقى يداً تحنو عليه، ولا قلباً حنوناً ينبض بحبّه، وربّما كان السرّ فيه، تزمّتاً أو قصوراً، أو انطواءً، وربما كانت نشأته هي التي عقّدت دنياه! وأبناء رجال الدين - قبل غيرهم - يدركون هذه «الجدّيّة» في نشأتهم، ويراعون حرج علاقاتهم مع الناس، ويعيشون نمطاً صعباً من الالتزام، فهم أبناء السيّد أو الشيخ وعليهم ألاّ يخطئوا لئلا تنعكس النتيجة على أهلهم! فطفولتهم محكومة بقواعد صارمة، وكذلك يفاعتهم وشبابهم، بحيث يصعب عليهم أن يتصرّفوا كأترابهم! عليهم باستمرار أن يظهروا أكثر تهذيباً من غيرهم، وأقلّ (شيطنة) وأكثر خجلاً، عليهم أن يكونوا أكبر من أعمارهم، ويتصنّعوا السلوك الحسن ويتجنّبوا - بداعي الخوف - أن يظهروا عشقهم وأن يمرحوا ويحبّوا «ويشربوا» ويعلنوا ما يريدون. أبناء رجال الدين كثيراً ما يعانون صراعاً داخلياً يكتمون لواعجه، ويحملون مضاعفاته ويفتقدون الشجاعة لإعلانه، ويبقون باستمرار أسرى خوفٍ دفينٍ يلازمهم، فيخشون أن تهتز صورة أبيهم أو تتأثر تبعاً لذلك مكانته ومكانتهم الاجتماعية بين الناس. هم لا يعرفون الفرح الغامر، ولا الضحك الصارخ، ولا نشوة

السعادة لأنها كلها ـ وبشكل لا شعوري ـ تبقى ممزوجةً بشجنٍ دفين، وبأسىً متجذّر يعكّران لحظات السرور، وينغّصان هنيهات الهناء، هكذا نشأ حسن الأمين، فحمل معه تعقيدات هذه التربية، ومشاكل هذه النشأة ولم يستطع أن يتخلص منها.

يا ويح قلبي كم يلقى وكم يجد وكم تكابد همّاً هذه الكبدُ!

لمن أرتّل أشعاري وأنظمها ومن يقرّض أبياتي وينتقد

هذي الحياة فلا خِلٌ ألوذ به على الهجير ولا ريّاً فأبترد[48]!!

هو في عنفوان شبابه يشكو الوحدة والهمّ والشجن، ولا يلقى نديماً ولا رفيقاً ولا أنيساً، فماذا ادّخر لأيام الشيخوخة، وماذا ينتظر في المقلب الآخر من العمر؟!

...نام الندامى عن همومَي ما دروا وسهرتُ أنشد في الهموم ندامى!!

وطويت **صحرائي أهيم ولا صدًى** في الليل ألمحُها ولا أحلاما!!

هذه المتاهةُ أين صار دليلها؟ أين السنا يجلو **أسىً** وظلاما[49]؟!!

إنه يأس قاتل، وسواد مقيم، أن تسهر مع همومك وأنت في أزهى عمرك، لا ترى جمالاً يلوّن دنياك، ولا ضياء ينير عتمة داخلك، فتهيم بلا دليل في صحراء لا أحلام فيها ولا آمال:

عبست له الدنيا فلم يَرَ باسماً للناس إلا أن يكون رياء

رضي **الشجون من الحياة صحابة** **ومن الزمان همومه** خلطاء[50]!!

---

(48) حسن الأمين، **من بلد إلى بلد**، ص318.

(49) المرجع نفسه، ص330.

(50) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص240.

هذه الوساوس من الحزن المقيم تعقّد الحياة وتجعلها مظلمة خالية، خاوية ممّا يطرح ويبهج ويغري، فتتوالى الهموم وتتعاقب المصائب، وها هو على عباب البحر راح يقول:

توالى علينا الهمّ! لا الماء ينقضي ولا الصبرُ يأتينا ولا الليل يذهبُ

إذا ما انتهى يوم علينا تعاقبت ليالٍ وأيامٌ (تحضُّ) وتكرب[51]

وحتى في السفر تناسى زرقة السماء، وسكون البحر، وسحر الطبيعة، وجمال الخمائل، وخرير المياه، وغناء الطير، وتفتّح الأزهار وفرح الدنيا:

وحدي أقلّب ناظريَّ هنا وأسائل المجهولَ أين أنا؟!

وحدي أغالب **لوعةً غلبت** وحدي أصارع **بالأسى** الزمنا[52]؟!

وكيف نكون وحدنا بين الخمائل الغنّاء والبساتين الخضراء، وتلازمنا الأحزان والأوجاع؟!

يا شطَّ دجلة والذكرى تؤرّقنا قد طال فيك على أشواقنا الأمَدُ

هل في ظلالك للأشجان مطَّرحٌ أم في ضفافك للحزّان مبترد[53]؟!

اللافت أن شاعرنا كان منذ صباه مسكوناً بحزن غائر، **وبأسىً دفين**، وبشعور بالوحدة وبغربةٍ طالما شكا منها وأحس بثقل وطأتها حتى في مطلع عهده بالشباب عندما كان قاضياً في راشيا في وادي التيّم.

على القنن الشمّاء في الثلج نازحٌ **تغاديه أبكارُ الأسى وتراوحُ**

وأنظر حولي لا حبيبَ أبثّه هواي ولا خلٌّ بهمّي أصارح

(51) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص235.

(52) حسن الأمين، **من بلد إلى بلد**، ص238.

(53) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص231.

لكَ اللّهُ يا قلبي أمضتك صابراً — سوانح همٌ في النوى وبوارح
غرام وشوق **واضطهادٌ وغربة** — أصخرٌ أصمٌّ هذه أم جوانح؟!
تكاد بوادي التّيم من **لوعة الأسى** — تغالب عينيْ الدموعُ السوافحُ[54]!!
تطول ليالينا على التيم إنها — ليالٍ بأوقار الهموم روازحُ
وما كان وادي التيم في النفس زاهراً — ولكنه في النفس أسودُ كالح!!

وكيف لإنسان حزين أن يفرح؟! وهو يشعر بهذا الوجع من الغربة والإحساس ب«الاضطهاد» والنظرة تنطلق من أعماق الرائي فإذا كان داخل النفس سوادٌ وظلمةٌ وتشاؤمُ فكيف يمكنه أن يتملّى من الجمال ويتمتع بسحر الطبيعة وإبداع الخالق:

لقد كنت قبل اليوم بالحسن شادياً — ولكنني في **التيم بالحسن نائح**!!![55]
ستخمد في التيم الجميل نفوسنا — وتجمد عن وصف الجمال القرائح!!

IV ـ هل أحب حسن الأمين؟

عندما ارتحل السيد حسن الأمين إلى العراق معلماً ـ وفي مرحلة أولى سنة 1938 ـ كان في الثلاثين من عمره، ولم أعثر له قبل ذلك على قصيدة غزليّة تشير إلى أنه اختصّ واحدةً بحبّه، مع الإشارة إلى أنه انطلاقاً من العراق غزر إنتاجه وكثرت قصائده. سنته الأولى كانت في الحلة والثانية كانت في ضواحي بغداد في الرستمية «وقد أوحت كلاهما الشعر، وكان كله **حنيناً** إلى الأوطان **والأحباب**[56]».

(54) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص186.

(55) المصدر نفسه، ص187.

(56) المصدر نفسه، ص163.

أتى العيد ولم يكن قد مضى شهر على وصوله (الحلّة) ولم يكن قد اختلط بأحد من أهلها فشعر بالغربة الأليمة والشوق الشديد والوحدة الموحشة، فنظم قصيدة يائيّة مطلعها:

«أطلّ علينا كالح الوجه خابيا يثيرُ شجوناً في الضمير سواجيا»[57]

قال إنها لا تمثّل حياته فيها وإنما تمثّلها بعض التمثيل، وفي الرستمية من وحي شواطىء (ديالى) قال متذكراً بلدته شقرا وملمّحاً إلى الأحباب:

سَقَتْ سرحَ (الدواوير) الغوادي وجاد رياضَها المطر السكوبُ
تحب النفس مغناها ويهوى مسارحها الفؤادُ ويستطيبُ
يعاودنا إذا خطرت حنينٌ وإن ذكرت يهيج بنا وجيبُ
. . .خَلَتْ تلك الديار فلا محبٌ يعاطيه الهوى فيها حبيبُ
ذكرناكم على شطَّيْ (ديالى) فطاب لنا بذكركمُ النسيبُ
نأيْتمْ! فالمنازل موحشاتٌ وبِنْتُمْ، فالربيع بها جديبُ
لئن طابت لياليكم فليست ليالينا لبعدكمُ تطيبُ
وإن تردوا المناهل صافياتٍ فإنّا في مناهلنا نلوب
إذا عذب الفرات لوارديه يغصّ به على النأي الغريب[58]!!

في هذه الأبيات إشارات إلى ذكريات في (الدواوير) ولقاءات استطابها الفؤاد وارتاح لها، فأهاجت حنيناً، ربما كانت لا تحمل الكثير من الملامح، ولكنها تتضمَّن مواقف أسّست لمرحلة قد تصلح أن تكون أولى البدايات.

(57) حسن الأمين، حل وترحال، ص144.

(58) المصدر نفسه، ص163.

في العراق، تقع على أبيات فيها نَفَس لم يعتدْه شاعرنا، ولم يسبق لنا أن وقعنا على كلمات ومعانٍ ذكرها سابقاً، هو في هذه الفترة محبّ يناجي خيال الحبيب، يرسمه وجهاً مشرقاً في تصوّراته، يلمحه طيفاً أنيساً في جميل أوهامه، ويقرؤه سحراً ندياً في مغريات لحظه وثغره وخدّه، ويتساءل هل أنّ سماء العراق تعرف أن الشاعر المتيَّم لم يسلُ لها عهداً، وأنها هي النعمى والهناء والرغد في حياته:

أتذكر (سماء الفراتيْن) أم سَلَتْ
عهودَ محبٍ ما تناسى لها عهدا

أقام على الذكرى يناجي خيالها
ويسأل عنها الروض والنهر والوردا

ويلمح في الأشعار طيف جمالها
ويقرأ فيها اللحظ والثغر والخدّا

أتعلم سماء الفراتين أنني
وفيتُ لها قرباً ولم أسْلُها بعدا

تراءت على الدنيا فكانت رُواءها
وكانت بها النعمى وكانت بها الرغدا[59]

حسن الأمين في غزله هذا يتحدث عن سمرائه بلغة الغائب، بلغة الخجل أو الخوف أو الرهبة من استعمال لغة المخاطب، أو لغة المتكلّم حين يتحدث عن نفسه (أتذْكُرُ، أقَامَ، يلمحُ، أتَعْلَمُ...) ومرة واحدة فقط يتجرّأ على التحدث بلغة المتكلم عن نفسه (أنّي وَفَيْتُ)؛ أنا أزعم

(59) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص241.

أنه كان أعمق تعبيراً وأكثر توفيقاً لو أنه اختصّها بنفسه بعد أن صوّرها رُواءَ الدنيا كلها ثم استأثر بها وحده:

تراءت على الدنيا فكانت رواءها

وكانت لي النعمى وكانت لي الرغدا!!

وفي قصيدة ثانية عنوانها «الحنين إلى الرويس» يتحدث الشاعر عن (ظمياء)، فتاة في مرح الصبا، نجلاء العينين، غرّاء الوجه، التقاها في ليلة حَمراء، فأضفت هناءً على الوادي الظليل، وزادته بهاءً ونشرت أريجها في الأرجاء، كان لقاءً لا ينسى طرح فيه الكآبة والكدر ورشف من العذب الزلال:

سُقياً لأيام الرويس فطالما ... كانت لأدواء الفؤاد دواءَ

. . . وطَلَعْتِ يا ظمياء في مرح الصبا ... وجهاً أغرَّ ومقلةً نجلاء

وكسوتِ ذروات الرويس بشاشةً ... وملأت واديه الظليل هناءَ

ودعوت للحب **المبرّح والجوى** ... قلباً خلياً من هواك، فجاءَ

فالليلة القمراء فيهِ لم تكنْ ... إلا بوجهك ليلةً قمراءَ

والروضة الغنّاء ما كانت لنا ... إلا بوجهك ليلة قمراء

لم يحل لولاك الرويس ولم يطب ... أرضاً ولم يعذبْ لديَّ سماءَ

قد كنت بهجته وكنت رواءهُ ... فيما بعيني بهجة ورُواءَ

تمشين في الأرجاء عاطرة الشذا ... فتعطّرين بعُرفك الأرجاء[60]

غزل السيد حسن يبدو في هذه القصيدة تقليدياً، متوكئاً على من

(60) حسن الأمين، حل وترحال، ص240.

سبقه من الشعراء فليس فيه معانٍ جديدة، ولا عواطف جيّاشة، ولا نبضاتٌ حارة، ولا خيالات مبدعة، ولا صور غير مسبوقة؛ هي صبيةٌ التقى بها الشاعر في ليلة قمراء فزادتها نوراً وبهجة، ومشت فعطّرت الأرجاء من أطيابها. كان اللقاء ممتعاً، ولسوف يشدو الشاعر برغده ويصوّره في شعر تقليدي لا يرقى إلى مستوى الغزل الرفيع. وقد عرّجتُ عليه لأدلّل أن الشاعر التقى بظميائه ونظم المناسبة شعراً ونادراً ما كان يحدث أو يتكرّر هذا الأمر.

في مرحلة لاحقة ـ وبعد الاستقرار في بيروت ـ وفي ليلة أرِق فيها الشاعر، تذكّر ظمياءه العراقيّة وتصوّر أن هذا الليل يشاركه زاهيات ذكرياته، ويأنس لمناجاته حبيبة أطلّت ـ من البعيد ـ مشرقة، فحرّكت هواه وأشواقه وأشعاره، أشعاره التي كانت تتردّد غناء في الوادي وأنغاماً الأرواح ونشيداً يُتلى في عرس الطبيعة، آه لو سَأَلْتُ هذا الليل النديّ، ونغمات نسماته عن لهيب الشوق الذي لا يخمد! وألم البعاد الذي لا يسكن!، وأرق الشاعر الذي لا يبارح! لقد طارت نفسه وكذلك روحه وأحلامه إلى هناك، إلى الشطّيْن ترفرف مشوقةً، مرهفة، حانية على النخلات الخضر حيث تُقيم ظبياء!!

وينقضي الليل مع سهاده، ويسترجع الشاعر ـ في خلوات نهاراته ـ أيامه الخوالي ويتذكر جلسات عتاب، ومواقف غضب، وساعات رضا، كانت (ظمياء) فيها تثور وتهدأ، تتمرّد وتهادن، تُقرّع وتلاطف، شأن المحبّين في عنف هواهم، واشتعال غضبهم، وعفويّة مسامحتهم، وبساطة تعاملهم:

لما التقينا على نارٍ من الغضب | تذكي الجوانح بالتقريع والعتَبِ
قالت: أأنت نجيُّ الليل والشهب؟! | أنت المعنّى بنا، أم أنت ذو طرب؟!

تشدو بشعرك لا وجدٌ ولا حرقٌ على الغرام!! ولكن فتنة الأدب
أنت الفراشةُ من زهرٍ إلى ثمرٍ طولَ الحياة ومن جِدٍّ إلى لعب
أنا الفراشةُ، يا ظمياءُ - هائمةٌ وليس وجهُك غيرَ النور واللهب
ثم افترقنا وبسمات الرضا نغمٌ في الثغر أو حُلُمٌ ندیانُ في الهُدُب(61)

(ظمياء) هذه حائرةٌ من (حبِّ) السيد حسن الأمين، تسأله بعتب ثم بغضب وتقريع، هل أنت متأكد من أنك تحبّ؟ أم أنك فتىً عابث تقضي أياماً في التسلية؟ فتى ذو طربٍ لا يعرف معنى الغرام وحرقة الهوى، وألم العذاب!! ويظهر أنه امتصّ غضبها وأرضاها، لكنها ابتعدت وأدركت أنه لن يكمل الشوط إلى آخره وها هو يناديها، ويظهر أنها ابتعدت حقاً ولن تعود:

عودي إليّ؛ فصوتُ الحب يدعونا ونغمة الشعر لم تَبْرَحْ تنادينا
تهوى الرياض على شوق تواعدنا ويشتهي السفحُ والوادي تلاقينا
سنملأ الكون شعراً من صبابتنا ونترع الدهر عطراً من تناجينا
عودي إليّ فلم أبرحْ كما علمت هذي النجوم محباً فيك مفتونا
ألقى الجمال على عينيك مزدهراً وفي جبينك أستجلى التحاسينا(62)

هذه الدعوة للعودة باردةٌ ليس فيها وجع الفراق ولا لهيب الحب!! أيُّ حبٍ هذا الذي تناديه نغمة الشعر ويشتهي السفح لقاءاته، أي حب هذا الذي تعرفه النجوم، وتعطّره المناجاة!! حب الشعراء عادةً يُشعل الداخل ويملأ النفس، ويستقرّ في المهجة، ويسري مع الدماء، هو أحياناً

(61) حسن الأمين، من بلد إلى بلد، ص355.

(62) المرجع نفسه، ص354.

جنون طاول كثيراً منهم، وخلَّد هواهم، وجعل حياتهم حكايات تُروى، وقصصاً تكاد لا تُصَدَّق. شعر المحبين قرأناه لدى قيس بن الملوّح، وكُثيِّر عزة وجميل بثينة وديك الجن وابن زريق البغدادي، كما قرأناه شعراً في بحيرة لامارتين ونثراً في كتاب رافائيل وسمعنا حكاياه في معظم الآداب العالمية، ويظهر أن (ظمياء) تصرفت بحكمة عندما أدركت أنها كانت فتنة الأدب عند شاعرنا وأصمّت أذنيها عن لذاته ولم تلبِّ نداء العودة.

■ ■ ■

كانت رحلة السيد حسن الأمين إلى الأرجنتين تلبية لدعوة من بعض أبناء الجالية العاملية، سافر من مطار دمشق في كانون الأول سنة 1949، «منتقلاً من قارة إلى قارة ثانية فقارة ثالثة. هكذا مضى مشغول القلب بعد أن كان مشغول العينين عندما حوّمت الطائرة فوق (بونس آيرس) ودارت فوق مطار إيسيسيا؛ فكيف سيتعرّف على إخوان ينتظرونه وهو لا يعرفهم، ولا هم يعرفونه ويهتف به صوت من أعلى سطح المطار؛ صوت لا يزال يتردد في أذنيه وسيظل يتردّد فيهما أبد الدهر، كان باب تلك الأسمار والأحاديث التي امتدت ثلاثة أشهر ونصف الشهر هناك بين جالية الأرجنتين، في تلك البيوت المضيافة، ومنازل أولئك الكرام الذي طهرت نفوسهم وصفت قلوبهم وسما شعورهم»[63].

وكان في الأرجنتين ـ كما في سواها من المغتربات ـ جاليات عربية وبخاصة من لبنان وسوريا وفلسطين ـ هاجر أفرادها إلى الأميركتيْن ـ خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ـ طلباً للسعة والثراء وطمعاً في حياة

---

(63) حسن الأمين، **من بلد إلى بلد**، ص294.

كريمة، «فلما وصلت قوافل أخرى، وكان فيها بعض المفكرين والمثقفين عمد الواعون إلى الأخذ بوسائل الإيقاظ والإنقاذ. فكانت الاجتماعات الأولية في المنازل ومنها انبثقت وتحققت فكرة تأليف الجمعيات وتأسيس الأندية الأدبية الاجتماعية، فولد في المهاجر أدب الحفلات وبعث الأدباء حياة اللغة العربية والعاطفة الوطنية في صميم الحياة المهجرية، وأصبحت كل حفلة تقام سوقاً عكاظية لا ينتهي ذكرها بانتهائها بل يبقى مخلّداً بمحصول الآثار الأدبية التي نتجت منها»[64].

وبين الرابطة القلمية في الشمال الأميركي (نيويورك) والعصبة الأندلسية في الجنوب (سان باولو) راح الأدب المهجري ينفذ قوياً إلى الأقطار العربية، ويفتح آفاق التجديد والحرية والتوجّه القومي والإنساني. ورغم «تدفّق قوافل المهاجرين على سهول الأرجنتين تدفّق السيل المدرار، فقد قلّ الأدباء في ذلك المحيط الواسع، وظلّ المستوى الأدبي دون سواه في نيويورك وسان باولو إذ لم يحمل رايته عباقرة أفذاذ كجبران ونعيمة وأبي ماضي ولم يتعهده بالرعاية وجهاء أغنياء تعلموا وعلّموا قبل أن هاجروا كأبناء (يافث) ومعلوف وأبي جمرة واليازجي وقربان. لقد أنتج أدب الأرجنتين أدباً قوياً هو أدب السهل الممرع إن لم يكن أدب القمة».

«في هذه الفترة حلّ في الأرجنتين مطران العرب نيفن سابا وجورج صيدح وأحمد سليمان الأحمد وقدم حسن الأمين في زيارة - كما قدم كثيرون منهم كامل مروة والياس زخريا وعبد الله حشيمة وعبد المسيح حداد وتوفيق وهبة ووليم صعب - علماً أن هذه الفترة شهدت تأسيس

(64) جورج صيدح، **أدبنا وأدباؤنا في المهاجر**، مكتبة السائح، الطبعة الرابعة، 1999، ص123/ 125.

الرابطة الأدبية سنة 1949 في منزل الشاعر صيدح. بناء لدعوة الأديب الزائر وليم صعب وكانت تعقد اجتماعاتها يوم الأربعاء من كل أسبوع.

«وعن هذه الزيارات كان يتفرع محاضرات ومجالس سمر وحفلات خطابية تتناول الترحيب والتكريم والتوديع»[65].

وهكذا ووسط هذا الزخم من النشاط الأدبي، وكان قدوم السيد حسن الأمين إلى الأرجنتين، وكان صديق الشاعر أحمد سليمان الأحمد هناك وقد كانا رفيقي دراسة ـ فأقيمت له حفلات تكريم وألقيت قصائد وكلمات من المحتفى به والمحتفين. وكانت الأشهر الثلاثة والنصف التي أمضاها في العاصمة وسواها من المدن والأرياف بعثاً لحركة أدبية كما كانت موسماً ثقافياً تفتّحت فيه قرائح، والتهبت عواطف، وماجت أحاسيس وتسعّرت أشواق.

في حفلة تكريم حسن الأمين اعتلى المنبر الشاعر القومي أحمد سليمان الأحمد مُنوّهاً بالقادم من دنيا العروبة حاملاً الأطياب وعطر البراعم المتفتّحة وأشجان مآسي الحاضر وعوادي الزمان الغادر، يا رفيق النضال ـ يُخاطبه ـ هل تذكر جهادنا وحبّنا وخطبنا ولقاءاتنا في سوريا، أيّ أطيابٍ حملت من الغوطة ومن أنداء بردى وأيّ عطر لَمْلَمْتَ من خمائل العراق ونخيل الرافدين[66]؟

بُرْعُمَ المجد قد حملتَ شذانا　　　فتفتَّحْ مجداً على دنيانا

أنت من روضة العروبةِ قُطِفْتَ فعطَّرتَ عالماً وزمانا

---

(65) جورج صيدح، أدبنا وأدباؤنا في المهاجر، ص125.

(66) هو ابن العلاّمة الشيخ سليمان الأحمد وشقيق الشاعر المشهور بدوي الجبل، سوري من قرية (السلاطة) محافظة اللاذقية، وخريج الكلية العلمانية في طرطوس، 1942، ص493.

أيّ نجوى على جراحك سالت؟ فَتَتَنَفَّسْ أطيابها وتفَانَ!
حسبنا الطيب كم غسلنا بريّاه؟ وكم صبغْنا رؤانا؟!

■ ■ ■

يا صفيُّ العقيدة البكر! لم تَرْضَ سوى ساحها ميدانا
من بلادي أطلَّ شادي العلى يلقي نشيد العروبة الفتّانا
وطني يا قصائد الثأر في قلبي خلعنا على رباك صبانا
وهنيئاً لك الشباب المضحّي!! وهنيئاً لك الذي فيك عانى!!

■ ■ ■

إيِّ فتى المجد كم حملتَ جراح المجد - في قلبك الكبير - حنانا؟
وتعهدْت بالمعارف نشأً رفّ في روضة العلى أقحوانا؟
تتمنّى جوارح القوم - إذ تلقي حديثاً - لو تغتدي آذانا!!
يا رفيقي، وكم نظمنا الليالي - من جهادٍ ومن (هوىً) ديوانا؟
وهززنا أضالع المنبر الثوريّ إنْ نخوةً أو استحسانا!!
أيّ عطر حملتَهُ من جنّة الوحي ورفّتْ أضواؤه لقيانا؟
الفراتان نغمةٌ وهديرٌ فسل الغوطتيْن ما بردانا؟
في غدٍ نلتقي على بردى يَغْسلُ آثامهُ بوهج تُقانا
رَفْرَفْتْهُ مع العروبة غسانٌ فحاكى في غدقه غسّانا[67]!!

■ ■ ■

تنقّل السيد حسن الأمين - خلال إقامته - بين العاصمة وبعض المدن

(67) مجلة العرفان، عدد شباط، 1950، ص381/ 382.

التي دعته إليها جاليةٌ لبنانية تقيم فيها، وتعرّف على مهاجرين من جبل عامل تربطه علاقات وطيدة بعائلاتهم وأهلهم في لبنان، ودعوه إلى بيوتهم واحتفوا به، وكرّموه، في فلورنس ومتديرو وبيرسو والروساريو على ضفاف (بارانا) وكان من هؤلاء المغترب سعيد الحاج سليمان شرارة، الذي ترك بلدته بنت جبيل في مطلع القرن العشرين، وهاجر إلى الأرجنتين وأقام في الروساريو وتزوج من أرجنتية فرنسية الأصل وأنجب أربعة أبناء أصغرهم الشاعرة نيليدا؛ والذي يدعو إلى الأسف أنهم كانوا جميعهم لا يتكلمون العربية، الجدير بالذكر أن حسن الأمين زار في (الروساريو) منزل سعيد شرارة واحتفت به العائلة وأخذ صوراً تذكارية معها.

ومن الحفلات التي أقيمت وداعاً للسيد حسن الأمين حفلة (جمعية الاتحاد العلوي) في بونس آيرس، وقد ألقت فيها الآنسة كريمة عباس هذه الأبيات:

إنا نحيّي العبقرية والهدى — لمّا نحيّي الألمعي السيدا

أملٌ تبلّج في دمشق منوّراً — دنيا الجهاد مروياً منها الصدى

أدبٌ، نضيرٌ كالبراعم، عاطرٌ — مثلَ الزهور المستحمّة بالندى

وعقيدةٌ عربيّةٌ وشجاعة — في الحق غنّاها الزمان مردّدا

يا زائراً في موطنٍ لمّا يزل — حلم الجفون المستطاب الأرفدا

حيّاك بالأعياد نادينا ومَنْ — حيَّا الأمين فإنه قد عيّدا!!

ذكرى ستبقى في الزمان وترتدي — أحلامُها ثوبَ الخلود على المدى[68]!

(68) مجلة العرفان، عدد شباط، 1950، ص251.

وألقى المكرَّم خطاباً ختمه بهذه الأبيات:

يا عصبةَ الأمجاد كم من شاعر ومفوَّهٍ فيكم ترسّل مبدعا

إني نزلت على دياركُمُ فلم ألمحْ بها إلا الكريمَ الأروعا

علويّة الندوات حسبُك مدحةً أن قد تبعت بها عليَّ الأنزعا

بطلَ العقيدةِ والرسالات العُلى لله ما أسمى هداه وأروعا

يا مجمعاً أولى الكرامةَ ضيفَهُ متهلّل القسمات! بورك مجمعا

غنّيته مرح البيان مسلّماً ووهبتُهُ وَلَهَ القريض مودّعا[69]

«كانت إقامة السيد حسن الأمين في الأرجنتين، بعثاً لحركة أدبيّة رائعة بما ألقي في الحفلات التي أقيمت لتكريمه من شعر ونثر، وقد كانت حفلة **الجالية العاملية الوداعيّة** في العاصمة من أزهى الحفلات، تكلّم فيها ـ فيمن تكلّم ـ كلٌّ من سيادة المطران نيفن سابا والشاعر أحمد سليمان الأحمد والشاعرة العربيّة الأصل الأرجنتيّة الجنسيّة الآنسة (نيليدا شرارة) وغيرهم»[70]. وقد ألقى المحتفى به قصيدة أشاد فيها بعروبته وتعلّقه بوطنه، وبالشام والعراق، وصوّر أحاسيسه، وآلامه، وأحزانه، وشبابه الغارب، وربيعه الآفل، وقد أمسى وحيداً يلمّ الشوك والعوسج هائماً وسط الزعازع في صحراء لا دليل فيها ولا رجاء.

حسن الأمين ـ في موقف الوداع ـ فتح قلبه وكشف أوجاعه أمام المحتفين به، نشر ما فيه من أحزان، وما يعاني من آلام وحدته، وتحسّر على سرعة هرب الأيام، وانطواء ربيع العمر، كان مرهفاً، شفّافاً، رقيقاً

(69) مجلة **العرفان**، عدد شباط، 1950، ص251.

(70) المرجع نفسه، عدد آذار، 1950، ص524/ 525.

وهو يستعرض شريط إقامته والاحتفاء به في الأرجنتين؛ ثلاثة أشهر ونصف الشهر مرّت كالحلم الجميل، قضاها في منازل عربية بين أناس كرام، نبلاء، محبّين «مرّت ساعاتها ناضرة المنى»، صباحاتها مرحٌ وفرحٌ، ومساءاتها أنسٌ وأنغام، ولياليها آمالٌ وأحلام، حتى إذا حان النوى ودنت ساعة الفراق، شعر أنه سيخلّف في الأرجنتين قلباً محطّماً، وفؤاداً مستهاماً، وذكرياتٍ خالدة لا يطاولها النسيان:

أنا من عرفت صبابةً وهياما ... يا ليت للمشتاق منك سلاما

ينسى المحبّون الذمام ولم أكن ... يوماً لأنسى للحبيب ذماما

مرّ الشباب **فما نعمت بظلّه** ... طيباً **ولا روّيتُ فيه أواما!**

ومضى الربيع كأنما **هو قفزةٌ** ... **جرداءُ**، لا زهراً ولا أنساما!

مالي **أَلُمُّ الشوكَ** من روضاته ... وسواي يجني نرجساً وخزامى؟!

وأعبُّ فيه **الصاب** كأساً مترعاً ... ويعبّ غيري الشَّهْدَ جاماً جاما؟!

■ ■ ■

يا (بونس آيرس) و(الروسارُ) و(بيرسا)[71]

هيهاتِ أنسى عهدكِ البسّاما!

أزف النوى يا (بونس آيرس) فاذكري

صبّاً تغنّى - بالوفاء - وهاما!

مرّت بنا الساعاتُ **ناضرةَ المنى**

فكأنها كانت لنا أحلاما!

(71) هي مدن أرجنتية زارها الشاعر.

أشـواطـئ (الـروسـار) مـا هـبَّـتْ صـبـاً
إلا بـعـثـت بـهـا إلـيـك سـلامـا
(بَـزنـا) اسـتـنـار مـشـاعـري فـكـأنـمـا
عـاطـانـي الـحـسـن الـرفـيـعَ مُـدامـا
يـجـرى عـلـى الـصـبـح الأغـرّ مـحـاسـنـا
ويـسـيـل فـي جـنـح الـدجـى أنـغـامـا
كـم وقـفـة لـي فـي الـضـفـاف أبـثـهـا
نـجـواي؟ لـو وَعَـتِ الـضـفـافُ كـلامـا!!

■ ■ ■

حـان الـنـوى يـا (بـونـس آيـرس)، والـنـوى
تـركـتْ فـؤادي الـمـسـتـهـامَ حـطـامـا!!
كـم سـاعـة لـلـبـيْـن، ظـامـئـة الـرؤى،
روَّيـتُـهـا الـدمـعَ الـغـزيـر سـجـامـا؟!
يـا قـلـبُ! لـم يُـبـقِ الـفـراقُ بـقـيّـةً
تـتـحـمّـلُ الأشـجـان والأسـقـامـا!!
(أفـلـورس) الـغـنّـاء قـد أزف الـنـوى
يـا لـيـت عـيـشـيَ بـيـن أهـلـك دامـا[72]!

حسن الأمين بعد الزيارة ـ هو غيره قبل الزيارة ـ في المقطع الثاني

(72) مجلة العرفان، أيار، 1950، ص524/ 525.

من هذه القصيدة يذكر عهداً باسماً، ويتحدث عن ساعات ناضرة كانت أحلاماً لا تُنسى وعن صبح أغرّ، وليلٍ يسيل أنغاماً، ونجاوى محبّين! وعن وقفاتٍ على ضفاف نهر بارانا الفضّيّة، ودنيا من الألق البهيج **لإنسان عاشق، ومُغرَمٍ هائم:**

في شطّك الفضي كم وقفتْ بنا
دنياً من الألق البهيج ترامى
وعلى الرحاب الناضرات عشيّةً
كم طاف بي **الحلْمُ الجميل وهاما**[73]؟!

تُراه عمَّن يتحدث، ومن هي التي أشرقت في دنياه، وعَبَرَتْ إلى أعماق نفسه، وفتحت كوّةً في قلبه المغلق؟!

«عندما عرّبت الآنسة سعاد الصارمي أشعاراً أرجنتينيّة إلى اللغة العربية علّقت بما يلي:

«نبغ المهاجرون وأبناؤهم في كل مجال: في السياسة والاقتصاد والحرب والإدارة، فكانوا وفي كل ميدان لهم جولات موفّقة تكسبهم الاحترام والإعجاب، ولعل نبوغهم في الأدب الأميركي هو أجمل نبوغ وأسماه، وهل أروعُ من أن تعلم أن شاعرة الأرجنتين، بل شاعرة اللغة الإسبانية، هي ابنة عربي من جبل عامل هو السيد سعيد شرارة. نزح أبوها إلى الأرجنتين منذ حوالي أربعين سنة، واستقرّ في مدينة (الروساريو) وهناك ولدت ابنته نيليدا (Nelida) ونمت، ونما إلى جانبها أخوان وأخت، حتى جاء يوم مات فيه أخوها الأكبر بحادثةٍ مفجعة، إذ

(73) المرجع نفسه، ص524/ 525.

دهسه الترام، وكانت لا تزال في أوائل الصبا، فترك هذا الحادث في نفسها أثراً لم تستطع الأيام أن تمحوه، وصَبَغَ حياتَها بلونٍ من ألوان الحزن العميق بدا بارزاً في شِعْرها وشعورها.

وليس الشعر ميزة (نيليدا شرارة) بل هي كاتبة بليغة، وخطيبةٌ بارعة ترتجل خطبها ارتجالاً فتملك ناصية القول، وتستحوذ على الأسماع ببيانها الناصع وبلاغتها المؤثّرة. ومن أبرز مزاياها وفاؤها لأصلها العربي، فهي أرجنتينيّة تجهل اللغة العربية، ولكنها لا تجهل أنها ابنة عربي، وأن لهذه النسبة عليها حقاً، أي حق»[74].

حسن الأمين ابن بلدة شقراء وابن السيد محسن الأمين، هو كذلك ابن بنت جبيل، المجاورة لشقرا والتي تعرف جيداً العلاّمة المجتهد والأسرة الكريمة والمكانة الاجتماعية التي يشغلها الرجل والعائلة على مساحة جبل عامل وما يتعدّاها، فكيف إذاً قَدِمَ السيد حسن إلى الأرجنتين البعيدة ضيفاً زائراً ـ وسفيراً لأبيه ـ وعرف بمقدمه من يقدّرون ما يعنيه بالنسبة لهم هذا البيت؟

لا أدري من كان صاحب المبادرة في دعوة السيد حسن لزيارة منزل سعيد سليمان شرارة في الروساريو، ربّما كان المغترب موجوداً بين أفراد الجالية الذين استقبلوا السيد حسن الأمين ودعاه للزيارة، وربما كانت الابنة ـ بموقعها الأدبي وأصلها اللبناني ـ هي التي قامت بهذه الدعوة، وقد يكون كلٌّ منهما قد قام بهذا الدور؛ المهمّ أن السيد حسن زار المنزل، واحتفي به هناك، وأُخِذتْ له مع الأسرة صُوَرٌ، وتكرّرت اللقاءات والزيارات وتعمّقت العلاقات ونشأ تقديرٌ متبادل بين الشاعرة

(74) مجلة العرفان، عدد آب، 1950، ص899.

والأديب ـ رغم اختلاف اللّغة ـ ليتطوّر إلى استلطافٍ وإعجابٍ، وانجذابٍ وأحاديث عبر النظرات والعيون واللفتات، أحاديث **صامتة معبّرة بلغة بليغة لا تحتاج إلى مترجمين.**

«كانت نيليدا في التاسعة والعشرين من عمرها ـ عندما زار حسن الأمين الأرجنتين ـ وقد أخرجت ديوانَيْن شعريّين، ومع أنها تجهل العربية ولا تتكلم إلا الإسبانية وحدها فإنها كانت تعتزّ بأرومتها العربيّة وقد أوقفت مقدرتها الأدبية في سبيل الدفاع عن القضية العربية وقضية فلسطين بصورة خاصة، فنشرت في أمّات الصحف الإسبانية مقالات من أروع ما يكتب في الدفاع عن حق عرب فلسطين، وهي عضو في المجامع الناطقة بالإسبانيّة كما أن لها صلاتٍ أدبيّةً مع نوادي أوروبا وأميركا»[75].

كانت نيليدا يومئذ لا تزال عزباء كما كان السيد حسن عازباً في الثانية والأربعين من عمره وكان اختلاف اللغة يباعد بينهما، وكل ما عداه يقرّب.

السيد حسن الأمين أديب، مشرقي، يتمتع بثقافة واسعة، ويحمل قضية قومية، ويطمح إلى غدٍ واعد لأمّته؛ والآنسة نيليدا شرارة شاعرة مرهفة مشرقية الأصول غربيّة النشأة، تقدّس قضية فلسطين، وتحمل هموم المظلومين، المغتصبة حقوقهم.

السيد حسن شاعرٌ متمنّع، عصيّ، لم تستطع تجاربه أن تأخذه إلى دوّامة جارفة، توقعه في شباك الحب، وتريه كيف تكون المعاناة والأشواق والرعشات والأشجان!!

---

(75) مجلة **العرفان**، سعاد الصارمي، عدد حزيران، 1950، ص655.

الآنسة نيليدا شاعرة مرهفة، لم تتفتح بعد أكمامها، ولم يقبض عليها ملك الحب، «فما زالت قبضةً من المشاعر العذبة، راعشةً مع القيثارة، تضحك عند العواطف وتبكي عند الأحزان»[76].

والتقى الشاعران، وخفق قلباهما، وارتشعت نفساهما، وشعرا بنبضات ـ طالما انتظرها كل منهما ـ لامست كلَّ خليّة في كيانهما وغمرتهما بسعادة علويّة لا تخطر ببال.

كانت حياة كلٍّ منهما شبه خاوية تفتقد «الأنيس الحبيب»، مالىء الأيام، وقاتل الوحشة في أوقات الضجر، كان كلٌّ منهما ينتظر موسماً لمّا يأتِ بعد، ولمّا تظهرْ تباشيره.

كان كلٌّ منهما يحلم أن يلقى «الحبيب المجهول» الذي يتصوّر إطلالة طيفه في فراغ الوحدة، ويتخيّل أنه يستمع إلى صوته في هدأة السكون، ويتراءى له أنّه يغمره بضيائه في سواد الظلمات.

لقد التقيا على غير موعد، الأقدار لعبت هذا الدور، وها هما وجهاً لوجه مع الشوق الغائر، والعطش الطويل، والحُلْمِ المنتظر، والأماني الملوّنة، ومعها كلها قلق وخوف من الآتي راحا يمزجان أهازيج الفرح ـ في نفسيهما ـ بحزن دفين لم يجدا له تفسيراً!!.

إقامة السيد حسن في الأرجنتين مرّت سريعة، تكاد لا تحسب بمقياس الزمن، ثلاثة أشهر ونصف الشهر كانت حافلة بالفرح، مليئة بالأنس، عامرةً بالمسرّات، عرف فيها شعوراً لم يَعْتَدْ عليه ولم يُعانِهِ في ما مضى من عمره، أحسّ بثقله ووهجه ولهيبه وهو يستعد للوداع! والعاشق المدنف مسكونٌ بهاجس الرحيل، هو لفرط فرحه باللقاء، يرتعد من

(76) من قصيدة للشاعرة، مجلة **العرفان**، عدد أيلول، 1950، ص1028.

مجرّد فكرة السفر والفراق؛ كان من قبل خالي البال، مرتاح الفؤاد، فإذا هو الآن مأخوذ بسعادة غامرة وكآبة تتوالد، هو موزّع القلب بين جذل اللقاء الحالم وشجن الوداع الغائم؛ فمن يهدهد حبه إذا رحل، وأيّ نداوة وهناء ومرح سوف يفتقد؟!

في الأيام الأخيرة من زيارته، كان حسن الأمين مضطرباً، قلقاً، خائفاً من الموقف الصعب، موقف الوداع الحزين، حيث تهرب الأفكار ويخرس اللسان وتموت الكلمات على الشفاه، وتطلّ من العيون ـ من غليان الداخل ـ دموعٌ تقرّح الجفون، تحرق وتحفر عميقاً، وتفصح حيث تعجز اللغة وتصعب العبارات، دموعٌ تعبّر عن الأمل المفقود، تترجم أوجاع حبٍ بلا أفق، محكوم بالبعاد وسط عالم مظلم أشبه بليل الأسى الطويل، الكثيف السواد، الجاثم ثقيلاً على الفؤاد!

إنه حب بقي مكتوماً على الآخرين، حبٌ بين شاعرين مفرح موجع، ما كاد يختلج حتى اهتزّ، كان محكوماً بالبعاد، بظمأ لا يعرف السُّقيا ولا نداوة الريّ، حب كامن كأسرار العذارى يتحدث عنه العشاق والمحبّون ويشمّون نفحات عطره وأطيابه في ورود الدروب وأزهار الروابي والمنحنيات!

سافر حسن الأمين من الأرجنتين وقد ترك قلبه فيها وأخذ معه قلباً آخر تفتّح عليه وأزهر «وددت لو لم ألقَ الحب، ارحمني يا إلهي ما أردت الحبَّ ولا أن أكون محبوبة، ولكن أتت ليلة وبعدها صباح، وفيه الحب، وشعرت أنني مملوكه ـ تقول نيليدا في قصيدة عنوانها قبضة ـ لم تستطع الهرب! لقد انتصر الحب وقبض عليّ»[77].

(77) مجلة **العرفان**، عدد أيلول، 1950، ص1028، ترجمة الأديبة سعاد صارمي.

وفي قصيدة ثانية عنوانها (أحبك) «حزنت حياتي لأنها أحبتكَ، تشنّجت مشاعري لأنها عبدتْكَ، والآلهة ـ بدون رحمة ـ **فطرت قلبي بإبعادك عني**». لم أفكّر أبداً بأن الحب يهلك، وأن الليالي وحدها مظلمة، فهي مظلمة حتى في النهار؛ عندما يبلغ الحب الذروة، تتلاشى ساعات العمر عندما يُبْرز سرَّ حبِّه، يا إلهي ارحمني! فإنني أحتضر! لست مذنبةً إن كان الحب إثماً، فامتزاج الحب بالعبادة أحلى من عنبر الآلهة؛ **وحُبُّكَ الآن أعماني**»[78]!

في الجهة المقابلة كان حسن الأمين يصوّر وداعه لـ(نيليدا) الباكية الصامتة المضطربة الشاردة في قصيدة (رعشات):

جفونكِ نديانةٌ بالدموعْ وفي شفتيكِ النداءُ الصريعْ
وقلبك يصرخ هل من رجوعْ؟! ويعلم قلبكِ أنْ لا رجوعْ!!

■ ■ ■

يداك تلوّح خلف القطارْ وعيناك تشخص عَبْر القفارْ
وصوتك أخفاه عني المدى ولم يبق معكِ سوى الإذّكار[79]!!

■ ■ ■

مضيتُ **على لوعتي** مطرقا أرى أن **ليل الأسى أطبقا!**
وأن العهود العذاب انقضتْ ولم يبقَ من أملٍ في اللقا!

■ ■ ■

سأنأى إلى عالمٍ مبهمٍ ودهرٍ ـ كليل الأسى ـ مظلمِ

(78) مجلة **العرفان**، عدد أيلول، 1950، ص1028، ترجمة الأديبة سعاد صارمي.

(79) حسن الأمين، **من بلد إلى بلد**، ص333 ـ 334.

وحسبيَ حين تضجّ الهموم   وتطغى الفواجع أن تبسمي[80]!

■ ■ ■

هذه «الرعشات» لم يسبق للسيد حسن الأمين أن أحسَّ بها، هي اهتزازات الروح تجاوبت في الجسد، وحرّكته، وهدهدته، ونشرتْ في مفاصله دبيب السعادة فأشرق بالهناء وماج بالحنين، هذه الرعشات، أيقظت في داخله أحاسيس كانت كامنةً هامدةً لا تعرفُ اضطرابَ نبضاتِ القلب المتراقصةِ جذلاً لموكب الحب الآتي على أجنحة الطيب!! كل ما في الشاعر هيمان، لقد ارتوى الفؤاد من الهوى العارم، وشرقت الروح بنداوة لم تَعْتَدْها، وازَّيَّنَ الخيالُ بالصّور الفاتنة التي لا تبارحه، حتى تحسبه يقول: لكأني بَعْدَكِ غيري بالأمس، أحسُّني إنساناً جديداً استيقظ على حلاوة الدنيا، وجمالات الحياة، وأطياف المنى، تأكّدي أنك أيقظتِ في أعماقي كوامن الوجد ورقيق المشاعر، وأحلى الأماني، يكفيني أنني عرفت معكِ أياماً سعيدة أعيش على طيبها وذكراها ما دام لي قلبٌ ينبضُ بحبِّكِ الكبير:

رويتِ فؤادي هوىً عارما   أظلُّ الحياةَ به حالما
فأنى رنَوْتُ وأنى مشيتُ   أرى وجهك المسترق الباسما

■ ■ ■

إلى المهرجان مَشَينا معا   نخالُ النجوم لنا مَهْيَعا
وتخسَبُنا حلماً شارداً   ولحناً بثغر الهوى ممتعا!!

■ ■ ■

(80) حسن الأمين، من بلد إلى بلد، ص333 - 334.

رأيـتـكِ **فـاهـتـزَّ قـلـبـي جـوًى** ومـرّ بـنـفـسـي خـيـالُ الـنـوى
سـأرحـل عـنـك بـعـيـداً فـمـن **يهدهد ـ بعدك ـ هذا الهوى**[81]؟

في فرح السيد حسن حزنٌ غائر، وخوفٌ مُقْلقٌ من الآتي، من بُعدٍ محتوم، ووجع مقيم، وذكريات أيامٍ جميلة لحب بلا أفق، ولا أحلام، لا يعرف به أحد.

سـأنـأى وحـبُّـكِ يَـهـدي خـطـايْ وطيفكِ في البعد يُذكي هوايْ
سـأسـأل عـنـك الـدّجـى والـصـبـا لـيـشـرق قـلـبـي ويـزكـو صـبـايْ!

■ ■ ■

سـأنـأى ولـم تَـروَ مـنـكِ الـعـيـونْ **ولا بُحْتُ يوماً بحبي الكمين**
سـأنـأى ويـبـقـى الـهـوى نـغـمـةً على الثغر، أو حُلُماً في الجفون!

■ ■ ■

أيـمـضـي الـزمـان ولا نـلـتـقـي؟ ويـظـمـا هـوانـا ولا نـسـتـقـي؟!
وتـبـقـيـن فـي **الـغـرب** هـيـمـانـةً وأمشي بشوقٍ إلى **المشرق**[82]؟!

■ ■ ■

سـأُوهـي بـحـبّـك عـزم الـسـنـيـنْ نـجـيَّ الـهـيـام ألـيـفَ الـحـنـيـنْ
تـرفّـيـن فـي **خـطـرات الـخـيـال** فاهتف باسمكِ! هل تسمعينْ؟!

أتصور هذه القصيدة عزيزة على السيد حسن الذي سكب نفسه في كلماتها، وأذاب مشاعره في حروفها، وأعلن حبّه المسدود الآفاق،

(81) حسن الأمين، من بلد إلى بلد، ص333 ـ 334.

(82) المرجع نفسه، ص333 ـ 334.

المحكوم بسراب الآمال، وأوهام الأحلام؛ لقد شفَّ فيها حتى غدا رعشاتٍ تتوالى، وقلباً يحنو، ووجعاً يتحرك، وتساؤلاتٍ تبحث عن أجوبة. سوف يعيش على الذكريات، ولن يترك نفسه ضائعاً، حائراً، سيملأ وحدته بالسؤال عنها وقد أرهقه الرحيل! هذه القصيدة اعتراف بحب تمنّاه في أحد الأيام حتى إذا وصل إليه وجده من دون أفق، لذلك حملت القصيدة هذا **الكمّ المتراكم من الوجع والألم**، وسراب الأمل، والشوق الكبير. فصوّر معاناته بصراحة غير معهودة، وبانت الصور جميلة رغم تكرار بعض الكلمات (سأنأى، سأسأل)، إنه تكرار الإصرار على الصدق والوفاء ومعايشة العذاب.

لقد غدت هواجس (بارانا Parana) ـ النهر الجميل الذي يخترق الروساريو ـ مبعث الشوق والذكريات، فعلى ضفافه أو في شواطئه عرف الشاعر الهوى، وشرب كؤوسه المترعة، ـ بعد أن كان عصياً ـ وفي الروساريو أسلم قياده دون مقاومة لسحر العينين.

أشواطىء (الباران) ما أزكى الربى	وشى الربيع صدورهن فأبدعا
أشواطىء الباران حسبُكِ في الهوى	أن قد **شربتُ هواكِ**جاماً مُترعا
يا غادة (الباران) أذكَيتِ الهوى	لولاكِ هذا **القلب ظل** مُمَنَّعا
أسلمتُ للعينين **صَعْبَ مقادتي**	ومشيت للخدّين **أسعى طيّعا**
إن ضاق فهمي عن لغاكِ فإنّما	قلبي يعي، ما كان قلبُكِ قد وعى!!

ذلك القلب العصيُّ على الهوى، عاد غَيْرَ ممنَّع مع أنّ رسائل الهوى كانت بين القلبين، والحب أساساً له لغته الخاصة يتفاهم بها المحبون عبر النظرة واللفتة والإشارة والبسمة وكلها تتخطّى وسائل التواصل التقليدية لأن للحب كيمياء خاصة تربط بين المحبّين، وتشد

أحدها للآخر، وتنشر في دنياهما الهناء والبهجة، وترتفع بهما إلى عوالم مسحورة مزروعة بالأحلام والأمنيات والأوهام.

■ ■ ■

وقرأ حسن الأمين قصيدة خاطبته بها (نيليدا) عنوانها أمس، اليوم، غداً: «**أمسِ للمرة الأولى** كان لنا، لقاء نظرتنا الملتهبة، **رعشة** خفيفة مرّت بروحي، لقد **فهمت أنك تهواني**. لم أكن حرّةً، لا، لم أكن حرّة لأستسلم إلى حلاوة هواك الغالب، وفي لحظة صلاة شفاهي، صلاة سرّي، حدّثتُك عن أحزاني!!

عُدْتَ **اليوم** إليّ بلهفةٍ، وفي سرّ حبي أسلمتُكَ عيوني، أحزان أحلامي تنهمر، لماذا تلحُّ إذاً بالمجيء؟! **غداً** يبدو الفجر بزينة العرس، وسيحدثني بين أشجاني عن الأمس[83]!!

وتابع قراءته القصيدة الثانية وعنوانها غداً: «قلت لك غداً فابتسمتَ، قلت لك غداً فحزنتَ، فكّرت كيف أقدرُ أن أتهرّب من حبّك، ولم تؤمن بي لعدم صبرك، الآن وقد تلاشى الغد بين الشوق؛ الآن، وقد عاودنا يومٌ آخر في الحياة، الآن، بعد أن أحاط بتاجه مساحات أُخَر، وكانت تلك السعادة شعوراً غريباً؛ **أفهم أنه كان للغد خطرٌ غريب**، **أفهم ما هي الحياة في الحب**، ولكن الوحدة ستضمُّني إليها، **وليس بعد الآن غدٌ ولا هيامٌ ولا أحلام**، **الغيوم** في الأفق تحدثني، **والغد يقول لي إنك لن تعود**»[84].

■ ■ ■

---

(83) مجلة **العرفان**، عدد تموز، 1950، ص1029.

(84) المرجع نفسه، عدد تموز، 1950، ص351.

سافر السيد حسن من الأرجنتين موجع القلب، دامع العينيْن، حزيناً حتى الموت، وخلّف وراءه قلباً كسيراً وشاعرة تسكنها الوحدة وليس لها غد ولا هيام ولا أحلام؛ كان كلٌ منهما ينزف أسىً، وينشج في داخله، ويرى كل ما يحيط به أسود قاتماً، لقد أسدل الحزن سُجُفَه على النظر، وغطّى ما تقع عليه العين، وحجب مواطن الجمال، ولفّت الكون ظلمة كعتمة القلب المكلوم!!

وحدي أقلّب ناظريَّ هنا ... وأسائل المجهول أين أنا؟!

الحلم مرٌ فليت لي جفناً ... من بعده يستعذب الوسنا

والأغنيات **هَوَتْ وما اكتملتْ** ... **ألحانُهنَّ ولا انتَظَمْنَ غنا!**

وحدي أغالب لوعةً غلبَتْ ... وحدي **أصارع بالأسى** الزمنا!!

يا ليت أحبابي وقد بعدوا ... يدرون ما يلقى الحبيب هنا!

سكنت حواشي الليل، غير **أسىً** ... في صدريَ **الحرّان** ما سكنا!

أرنو لعلَّ على الدجى حلماً ... قلبُ الحبيب له **هناك** رنا

أجد الربى والبحر منفرداً ... والغيد والأمواج والسفنا

قفراً يضجّ بخاطري شجناً ... **صحراء تزخر لوعةً وضنا**[85]

إنه ضياع مخيف، وقلق يتوالد، عندما يُحاصرنا الأسى، وتمرّ الفرصة السانحة، ولا نعرف كيف نحافظ على سوانحها، فتعيش في الماضي مع الأوجاع والأحزان والنّدم، وتغدو الحياة قفراً أو صحراء مليئة بالمتاعب والضنك والذكريات.

■ ■ ■

(85) حسن الأمين، من بلد إلى بلد، ص332.

السيد حسن الأمين ونيليدا شاعران، تلاقيا وتعارفا وتبادلا الإعجاب وسَرَتْ في قلبيهما الظامئيْن، ونفسيهما المرهفتيْن، مشاعر المودّة، واشتعلت جذوة الحبّ على اختلاف لغة التخاطب.

وحسن الأمين ـ في داخل نفسه ـ ربما كان قد اتخذ قراراً بالبقاء عازباً، وصرف النظر عن الزواج وفضّل التفرغ لإكمال ما وعد به والده من البحث والتأليف، لكن رحلة (الروساريو) كانت **حدثاً مفاجئاً** في حياته، إذ اكتشف أن قلبه ما زال ليّناً طرياً يستجيب للصبا الفتّان، والجمال الآسر والعيون الساحرة والبسمة المغرية والأطياب والدلال ومباهج الحياة!!

ربما يكون السيد حسن ونيليدا عندما تلاقيا وجد كلٌ منهما ما يبحث عنه في الآخر، لكنه خاف على نفسه من الفرح القادم، لا لأن الزمن قد سرق الحلم، بل لأن اتخاذ القرار بالانعطاف يقلب نمط حياته رأساً على عقب، وهو ما يخيفه ويحذر منه لأنه ما عاد يتناسب مع عمره، أو يوقعه في المجهول الغامض، وكان للتردد أثر حاسم في طيّ هذه الفترة المشرقة من حياتيهما. ومع ذلك فقد كان الحب الوليد صادقاً **عميقاً حفر حتى المهجة** ولبّ العظم، وسرى مع الدم، وألهم شعراً وفرحاً، وأورث حزناً ووجعاً، كان حباً محكوماً بالبعاد والسفر، حباً بلا أفق، حباً أزهر ولوّن عمريْهما وبقي خالداً في أيامهما رغم أنه لم يبلغ آخر مطافه، ربما لاختلاف العمر والبيئة واللغة، وربما لخوفٍ من المستقبل أو لجبنٍ أو تردّد حال دون النهاية السعيدة، وبقي نوراً أضاء عتمة عمريْهما، وجذوة سعادة ما طال أوارها، كان كالتماع البرق في الليل المظلم، واستمر ـ معهما ـ الصورة الزاهية حتى النَفس الأخير، وبقي شعرهما وحبهما بكل اختلاجاته ورعشاته وأفقه المسدود دليلاً على

الصدق والوجع والمعاناة. هذا الحب الغامر ـ ولو جاء متأخراً ـ يثبت أن الإنسان لا يعرف السعادة والفرح والحزن والشجن إلا إذا أحبَّ وعشق وتعبَّد وإذ ذاك يعطي ويبدع ويحلّق ويترك ترانيمه وأدبه زاداً عطراً لأجيال لاحقة في الزمن الآتي.

■ ■ ■

والجدير بالملاحظة أن السيد حسن الأمين هو الذي حمل معه قصائد نيليدا ـ مترجمةً ـ إلى لبنان، ونشرها في مجلة **العرفان**، ونشر كذلك قصائده في نيليدا التي ظلّ يتحدث عنها بعاطفة لافتة؛ إلا أنني لم أعثر على ما يدلّ على تواصلٍ بينهما لاحقاً، مع أنه كان **حباً عميقاً**، وتجربةً مفرحةً ومؤلمةً تجلّت في أشعارٍ مسكوبة من خلجات النفس ونبضات الفؤاد...

كان حلماً لم يتحقق، وسراب أمل أخمدته التقادير!!.

حسن الأمين الموسوعي

«يصف السيد حسن الأمين أيام والده الأخيرة قائلاً: «في أيامه الأخيرة، وقبل أسبوعين من وفاته، دخل عليه أحد أصحابه ممّن كانوا يعنون بموسوعة (أعيان الشيعة) ويتابعونها فصلاً بعد فصل؛ فلما رآه الوالد وكان مسجّى على الفراش ذرفت عيناه وبكى، فراح الرجل يهوّن عليه ويسلّيه، فلما مضى طلب إليّ أن أحضر له ورقةً وقلماً ـ وكان الطبيب نهاه قطعياً عن كلّ قراءة وكتابة ـ فتلطفت في عدم تلبية طلبه، فتضجّر تضجّراً لا أنساه أبداً. فأخذني آخذ من الرقّة والحنان وأجبت طلبه وخرجت.. فلما دخلت ناولني الورقة وقد كتب عليها:

بكيْت وما بكيتُ لفقد دنيا أفارِقُها ولا خلٌ أليفِ

ولكني بكيتُ على كتاب تصنّفه يداي إلى صنوفِ

سيمضي بعد فقداني ضياعاً كما يمضي شتاء بالخريفِ

فلما قرأتها عدت إليه وقلت له: «أسأل الله أن تُكمل أنت كتابك بنفسك، ولكن إذا جاء أمر الله الذي لا رادّ له فإني أعاهدك بأن كتابك لن يمضي ضياعاً وسأقف حياتي كلها عليه»[86].

وأعيان الشيعة موسوعة تتضمن تراجم وسير أهم الشخصيات

---

(86) جلال شريم، حسن الأمين في مواجهة مع التاريخ، ص50.

الشيعيّة في التاريخ الإسلامي، وكان المؤلف قد وصل فيها إلى حرف (السين) عند وفاته في 30 آذار سنة 1952.

في مرحلة أولى عمل السيد حسن على جمع المخطوطات وتصنيفها وترتيبها، وإكمال نواقصها، وكتابة ما لم يكتب، وقد تطلّب ذلك عدة سنوات، أتبعها بالسفر مراراً إلى العراق وإيران جمعاً للمعلومات حتى توصّل إلى إنجاز هذا العمل الشاق (خمسة عشر جزءاً ـ الطبعة الرابعة).

في مرحلة ثانية قام بإصدار (مستدركات أعيان الشيعة ـ عشرة أجزاء) ذكر في مقدمتها: «كان والدي لا يترجم للأحياء، وبعد وفاته توفي كثيرون فتتبّعت أسماء بعضهم وأعددت لهم تراجم، وقد وجدت أثناء مطالعاتي معلوماتٍ تتعلق بمن سبق أن نُشِرَتْ تراجمُهُم، فرأيت أن أضيف عليها وأخرجها في مجلد مستقل»[87].

إلاّ أن أهم منجزات السيد حسن كان إصدار (دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ـ 26 جزءاً ـ طبعة سادسة) وكان الدافع لإصدارها «ما وجد في دائرة المعارف الإسلامية ـ التي أصدرها المستشرقون ـ من الأخطاء الفظيعة التي كان الدافع إليها سوء النيّة حيناً والجهل وقلة الاطلاع أحياناً أخرى يضيف إلى ذلك أن المترجمين علّقوا على الأخطاء المتعلّقة بغير الشيعة بما يصحّحها، وتركوا الأخطاء المتعلقة بالشيعة بدون تعليق، هذا فضلاً عن مواضيع شيعيّة كان يجب أن تكتب وتبحث لا لأنها شيعية بل لأنها حقائق، مجرد حقائق زيّفها المزيفون جهلاً أو عمداً»[88].

(87) حسن الأمين، **دائرة المعارف الإسلامية الشيعية**، ج26، ص50.

(88) المصدر نفسه، ص51.

أمام هذا التحيّز بالكتابة إمّا عن جهل أو سوء نيّة أراد حسن الأمين أن يظهر الحقيقة التي غابت عن المؤلفين ـ على الأقلّ فيما عنى الشيعة ـ مؤكّداً أنه بذلك يُدافع عن الإسلام فكراً وفقهاً وتاريخاً وفلسفةً وأدباً؛ خاصةً «وأن المكتبة العربية ما زالت تفتقر إلى الأبحاث المجرّدة الشاملة حول موضوع المجتمعات الدينية الذي كثيراً ما جاءت الأبحاث فيه متميِّزةً سلباً أو إيجاباً حسب انتماء واضعها وميوله، فالإنسان عدوّ ما ومن يجهل، وإذا ما أردنا التغلُّب على روح العداء عند البعض تجاه البعض الآخر، فلا بدّ لنا من تعريف البعض على البعض الآخر بشموليةٍ وعمقٍ وصدقٍ وتجرد، وهذا التعارف لا بدّ له من أن يؤدّي رسالة تواصل خيرٍ بين المجتمعات»[89].

لذلك كان العمل الموسوعي يتطلّب ثقافةً واسعةً، وإحاطةً شاملةً بالمواضيع التي يجري بحثها، ومن الصعوبة بمكان أن نقع على إنسان تتوفر فيه شروط العالم المتبحِّر في مختلف ميادين العلم؛ ومن هذا المنطلق كان العمل الموسوعي بطبيعته مهمّة تقتضي أن يتعاون **فريق من أصحاب الاختصاص ـ كل في حقله ـ على إخراج الموسوعة التي** من شأنها أن توصل للناس المعارف التي استطاع أن يتوصّل إليها المختصّون.

«إن مجتمعنا لا يقرأ ـ يقول السيد حسن ـ ولا يعرف أهميّة أن تصدر دائرة معارف، ولا يعي قيمة موسوعة كأعيان الشيعة ومستدركاته، ومن يريد التأكد مما أقول ليسَ عليه إلا أن يسأل مَنْ يصادفه، ويقومَ باختباره إن كان يعرف أن هناك ـ في بلدهم ومحيطهم ـ قد صدرت دائرة معارف!! بينما هذا العمل يُعدُّ **حدثاً ضخماً** في تاريخ الشيعة، بل في

(89) طوني مفرج، **موسوعة المجتمعات الدينية في الشرق الأوسط**، دار نوبليس، بيروت، الطبعة الأولى، 1995، ص6.

تاريخ الثقافة العربية الإسلامية»[90].

كان حسن الأمين يعي بعمقٍ ما تعنيه أعمال التوثيق والكتابة والتأليف؛ كان في مطالعاته وقراءاته يُفرد جانباً (معلومةً) عرضت له أثناء بحثه وتفتيشه عن موضوع معيّن، لتصبح فيما بعد تمهيداً لكتاب، أو مشروعاً لمقال، أو إضاءةً على ناحيةٍ لم تأخذ موقعها من الحدث؛ «كانت تمرّ عليّ بين الفينة والأخرى ـ خلال عملي بالأعيان ودائرة المعارف والمستدركات ـ مواضيع تلفتني، وأحسّ بأنه من الواجب الكتابة فيها بشكل مستقل حتى صدرت لي مجموعة من الكتب ذات المواضيع التاريخيّة والمتفرقة (30 مؤلفاً) والحمد لله فإن هذه الكتب تجد دائماً قرّاءً ينتظرونها ويطالبونني بالمزيد»[91].

«تعدّدت ميادين عمل السيد حسن الأمين، كان له في كل ميدان صولة وجولة ـ يقول حسن البعيني ـ فهو المربي الناجح، والمحامي اللامع، والقاضي النزيه، والباحث المنقّب المهتمّ بالمطالعة والكتابة، والحاضر لمعظم المؤتمرات، وكاتب الرحلات، والموسوعي الذي يقوم بما يوكل عادةً للمؤسسات، قلائل هم الذين أنعم الله عليهم بتعدّدية المواهب، وتوفّر الإمكانات، وأقلّ منهم الذين يستغلّونها لمصلحتهم ومصلحة مجتمعهم ووطنهم والإنسانية؛ والسيد حسن من هذه القلّة التي استفادت وأفادت ممّا أنعم الله عليها إذ جمع بين المواهب والإمكانات، والنشاط الدؤوب، والهمّة العالية، والعزم الذي لا يلين، فأعطى بسخاء وأبدع، وأسدى الخدمات الجلّى»[92].

---

(90) جلال شريم، **حسن الأمين مواجهة مع التاريخ**، ص68.

(91) المرجع نفسه، ص67.

(92) حسن الأمين، **دائرة المعارف الإسلامية الشيعية**، ج26، ص328.

في معرض التقييم للجهد المضني في العمل الموسوعي، أستعير ما قال الأديب الفرنسي دنيس ديدرو (1713 ـ 1784) الذي قضى اثنين وعشرين عاماً (1750 ـ 1772) مديراً مسؤولاً لإخراج دائرة المعارف مع مجموعة من أدباء وعلماء فرنسا:

«إنني أميّز بين طريقتين في درس العلوم: الأولى زيادة كمية المعارف بواسطة الاكتشافات، وبذلك يستحق صانعها أن يقال فيه إنه مبتكر والثانية، تقريب هذه الاكتشافات، وتنسيقها فيما بينها، حتى تتسنّى، لمزيد من الناس، سُبُل التوعية، فيساهم كل واحد، وعلى قدر إمكانيته في نبراس عصره»[93].

(93) مسعود الخوند، موسوعة التاريخ الجغرافية، دار روّاد النهضة، جونية، 1994، ج1، ص3.

خاتمة

الطفل الذي ولد في دمشق في بيت السيد محسن الأمين حيث نشأ وترعرع، حمل الكثير من موروثات هذا البيت ومما كان يدور فيه من نشاطات وحوله من تحركات.

كانت حارة الأمين ـ بعلاّمتها ـ مكاناً متوهجاً في دمشق، وكانت دمشق عاصمةً رائدة في الوطن، وكان الوطن يغلي، والأحداث تتابع، والاستقرار يهتزّ.

وقعت الحرب العالمية الأولى، وكانت مجاعة سفربرلك، وتعليق الوطنيين على المشانق ومعاهدة سايكس ـ بيكو، وإعلان وعد بلفور، ووضع سوريا الطبيعية تحت الانتداب، وإسقاط الحكم الفيصلي، واستشهاد يوسف العظمة، وتوالي الثورات ضد السلطة المنتدبة.

كل هذه المآسي كانت كفيلة بأن تؤجج الرفض وتخرج أجيالاً ناقمة!!

وكان الشاب حسن الأمين واحداً من هؤلاء.

نضج وعيه ـ في المدرسة ـ على ما ينتاب الوطن، وتجذّر في الجامعة، وتعمق في المجتمع فكان بين طليعة الطلاب، ثم تأصّل عبر نضاله ليحمل القضية الوطنية ويتابع هذا الجهاد بين الناس.

مارس التعليم في الثانويات والجامعة، وعرف كيف تتفتح الطاقات الواعدة، وكيف تكون العلاقة بين المعلم وأصدقائه الطلاب.

وعمل قاضياً وجهد ألاّ يضيع حقاً لمظلوم وألاّ يدع ظالماً يعتدي على الضعفاء وعندما تأكد أن الوظيفة قيد يحدّ من حرية الحركة، ويمسّ

طهارة الموقف، استقال غير آسف، وعاد مجدِّداً ـ ولبضع سنوات ـ إلى التعليم، وكان قد قارب الأربعين، فرسم لنفسه سبيلاً اختاره والتزمه ووقف عليه عمره. وعاش بقية أيامه ـ وكانت طويلة ـ بين خزائن الكتب وأكداس المخطوطات، في المطالعة والتفتيش والبحث والكتابة نثراً وشعراً، وفي حقول الأدب والتاريخ والاجتماع والدّين واللّغة، وقد نظم شعراً في حلّه وترحاله، شعراً غنائياً تناول فيه الوطنيات والوجدانيات والغزليات، فكان صادق العاطفة، رقيق المشاعر، فيّاض الحنين عظيم الوفاء، موزّع الفؤاد، تراه عراقياً في دمشق، وسورياً في بغداد وعربياً في لبنان، ولبنانياً في بلاد العرب، وفي غزله كان عفيفاً، تقليدياً، يتوكأ على الشعراء الغزليين، ويتحدث مع النجم والليل والقمر، إلا أنك تقع لديه على نمطٍ مختلف في قصائده في الأرجنتين حيث ينعطف إلى الداخل فيصوّر الرعشات والنبضات واللوعة والدموع والأحلام والهوى العارم والألحان والحنوّ واهتزاز القلب، وخيال البعاد، وليل الأسى وضجيج الهموم وطيف الحبيب ووجد العاشق ولهيب المشتاق!!

شعر السيد حسن الأمين بقي ضمن أوزان الخليل، فلم أعْثرْ له على قصيدة أو أبيات من الشعر الحديث، مع أنه تبرّع بإرسال قصائد لنازك الملائكة في بدايات نظمها ونشرها في مجلة **العرفان**، وكتب يقرّظ المحاولات الأولى لبدر شاكر السيّاب.

حسن الأمين القاضي والباحث والرحّالة والموسوعي، لم يستطع أن يتوارى خلف مواضيعه ويخفي حسن الأمين الأديب والشاعر والإنسان الحسّاس بمشاعره المرهفة، كان باستمرار يطلّ من بين سطوره ويتجاوب مع المعذّبين والموجعين، فيرقّ ويذوب حنانا؛ وقد كتب يصف نفسه:

«تطلعت في حناياي، وَجِلْتُ في أعماقي، وتلفتُّ في خاطري،

وحدّقتُ في وجداني، فرأيت أني لا أزال ذلك الرجل العريق في إنسانيته، الرجل الذي يبكي للباكين، الرجل الذي لا يطيق احتمال الدمع في عيني إنسان بل يحسّ وكأنّه شهبٌ من نار تنصبّ على جوانحه»[94].

(94) حسن الأمين، حل وترحال، ص186.

الفصل الرابع

حسن الأمين مؤرّخاً

مقدمة

أ ـ البحث والتاليف

ب ـ حسن الأمين والتاريخ

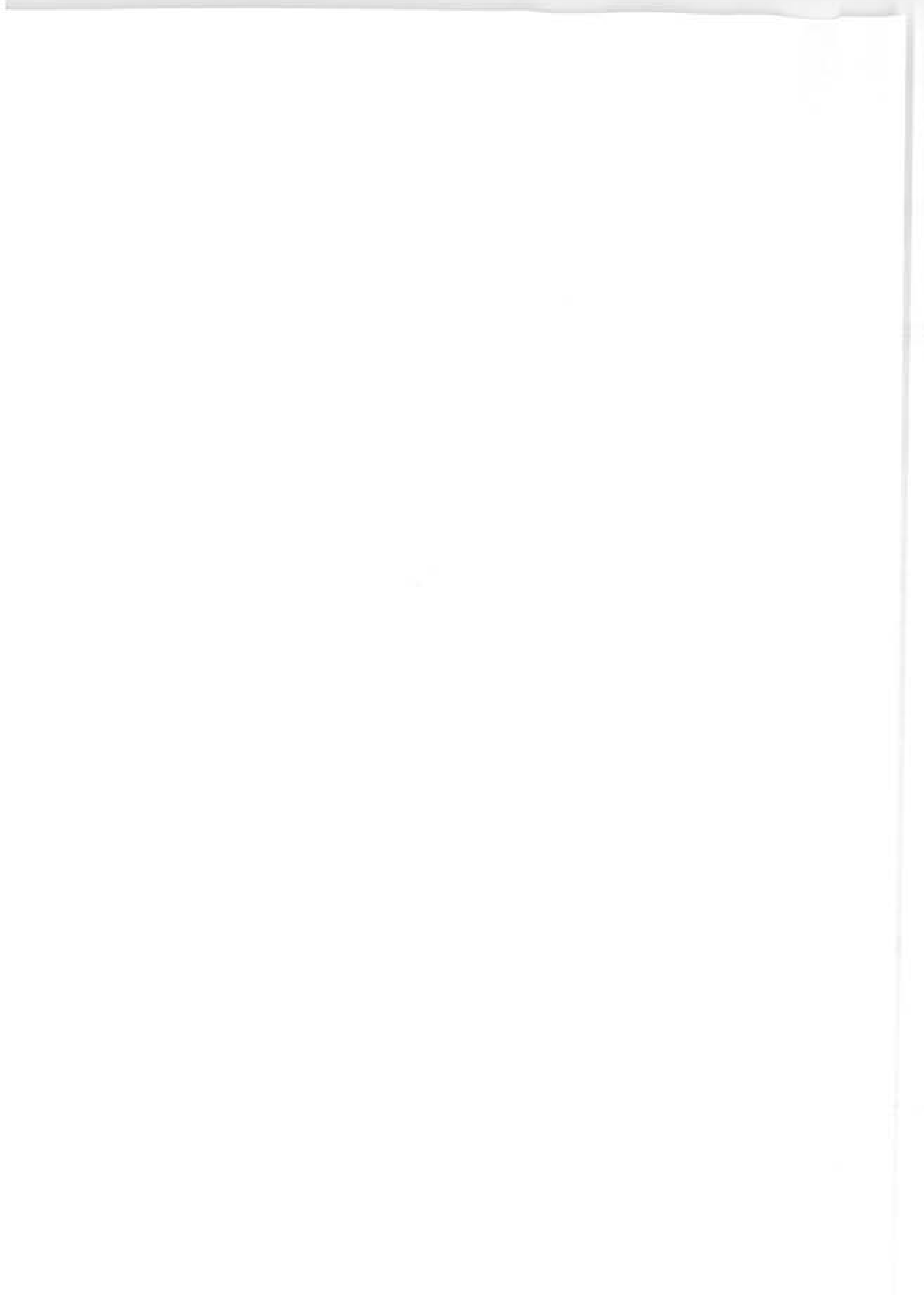
1 ـ التاريخ العاملي

2 ـ التاريخ الإسلامي

3 ـ صلاح الدين الأيوبي (نظرة مغايرة)

جـ ـ هل كان حسن الأمين مؤرِّخاً؟

خاتمة



مقدمة

قديماً قال الشاعر العربي:

يجودُ علينا الخيّرونَ بمالهمْ ونحنُ بمالِ الخَيِّرينَ نجودُ

وإذا كنا نعطي ممّا أخذناه جوداً وكرماً، ونجعل الخير مشاعاً ننعم به مع الآخرين، ليعمَّ نَفْعُه المجتمع، فإن رجال الفكر الذين ينهلون المعارف من الكتب ويغتنون بها، يجهدون لنقل ما حصّلوه إلى الناس، لتنوير عقولهم، وفتح الآفاق بأمدائها الواسعة أمام مداركهم؛ إنهم يجودون بعلمهم الذي أخذوه عمّن سبقهم من العلماء، وبما قد يضيفونه إليه؛ هذا التواصل المعرفي بين المجتمعات البشريّة يتم عَبْرَ الكتب والمدارس ووسائل التعليم، وعَبْرَ المطالعة والبحث، بحيث نزداد غنىً كلما انْكَبَبْنَا على القراءة، وعمّقنا ثقافتنا، وزدنا معارفنا، وإذا **كانت العين هي** التي ترينا جمالات الوجود، وروائع الخلق، وبدائع الألوان وأنوار النجوم، ومفاتن الطبيعة وتراقص الظلال، فإن **المطالعة هي التي** تنقل لنا سِيَرَ الماضي، وحكايات الغابرين، وتفتح أمامنا سجلّ حياتهم، وتاريخ مجتمعاتهم، وما عملوا وما لاقوا، وتلقي الضوء على معارفهم وتصلنا بهم؛ إنها كتاب الخليقة يعرض شريط الحياة، ويضيء على الماضي،

ويرينا الحاضر، ويستشرف المستقبل؛ المطالعة هي ركيزة الثقافة وأسّ المعارف، ومَعْلَمُ الغد الزاهر، ومَنِ اتّخذها من صغره سبيلاً، وراح يتزوّد بواسطتها ويغتني، فلا بدَّ أن نلقاه كاتباً أو أديباً.

وحسن الأمين منذ صغره «كان يتوق إلى **مطالعة كل ما هو جديد** من الكتب، من الصحف والمجلات اليوميّة التي كانت محصورةً على الأغلب بجريدة (المفيد)، وعدا المجلات الشهرية التي كانت هي الأخرى محصورة بمجلة (العرفان)، كان يدّخر كل ما يستطيع ادّخاره من المال القليل، لشراء الكتب الحديثة، فمما قرأه في تلك السن **مذكرات جمال باشا**، (وما رأيت وما سمعت) للزركلي و(ملوك العرب) للريحاني بالإضافة إلى مطالعاته المبكرة في تلك الأيام، ككتب والده التي كان ينشرها في ذلك الحين وخاصة في التاريخ الإسلامي، وقد كان لقراءته كتابه (الإمامة والسياسة) يدٌ في انجذابه إلى التاريخ وظل يتابع كلَّ ما تقع عليه يده من كتب التاريخ في مكتبة والده»[1].

في مكان آخر يذكر أنه «كانت له مطامح ثقافية، فإن طول جلوسه إلى جانب والده في مكتبته، ورؤيته له عاكفاً ليلاً نهاراً على القلم والورق والكتاب وانتشار كتبه في العالم الإسلامي؛ كل ذلك ركّز في نفسه الطموح الثقافي وحده، وكأكثر ما كان يستهويه **الاطلاع على التاريخ**، وعندما انتمى بعد ذلك إلى الجامعة السورية لم يكن له بدٌ من الانتماء إلى معهد الحقوق، لأنه كان هو وحده الموجود ـ عدا الطب والصيدلة ـ **ولم يكن في الجامعة معهد للآداب والتاريخ** ولو كان ذلك موجوداً لانتمى حتماً إلى معهد التاريخ ولما دَرَسَ الحقوق»[2].

(1) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص54.

(2) المصدر نفسه، ص106.

كان السيد حسن الأمين يفضّل أن يدرس التاريخ، المادة التي تمنّى أن يتخصص فيها لأنها هوايته المفضّلة، ولمّا لم تمكّنْهُ الظروف من تحقيق هذه الهواية، فإنّه عاد لاحقاً وانكبَّ على خوض غمراتها، وولوج ميادينها، وكتب كثيراً فيها، وعالج مواضيع لاقَتْ هوًى في نفسه، أو تصدّى لمناقشة مواضيع خلافيَّةٍ أثارت كثيراً من الغبار (صلاح الدين الأيوبي)، لكن أكثر ما انصرف له كان التنقيب عن تاريخ جبل عامل، وإلقاء الضوء على الجوانب الغامضة فيه، وإبراز المواقف اللافتة لزعمائه، وكشف آثار علمائه وأدبائه، خاصة وأن هذه المنطقة كانت على هامش الأحداث بين فلسطين وجبل لبنان، ولم يُشَرْ إلى تاريخها إلا عَبْر ارتباطه أو تفاعله مع ما كان يجري بين هذيْن القطريْن، لذلك كله جهد السيد حسن الأمين أن يضيء على هذه المنطقة، التي اعتبرها قضيته الأولى، وكان آخر ما كتب مقالة ـ أرسلها ليلة وفاته (الإثنين 14/10/2002) إلى مجلة (شؤون جنوبية) التي نشرتها في عددها العاشر (تشرين الثاني 2002) ـ عن نابغيْن اثنين نسبا إلى مدينة صور وهما علي المحسن الصوري ومحمد الكراجكي[3].

«كان المؤرخ حسن الأمين كما وصفه ـ نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى الشيخ عبد الأمير قبلان ـ صادقاً، محباً، متميّزاً في سيرته وسلوكه، صلباً في مواقفه، غزيراً في معارفه، تميَّز بفكر متوقد وإرادة مصمّمة على كشف خبايا التاريخ وإبراز محطاته الكبرى، وإظهار الشخصية العاملية وإنصافها»[4].

هل وفّق السيد حسن الأمين في أن يكون المؤرّخ؟ وهل اعتمد

(3) جلال شريم، **حسن الأمين مواجهة مع التاريخ**، ص167.

(4) حسن الأمين، **دائرة المعارف الإسلامية الشيعية**، ج26، ص161.

المنهج العلمي الموضوعي؟ وهل اعتمد الوثائق وأخضعها للنقد؟ خاصة أن «علم التاريخ لم يعد سرداً مسطحاً تراكمياً لأحداث الماضي بقدر ما هو علم يمثّل حركة الماضي ببناها الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية والثقافية المتفاعلة انطلاقاً من الوثائق والمصادر الموثوق بها»[5]؟

هذا ما سنحاول أن نعرض له في الصفحات اللاحقة.

أ ـ البحث والتأليف

«كنت خلال إقامتي في النبطية ـ يقول السيد حسن الأمين ـ أغتنم بعض أوقات الفراغ فأكتب في البحوث التاريخية والأدبية وأنشرها في **مجلة (الرسالة)** القاهرة الأسبوعية وكانت يومذاك أوسع المجلات العربية انتشاراً. ومما نشرتُه فيها مناقشتي لعباس محمود العقّاد في بعض ما ورد في كتابه (عبقرية الإمام)، وقد بلغ من دقّة تلك المناقشة وصوابها وتهذيب عباراتها، أن العقّاد والمعروف بعناده مع مَنْ ينتقده، وشدّته على مَنْ يناقشه وعدم تحمّله لأية ملاحظة ـ سلّم لأول مرة في حياته الأدبيّة وربما لآخر مرّة بصواب ما اعترضت به عليه. وقد ردّ في العدد التالي في مجلة الرسالة الصادرة في 10 كانون الثاني/يناير 1943 وجعل عنوان ردّه (خلافٌ يستحق الاختلاف) وهذا وحده كافٍ بتسليم العقاد بصحة ملاحظاتي»[6].

وقبل أن أعرض المناقشة أشير إلى أنني لم أقع إلاّ على هذا المقال للسيد حسن في مجلة **الرسالة المصرية**، وأن العدد المشار إليه يحمل الرقم 548 والسنة هي 1944 وليس 1943 كما أورد خطأ.

(5) عصام خليفة، **أبحاث في تاريخ لبنان المعاصر**، منشورات دار الجبل، بيروت، 1985، ص5.

(6) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص209.

قال السيد حسن معلّقاً على ما كتاب العقاد:

«لقد بلغ العقّاد العظيم الذروة في (عبقرية الإمام) فجاء كتابه على خير ما تجيء الكتب، من قوة الأسلوب، ونضج البحث، وعمق التحقيق، والنفاذ إلى أغوار الأشخاص، غير أن لنا على الكتاب بعض الملاحظات التي نرى لزاماً أن نتوجّه بها إلى المؤلف الفاضل بعد أن رأينا الحقائق وحدها كانت هدفه ومبتغاه؛ يقول المؤلف في الصفحة 157 في معرض بحثه عن حكومة الإمام (وكان أنصار الإمام أبداً من الفرس والمغاربة والمصريين أكثر من أنصاره بين قريش، خاصّة، وبين بني هاشم على الأخص، وبين قبائل العرب جميعاً على التعميم). والذي نعرفه ـ يوضح السيد حسن ـ أن جيش الإمام من أكبر قائد إلى أصغر جندي كان جيشاً عربياً خالصاً قوامه تلك القبائل العربيّة الشهيرة التي ما خالطتها عجمة ولا شابتها هُجنة، وأن مؤيّدين له كانوا صفوة المهاجرين الأنصار وخلاصة المسلمين الأقحاح الذين أنبتتهم رمال الجزيرة العربية وغذّاهم نخيلها»[7].

وكان ردّ العقاد ـ الذي أثلج صدر السيد حسن الأمين ـ حاكم النبطية والأستاذ الفاضل ـ يتضمن شكراً، وجميل تحية، وكريم ثناء، مع التوضيح أن «ليس بين الأئمة جميعاً من له نصراء في الشعوب الأخرى يساوون نصراء عليّ بين المسلمين من غير العرب سواء في الزمن القديم أو الزمن الحديث وأن المقصود بالأنصار هم شيعة الإمام الذين يشايعونه خاصة ولا يشايعون غيره»[8].

كان السيد حسن ينشر مقالاته في مجلة **العرفان**، مجلته الأثيرة

(7) مجلة الرسالة المصرية، العدد 548، الثالث من كانون الثاني/يناير، 1944، ص.

(8) المرجع نفسه، 1944، ص.

والمقروءة كثيراً في جبل عامل والعراق والمغتربات الأفريقية، وفي آذار 1964 بدأ ينشر بعض مقالاته في مجلة **العربي** الكويتية التي كان الدكتور أحمد زكي المصري رئيس تحريرها «وكنت عاكفاً على مواصلة البحوث التاريخية متخذاً من مجلة **العربي** مجالاً لقلمي مظهراً خفايا التاريخ الإسلامي، ومصححاً كثيراً من الأغلاط الشائعة، بالنقد والنقض، فظل الدكتور أحمد زكي يحثني على المتابعة إذا استشعر مني تباطؤاً»[9].

أهم الأغلاط الشائعة - التي أشار إليها السيد حسن الأمين - والتي نشر حولها أول مقال له في مجلة **العربي** كانت حول معركة عين جالوت التي دارت بين المغول والمماليك (في رمضان 658هـ - 1260م) «ففي أذهان الناس جميعاً أن قائد المعركة هو الظاهر بيبرس، وآخر ما قرأ من ذلك كتاب فيليب حتي، وآخر ما سمع قول أستاذ تاريخ في بلد عربي، سأل المتسابقين في التلفزيون عن اسم قائد معركة عين جالوت فعجزوا عن الإجابة، فقال لهم: هو الظاهر بيبرس، وهذا القول لا نصيب له مطلقاً من الحقيقة التاريخية، ومن المؤسف أن كل ما يتعلق بمعركة عين جالوت قد شُوّه تماماً، والذي قاد المعركة بل الذي لولاه لما جرت أصلاً ليس الظاهر بيبرس، إنه الملك المظفّر قطز، وهذا مثل على **تزوير** الحقائق، وعلم **ظلم المؤرخين** للرجال من أمثال الملك قطز»[10].

وبين سنة 1964 و 1974 نشر السيد حسن الأمين تسعة عشر مقالاً تتناول بمعظمها التاريخ، وتاريخ الأدب، وشخصيات أدبية، لينقطع بعد ذلك عن النشر في مجلة العربي بسبب الحرب اللبنانية وانقطاع خروج

(9) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص210.

(10) المصدر نفسه، ص210.

الرسائل من لبنان طوال سنتين كاملتين[11] (آخر مقال نشره قبل وقوع الحرب كان في العدد، ثم 184 (آذار 1974 ص108/ 111. وعنوانه: عندما غزا المغول المسلمين أول غزو)، ليعود سنة 1995 وينشر **آخر** مقال له في المجلة في عدد أيلول رقم 442 ص104/ 107 عن صلاح الدين الأيوبي (نظرة مختلفة)[12].

ويشير السيد حسن الأمين إلى أن كتابه «**الغزو المغولي** كان أول دراسة مستوفاة لتلك الأحداث التاريخية الرهيبة، وقد حوى من التفاصيل والإيضاحات والتصحيحات ما جعله من أوسع المراجع للاطلاع على عصر الطاغيتين جنكيز وحفيده هولاكو، وقد طُبع مرتين، ولما أريد طبعه للمرة الثالثة توسع به بإضافات كثيرة جعلته يزيد على الضعفين من حجمه الأول مما غيّر موضوعه فأسماه (المغول بين الوثنيّة والنصرانيّة والإسلام)[13] ثم إن الحديث عن الغزو المغولي لا يتمّ إلا بالحديث عن نتائجه، وما أدّت إليه هذه النتائج من مصائر البلاد المغزوّة وكذلك في مصائر الغازين، لا سيّما وأن هذه المصائر **كانت فريدة في التاريخ، شاذّة** عما كان محتوماً فيه من تأثر المغلوب بالغالب، لا الغالب بالمغلوب؛ فالمغول الذين غزوا البلاد الإسلامية وثنيين معادين للإسلام انتهوا بعد سيطرتهم على أجزاء من هذا العالم إلى مسلمين»[14].

(11) توزعت مقالات السيد حسن في مجلة العربي كما يلي: (مقالان 1964، ثلاث مقالات 1966، مقال 1967، أربعة مقالات 1968، مقال 1969، مقالان 1970، مقال 1971، مقالان 1972، مقالان 1973، مقال 1974، وآخر مقال 1995).

(12) حسن الأمين، **حل وترحال**، ص210.

(13) حسن الأمين، **المغول بين الوثنية والنصرانية والإسلام**، دار التعارف، 1993، ص5.

(14) حسن الأمين، **الرضا والمأمون وولاية العهد**، بحوث دار الجديد، الطبعة الأولى، 1955، ص5.

كان حسن الأمين محقاً في نظرته إلى واقعة خارجة عن المألوف تتجلّى في انبهار المغلوب بالغالب. ومحاولة تقليده، والسير على خطاه؛ كانت ملاحظته جديرة بالالتفات إليها وهو يرى تحوّل المغول إلى الإسلام، وهم أمراء الساحة والمنتصرون، ليصبحوا لاحقاً حملة راية الإسلام بعد أن شكّلوا الخطر الداهم الذي كان يقضّ مضاجع المسلمين، ويهدّد استقرارهم وحضارتهم.

في مقدمة كتابه **الرضا والمأمون وولاية العهد** يقول السيد حسن الأمين: «هناك **صفحات كثيرة** من تاريخنا كان يجب أن تُجلى بأقلام حديثة بعد أن ظلّت مَطْوِيَةً خلال ما تراكم من هذا التاريخ في أقبية الماضي السحيق، **وهناك مفاهيم أُخِذَ** بها على غير حقيقتها، وظلّ هذا الأخذ متداولاً، ينقله جيل عن جيل دون الانتباه إلى ما فيه من تجنٍّ على الحقيقة، إن محاولة المأمون، الخليفة العباسي، نقل الخلافة إلى الرضا علي بن موسى حدث من أضخم أحداث التاريخ الإسلامي، كان يمكن له لو تمّ أن يغيّر مجرى التاريخ، ومع ذلك فإن هذا الحدث لم يُعنَ به إلا سطحياً؛ فلم ينتبه أحد ـ مثلاً ـ إلى أن المأمون ترك منصب ولاية العهد شاغراً ثلاث سنوات لم يختر خلالها أحداً لشغله، ولم ينتبه أحد إلى أن المأمون تجاوز ولده الأكبر في اختيار ولي العهد مع أن السائد منذ معاوية حتى هارون الرشيد هو اختيار الأبناء لولاية العهد».

ويتابع «ونحن عندما ندرك أن عهد هارون الرشيد شهد ذروة التوسع والاستقرار في دولة مترامية الأطراف غنيّة الموارد؛ يأخذنا الخوف إلى ما آلت إليه حرب الأخوين التي انتهت بمقتل الأمين (سنة 198هـ). وإعلان المأمون خليفة على المسلمين، وكان من الطبيعي أن يعهد بولاية العهد لولده العباس، لكنه لم يرَ في ابنه الكفاءة المطلوبة، فترك منصب

ولاية العهد شاغراً لثلاث سنوات، ليعلن بعدها قراره بتنصيب علي بن موسى بن جعفر ولياً للعهد، وكانت تلك مفاجأة كبرى لم يَرْتَحْ لها كثيرون من الأقارب ورجال البلاط والمتعصبين ضد البيت العلوي (كانت البيعة في الخامس من رمضان (سنة 201هـ) ولم يَطُلِ الأمر حتى فوجىء الناس بوفاة علي الرضا شهيداً بالسمّ في مدينة طوس وقيل بسنا آباد، وقد اتهم المأمون بدس السم له في العنب وقيل في ماء الرمان»[15].

أصدر السيد حسن الأمين كتابه **صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين** وقال في تقديمه «لم نقصد في الأصل كتابة بحوث مستقلة عن صلاح الدين، وإنما جمعنا ما كنا قد نشرناه مقالاتٍ متفرقةً في الجرائد إما عرضاً لبعض أحداثه، أو رداً على دعاوى مناصريه، لذلك قد يتكرّر ذكر الأمر الواحد أكثر من مرة بحسب ما يقتضيه العرض أو الرد. ثم أضفنا إلى تلك المقالات بحوثاً كان لا بدّ منها؛ وإذا رأى القارىء فيما نقدمه إليه في الصفحات شيئاً غير مألوف لما في ذهنه عن صلاح الدين، فهو لن يرى إلا حقائق من مدعومة بالنصوص التاريخيّة المدوّنة في أمّهات كتب التاريخ، ونحن في كل ما كتبناه في هذا الموضوع لم نبغِ إلاّ وجه الحق كشفاً عن الحقائق في تاريخنا، تلك الحقائق التي عملَ على طمسها المبطلون»[16].

هذا الكتاب أثار ضجّة كبيرة، وكانت ردودٌ على ما جاء فيه، واتهامات للمؤلف بالتعصّب وبالتحامل على صلاح الدين، وبتشويه صورته كبطلٍ

---

(15) حسن الأمين، **صلاح الدين الأيوبي بين الفاطميين والعباسيين والصليبيين**، دار الجديد، الطبعة الأولى، 1995، ص5.

(16) جريدة **السفير**، الثلاثاء 11 نيسان 1995، ص17 و18، مقابلة أجراها - مع السيد حسن الأمين - في بيروت الصحافي إسماعيل فقيه.

عظيم، ومحرّر للقدس، وردّ السيد حسن الأمين على الردود مستنداً إلى مصادر من كتب تلك الفترة، وأصرّ على رأيه **وتعرّض لآراء بدت ثوابت مقدسّة لا يجوز المسّ بها أو التقليل من شأنها**؛ ومن هذه الزاوية كان حسن الأمين كمن يسير عكس الناس، أو كمن يثير وكر دبابير، كان بغنى عنه، وعندما قيل له، ألا ترى أنك تواجه مسألة شائكة وصعبة عندما تقف في وجه حقبة من التاريخ كانت مكرسة لإظهار صلاح الدين كبطل إسلامي ومحرّر، أجاب: أبداً فأنا لا أتكلم كلاماً هوائياً، وإنما اعتمدت على النصوص، الثابت ورودها في كل مصدر تاريخي»[17]!

ب ـ حسن الأمين والتاريخ

يقول السيد حسن الأمين:

«الحديث عن التاريخ سهلٌ وصعب في الوقت نفسه، وللأسف فإن التاريخ كان يُزوّر، في كل الأدوار لصالح الدول والمتسلّطين؛ من هنا كانت عملية الوصول إلى الحقيقة التاريخيّة من الصعوبة بمكان بعد أن استولت أشياء على عقول الناس بحيث باتت من المسلّمات عندهم، وهي في حقيقتها أباطيلُ في أباطيل»[18].

«ويذكر أن من أسباب تعلّقه بدراسة التاريخ، أنّه اطّلع على عدد من مجلة **المعرفة** المصريّة عندما كان طالباً في المرحلة الثانويّة، وكان فيه بحث عن نصير الدين الطوسي، واتهام له بالخيانة، وتوسّعت التهمة لتطاول مذهبه الديني، وكان السيد حسن قد سمع اسم هذا العالم يتردد

(17) جريدة السفير، الثلاثاء 11 نيسان 1995، (المقابلة نفسها مع الصحافي إسماعيل فقيه).

(18) جلال شريم، حسن الأمين، **مواجهة مع التاريخ**، ص73.

في المجالس التي كان يحضرها ـ عند أبيه ـ كعالم كبير، وجالت في نفسه أسئلة كثيرة: هل كان الطوسي خائناً بتعامله مع المغول؟ حسب زعم كاتب المقال، وإذا كان ذلك صحيحاً، فما ذَنْبُ أهْلِ مذهبه حتى يُقال عنهم خونة؟!

هذه الحادثة كانت سبب تحوّله تحوّلاً **كاملاً** نحو التاريخ، ودفعته إلى تتبع أمر نصير الدين ومحاولة جلاء حقيقة موقفه»[19]، وصدور كتابه لاحقاً: «الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي».

ألقى السيد حسن الأمين محاضرة في المؤتمر العالمي الذي دعت إليه «كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية» في مدينة مشهد الرضا احتفاءً بالذكرى الألفية للشيخ أبي جعفر الطوسي سنة 1970 نشرت على مراحل أربع في مجلة **العرفان** أعداد تشرين الأول وتشرين الثاني وكانون الأول سنة 1970 وعدد كانون الثاني وشباط سنة 1971 ومما ورد فيها: «حين تدفقت جحافل المغول بقيادة هولاكو حاملةً الدمار والفناء، مستهدفةً قَتْل العُلماء وحرق الكتب وهدم المدارس حتى خيّل للناس أن الوثنية قد طغت، والشرك قد تركّز، والجهل قد عمّ بين هذا الهلع المريع واليأس القاتل والخيبة الشاملة والاستسلام الكامل، برز نصير الدين الطوسي ليكون بطل الإسلام في عصره الذي يقاتل بالعقل والعلم، حين يعزّ عليه أن يقاتل بغيرهما؛ برز نصير الدين الطوسي وأدرك أن النصر العسكري على المغول أملٌ لا يتحقق، وأنه إذا كُتب على الإسلام الهزيمة الفكرية بعد الهزيمة الحربية كان في ذلك القضاء المبرم على الإسلام، فيتجرّد للمعركة بكل ما أوتيه من إيمان وإخلاص وتضحية وبكل ما تفرد به من

(19) جلال شريم، حسن الأمين، **مواجهة مع التاريخ**، ص74.

ذكاء ومرونة ومعرفة، فيخطط وينظم، فيكون أول ما يفعل أن يحفظ الكتب ويحفظ العلماء ويستولي على عقل الطاغية، ويروّض شارب الدماء، ويسوقه إلى تحقيق أهدافه، ويقيم في (مراغة) أعظم جامعة علمية عرفها العالم الإسلامي وينشىء فيها أكبر مكتبة يحشد لها العلماء والحكماء ويستحضرهم من الشرق الإسلامي واضعاً نصب عينيه الإسلام ونجاة الإسلام، **وقد فاز بما أراد**»[20]!

فهل يكون خائناً من يقوم بهذه المهمة، ويحوّل الهزيمة إلى نوعٍ من الانتصار المستحيل؟!

1 ـ التاريخ العاملي

يعرض حسن الأمين في كتابه **عصر حمد المحمود والحياة الشعرية في جبل عامل** «الحدود هذا الجبل الواقع بين نهر الأولي شمالاً (وتدخل فيه صيدا) ثم يذهب صعداً إلى الشرق شمالي قرية البراميّة ويتجاوز في خطّه قرية روم من جهة الشمال إلى جزين ويقطع جبل التومات منحدراً إلى مشغرة ويتصل بنهر الليطاني من شمالي سحمر إلى أن ينحطّ على ينبوع نهر الحاصباني ويتجه عندئذ جنوباً على مجرى النهر المذكور حتى سوق الخان من ناحية حاصبيا ثم ينتهي هذا الخط على ضفة بحيرة الحولة الغربية وينعطف غرباً وينتهي عند مصب وادي القرن جنوبي قرية البصّة فتدخل فيه قرية الخالصة وهونين وقَدَس ويوشع وصلحة والمالكية وتربيخا من القرى التي ألحقت بفلسطين»[21].

(20) **مجلة العرفان**، عدد كانون الأول، 1970، ص921.

(21) حسن الأمين، **عصر محمد المحمود والحياة الشعرية في جبل عامل**، دار التراث الإسلامي، بيروت، 1974، ص4.

وقد دعي بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة (عاملة بن سبأ) التي هجرت وطنها لأول بلاد اليمن، في حادثة سد مأرب وسكنت هذه البلاد[22].

وفي العام الثالث عشر للهجرة دخل العرب الفاتحون مدينة صيدا وصور وغيرهما، وفي عهد الخليفة عثمان نفي الصحابي أبو ذر الغفاري من الحجاز فوقع في جبل عاملٍ واتخذ لنفسه مقامين في قريتي الصرفند على الساحل وفي ميس الجبل على رابية تطلّ على الأردن ومن هذين المقامين انبعثت روح التشيّع في بني عاملة فعمَّ الجبل بأسره»[23].

«في العهد الأموي يبرز من جبل عامل شاعر موهوب رفيع الصوت يزاحم جريراً والفرزدق هو عدي بن الرقاع العاملي، ويبرز علماء في شتّى ميادين الفقه والحديث واللغة والتفسير والتاريخ حتى والحرب والسياسة»[24].

وقد خضع جبل عامل خلال العهدين الأموي والعباسي ـ وكذلك القول عن العهد الفاطمي ـ للدول الثلاث ـ وأول مرة عرف الاحتلال الأجنبي (الفرنجي الصليبي) كان سنة 504هـ عندما فاجأ بلدوين ملك القدس مدينة صيدا وحاصرها براً وبحراً، وكان الأسطول الفاطمي يدافع عن صور المحاصرة هي الأخرى فلم يستطع إنجاد صيدا فأرسلت وفداً يفاوض على التسليم بشروط، ووافق الإفرنج على طلب الأمان، فأمّنوهم على أحوالهم وأنفسهم وعسكرهم «ورحل عنها بلدوين عائداً إلى القدس، ثم عاد إليها وقرّر عليها عشرين ألف دينار فأفقرها»[25].

«وظلت صور والفرنج بين كرّ وفرٌ حتى سنة 518هـ عندما حاصرها

---

(22) محمد جابر بن آل صفا، **تاريخ جبل عامل**، ص25.

(23) مجلة **العرفان**، عدد تشرين الأول، 1968، حسن الأمين، ص458.

(24) مجلة **العرفان**، عدد أيلول، 1968، ص348.

(25) المرجع نفسه، عدد أيلول، ص350.

بحراً أسطول البندقية وقطع عنها الإمداد البرّي، وكان فتحها وهناً عظيماً لأنها من أحصن البلاد **وبسقوطها سقط جبل عامل بأيدي الإفرنج** وانتهى بذلك عهد ارتباط هذه البلاد بالبلاد العربية بحكم واحد وأصبحت كل منطقة تقابل مصيرها وحدها بما تملك من وسائل خاصة[26].

وبقي جبل عامل تحت حكم الصليبيين حتى كانت معركة حطّين (15 ربيع الأول 583هـ/ 4 تموز 1187) فاستسلمت قلعة هونين بسهولة، ثم قلعة أبي الحسن المعروفة بقلعة ميس وقلعة تبنين وقطعت الجيوش الإسلامية المسافة من تبنين إلى صيدا في يومين، ولم تقاوم جيداً، بل سلّمت بغير قتال[27].

إن أقدم نصّ على وجود العرب العامليين هو ما ذكره أسد رستم في مقال له في مجلة **العرفان** حيث قال: «الإسكندر الكبير، إذ تحدّته صور وصمدت في وجهه واضطر إلى أن يحاصرها حصاراً طويلاً، أحبّ في يوم من الأيام الحصار أن يروّح عن النفس برحلة صيد قصيرة، فقام من ضواحي صور ممتطياً جواده واتجه شرقاً متسلقاً جويا وتبنين، فوجد نفسه فجأة بين قوم من العرب، هكذا يقول أريانوس أقدم من أرّخ للإسكندر وأقربهم إليه زمناً»[28].

وهكذا جلا الصليبيون **عن أكثر جبل عامل**، ما عدا مدينة صور التي لم تستسلم إلا أمام المماليك بعد 104 سنين (مئة وأربع سنوات) (9 أيار 1291م/ 690هـ) عندما سقطت بيد الملك الأشرف.

(26) مجلة **العرفان**، عدد أيلول، 1968، ص 352.

(27) المصدر نفسه، عدد تشرين الثاني، 1968، ص614.

(28) المصدر نفسه، ص 621.

الأمر الغريب حدث سنة 638هـ (بعد حوالى 55 سنة على معركة حطّين) عندما «سلّم صاحب دمشق الصالح إسماعيل الأيوبي للفرنج صيدا وهونين وتبنين والشقيف ـ فيما سلّم لهم من البلاد ـ ليساعدوه على ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر (وقد تمرّد حماة قلعة الشقيف على الأوامر، فسار إليهم الملك الأيوبي وقام بنفسه بهذا الأمر وظل يضرب عميدهم (الحاج موسى) حتى قتله ثم صادر أمواله)»[29].

عندما احتل المماليك بلادنا، خضع لهم جبل عامل، وكانت مصر قاعدة حكمهم، وكان لهم نوّاب في دمشق يسمى الواحد منهم «نائب السلطة» وإلى هؤلاء كان يتبع جبل عامل. وفي عام 786هـ كان ملك مصر (برقوق) وكان نائبه في الشام (بيدمر)، وفي عهده قُتل في سجن دمشق محمد بن مكي الجزّيني المعروف بالشهيد الأول.

يرى السيد حسن الأمين أن «العاملين تغلّبوا على محنة الاحتلال الصليبي وعلى ما حمّلتهم إياه تلك المحنة من ضيق وتضييق، وقدروا على أن يؤسسوا مدارسهم وأن يحتفظوا بوجودهم كاملاً لا ينتقصه الجهل المؤدي إلى الذوبان والانحلال، وأن يظلوا أمناء على رسالتهم الفكرية الأصلية، فحرسوا اللغة العربية وصانوا علومها في ذاك البحر الفرنجي الطامي وحرسوا علوم الشريعة وحفظوها وأورثوا ذلك للأجيال التالية أمانة خالدة»[30].

لقد كان لموقع جبل عامل بين فلسطين وسوريا كحلقة اتصال أثر هام في تطور حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكثيراً ما تأثر

(29) حسن الأمين - صلاح الدين الأيوبي، ص 132/ 133.

(30) حسن الأمين، مجلة العرفان، عدد تشرين الثاني، 1968، ص621.

بتقلبات موازين القوى في هذه المناطق المجاورة مما أجبر زعماءه على تحصين قلاعهم والاعتناء بحصونهم المنتشرة على مساحة بلادهم وكان يحكمها مجموعة من المشايخ، يدير كل منهم إحدى مقاطعاتها، موزعين على عائلات (بنو صعب في الشقيف، وبنو منكر في إقليم التفاح وبلاد الشومر وبنو علي الصغير في بلاد بشارة) وأهم هؤلاء الزعماء كان الشيخ ناصيف النصّار (استشهد في معركة يارون ضد جنود الجزّار في 23 أيلول سنة 1781 وكان حاكم بلاد بشارة ومركزه في قلعة تبنين التي جدّد بناءها).

في مرحلة لاحقة تولّى زعامة الجبل حمد البيك أو حمد المحمود، وكان فارساً مقداماً، أديباً شاعراً أفقده إبراهيم باشا المصري سلطته، «ولما أقبلت الجيوش العثمانية تطارد المصريين ووصلت طلائعها إلى حلب وتحرك الأسطول الإنكليزي في المتوسط، استصرخ حمد قومه فلبّوه وزحف بهم ليلاقي الأمير مجيد الشهابي على جسر القاقعيّة فيهزمه ويمضي حيث يلتقي بالجيوش العثمانية في حمص، ويخوض معها معاركها كلها على المصريين فيعجب به القائد التركي عزّت باشا ويعيّنه حاكماً على جبل عامل ويطلب إليه أن يطارد المصريين ويتقدم إلى فلسطين فيلتقي بهم في سهل رميش ثم في وادي الجِشّ ثم في صميم فلسطين في شفا عمرو ويحتل صفد وطبرية وعكا والناصرة»[31].

وللإنصاف يقول حسن الأمين: «إن العامليين بقيادة حمد المحمود إذا كانوا قد انتصروا في هاتيك المعارك ـ على المصريين ـ فإن نصرهم لم يكن عسيراً، لأنهم كانوا في الواقع شبه منسحبين، بينما كان العامليون

(31) حسن الأمين، **عصر حمد المحمود**، ص 48.

وقائدهم مستقتلين مستعدين للصمود والاستبسال، وفي ساعات النصر يبرز الشعراء ملتفّين حول حمد، مندفعين في تهنئته والإشادة بانتصاراته والتغنّي بأمجاد الجبل.

جِدَّ المسير إلى (تبنين) تلقَ بها	شهماً إلى ذروة العلياء مرقاهُ
قد أصبحت من نداه روضةً وغدت	حصناً مكيناً وعين الله ترعاه
ربيعها (حَمَدُ) المنهلُ من يده	غيثٌ، لو الزمن استسقاه روّاهُ
مولى له خضعت هامُ الملوك وقد	ساس الأمور فأضحت طوعَ يمناه[32]!!

ويُقارِنُ السيد حسن بين حمد البيك وسيف الدولة ـ وكلاهما شاعر وفارس وحاكم ـ وحوله الشعراء والأدباء والمدّاحون؛ وبين البلاطيْن وبعض ما قيل فيهما، «ويبرز الشبه بين الأميرين الحمداني والوائلي، بعد أن أبرز الشبه بينهما في الشاعرية واحتضان الشعراء، ثم يبدو الشبه بينهما أكثر بروزاً في تباري شعراء حمد بوصف معاركه كتباري شعراء سيف الدولة في وصف معاركه[33].

■ ■ ■

2 ـ التاريخ الإسلامي

معظم ما كتب السيد حسن الأمين يندرج تحت هذا العنوان، فهو عندما كتب في الأدب تعرّض لتاريخ الأدب، وعندما كتب في الرحلات تناول تاريخ المكان وزمان الحدث ليربطهما بما جرى في الماضي الغابر،

---

(32) حسن الأمين، **عصر حمد المحمود**، ص 52.

(33) المرجع نفسه، ص 71.

وعندما أكمل **أعيان الشيعة** وأتبعها **بالمستدركات** كان (يسافر) في التاريخ وينقّب ويبحث ويحقق، وعندما انصرف للعمل الموسوعي وأصدر **دائرة المعارف الإسلامية الشيعية** كان (غارقاً) في بحار الماضي؛ ولم يختلف عليه الموضوع عندما انهمك في العمل التاريخي الصرف وأخرج كُتُبَهُ عن **صلاح الدين** الأيوبي، **والمأمون والرضا** وولاية العهد، وعن **الإسماعيليين والمغول ونصير** الدين الطوسي، وعن **الوطن الإسلامي بين السلاجقة والصليبيين**، وعن **الغزو المغولي للبلاد الإسلامية**، **وعن دولة الموحدين** الإسلامية، وعن **الشهيد** الأول، **وغارات على بلاد** الشام، **وعصر حمد المحمود**.

حسن الأمين من هذه الزاوية، رجل تفرّغ لكتابة مواضيع في التاريخ الإسلامي، وعاش معظم أيامه بين خزائن الكتب والمخطوطات، بين غبار الأوراق وسواد الحبر، وتبتّل للمطالعة والتنقيب والتفتيش والتقميش والبحث والنقاش والكتابة، كان يحاول أن يضيء على النقاط الغامضة، ويبرز المواقف التي أريد لها أن تبقى وراء الظلال؛ كان يجهد أن يأخذ العبر من دروس الماضي لنستفيد منها في الحاضر، ونستشرف من خلالها المستقبل؛ «كان يحدب على التراب يسير فوقه برفق، يتحسّسه بقدسية، ويحاوره ويشاطره هموم المقهور والمغمور والمُهمَل؛ في الثبات على المواقف والتمسّك بحق التراب، كان ينظر للآفاق، يهجس بمغامرات الفاتحين، يستعرض ما جرى، يستشرف ما سوف يجري، ويُودع صفحات دفاتره رؤى السَّبْر والصَّبْر والتوقّع والتحرير، المؤرّخ الكبير حسن الأمين صحّح الكثير من المغالطات التاريخية، وحذّر من الاستسلام للشائع المغرض على حساب الحقائق والأفعال والوقائع؛ نهى عن عبوديّة الرموز والأشخاص، ودعا للنظر إلى وجه الحقيقة الآخر، فوجه الحقيقة

مشرف مهما أخْفي أو تخفّى»[34].

السيد حسن الأمين الذي بدأ ينشر ـ بعض كتاباته ـ طالباً سنة 1926، بقي حتى يومه الأمير (الإثنين 14/10/2002) يكتب وينشر[35] ويعمل على تثقيف الناس، وإغناء عقولهم، وفتح عيونهم، وتعويدهم على الحوار، وعلى الإصغاء للرأي الآخر، ونبذ التعصّب والانغلاق.

«كان المحقق البحّاثة السيد حسن الأمين مركز أبحاث، فريق عمل في رجل واحد، كان الناسك الزاهد العامل بعيداً عن الرغبات الدنيويّة، والمكرِّسَ حياته للبحث والنضال وقد أسلم الروح وفي يده اليراع يخط سطور المعرفة»[36].

أخذ التاريخُ القسم الأوفرَ من رحلة عمر السيد حسن الأمين، فإذا ما استعرضنا قصائده وما نظم من الشعر، تأكدنا أنه لا يشغل حيِّزاً كبيراً من شبابه، وكان في الوطنيّات والحنين إلى الديار والوفاء والأشواق والغزل العفيف والوصف وبعض الإخوانيات والحماسة والرثاء؛ أما كتاباته النثريّة فكانت موزعةً بين المواضيع الأدبية ـ وفيها الكثير من تاريخ الأدب ـ والرحلات التي تشمل بدورها بعض التاريخ والاجتماع، والجدير بالملاحظة **أن الجزء المهم مما ألّف السيد حسن كان في التاريخ**، فإذا ما تصفّحنا أعيان الشيعة ومستدركاتها والموسوعة الإسلامية ودائرة المعارف الإسلامية الشيعيّة أدركنا أننا أمام عدد ضخم من الكتب والمجلّدات، وإذا كان عدد مؤلفاته كما ورد في دائرة المعارف قد وصل إلى ثلاثين

---

(34) محمد ماضي، جريدة السفير، 19 تشرين الأول، 2002.

(35) بلغت مقالاته في مجلة العرفان (حتى سنة 1987) 170 (بين قصيدة ومقال وتعليق).

(36) سعيد الصبّاح، جريدة السفير، 19 تشرين الأول، 2002.

مؤلفاً[37] فإن البعض منها قد تبلغ أعداده وحدها هذا الرقم.

هذه المؤلّفات موزعة على أكثر من دار نشر، وتَتَبُّعُها وعَرْضُها يُعدّان عملاً متعباً، «علماً أن السيد حسن ـ وقد نقل بَعْضُ الأصدقاء ذلك عنه ـ كان يقول دائماً، كل من يزورني لا يصدّق أنّي أعمل وحدي، وفي منزلي، وينقل عن أحد الباحثين الألمان الذي جاء إلى بيروت بهدف القيام بدراسة عن السيد الأمين كيف لم يقتنع أن كل أعمال حسن الأمين تتمّ في منزله المتواضع الذي رآه بعينه»[38].

أمام ظاهرة حسن الأمين يقف الإنسان مُقدّراً ومتجباً، كيف يستطيع إنسان بجهوده الفرديّة، وإمكاناته القليلة، وقدراته المتواضعة أن ينجز هذا الكمّ الهائل من المؤلفات، وما تتضمنه من معارف موزعةٍ على مختلف ميادين ما أبدع الفكر، وما جادت به العقول؟!

«في كتب العامليين ـ يقول عبد الرؤوف فضل الله ـ إشارة إلى سجدتَيْن: سجدةٍ لله وسجدةٍ للمعرفة التي أمر الباري بالسعي إليها وامتلاكها، وقد آمنوا بأن الثانية هي قربى يتقرّبون بها إلى الله ولذلك كانت لهم الأسبقيّة في عالم الفكر، وحسن الأمين واحد من آل بيت المعرفة، هو العلاّمة المؤرّخ الذي عرفته نوادي الفكر والأدب، انقطع إلى دراسة التاريخ، وبخاصة تاريخ علماء جبل عامل ـ كما كان شأن والده الكبير ـ بتقشّف الزهاد، فترفع عن الابتذال، وظل قريباً من الناس، ولم يَحْنِ رأسه إلا لله، لقد أدّى قسطه للعلى، والذين يؤدّون قسطهم للعلى لا ينامون لأنهم في يقظة الناس»[39].

(37) حسن الأمين، **دائرة المعارف الإسلامية الشيعية**، الطبعة السادسة، ج26، ص11/ 12.

(38) جلال شريم، **حسن الأمين في مواجهة التاريخ**، ص65.

(39) حسن الأمين، **دائرة المعارف الإسلامية الشيعية**، الجزء 26، ص83.

3 ـ صلاح الدين الأيوبي ـ نظرة مغايرة

حينما جاءت الحملة الصليبيّة الثانية إلى الشرق ـ بقيادة ملك فرنسا لويس الرابع ـ وملك ألمانيا كونراد الثالث، نتيجة لاستيلاء عماد الدين زنكي على الرها (1144م) ـ والذي اغتيل بعد سنتين على يد غلمانه ـ «كان ابنه نور الدين زنكي قد أصبح أكبر الأتابكة، خاصة بعد وفاة أخيه الأكبر غازي، أتابك الموصل سنة 1147، وتَنازُلِ أخيه الأصغر قطب الدين مودود عن أملاكه في الشام»[40].

«ويبدو أن الخليفة العباسي (المقتفي لأمر الله) هو الذي حثّ نور الدين على أخذ دمشق ومنحه تقليداً على البلاد الشاميّة وحتى على البلاد المصريّة التي كانت تعاني اضطرابات بسبب مقتل الخليفة الظافر سنة 1154 وطَمَعِ الصليبيين فيها»[41]. وقد نقل نور الدين مركز حكمه إلى دمشق وعيَّن حليفه أيّوب ـ صاحب قلعة تكريت ـ حاكماً عليها وأخاه شيركوه نائباً عنه وصلاح الدين رئيساً للشرطة.

في هذه الفترة هرب الوزير الفاطمي (شاور) من القاهرة وجاء يطلب النجدة والعسكر من نور الدين زنكي ضد (ضرغام) الذي طرده من الوزارة سنة 1164، وأطمع نور الدين في الديار المصريّة، فأرسل نور الدين أيّوب وشيركوه وصلاح الدين مع شاور على رأس حملة عسكريّة، انتصرت على ضرغام، وتولّى شاور من جديد الوزارة للخليفة العاضد، وطلب من شيركوه الرجوع إلى الشام، فامتنع، وعندها استعان عليه

(40) عبد المنعم ماجد، **ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها**، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1994، ص337.

(41) المرجع نفسه، ص378.

بالصليبيين الذين حاصروه مع صلاح الدين ثلاثة أشهر انتهت بعقد اتفاق خرج بموجبه شيركوه وصلاح الدين والصليبيّون من مصر.

عاد شيركوه - في مرحلة لاحقة - وبسبب ضعف حالة مصر - وأقنع نور الدين بإرساله على **رأس حملة ثانية** فاصطحب صلاح الدين، ودخلت الحملة إلى مصر سنة 1167 عن طريق البحر الأحمر، فطلب شاور من جديد مساعدة الصليبيين، فانتصر عليهم صلاح الدين في معركة البابيْن جنوبي المنيا الحالية، وانتهى الأمر باتفاق على خروج الفريقيْن مجدداً من مصر.

هذا التدخل أثبت **أن مصر لم تعد في أيدي الفاطميين**، وإنما أصبحت بين القوّتيْن المتسابقتيْن عليها، الدولة النوريّة، وفرنجة بيت المقدس، وبالأحرى في يد شاور الوزير المستبدّ. لكن دخول الصليبيين إلى الريف المصري شرقي الدلتا سنة 1168، وارتكابهم فظائع قتل النساء والشيوخ والرجال أخاف شاور نفسه، فجمع جالية الفرنجة في مصر وقتل منهم جماعة كثيرة، **ثم أحرق مصر** - أي الفسطاط - وأمر أهلها بالهجرة إلى القاهرة وحفر خندقاً وبنى حصناً بقصد عرقلة زحف الإفرنج، وقد أوقف حريق الفسطاط (دام 54 يوماً) تقدّم الفرنجة في البلاد فحاصروا القاهرة وضربوها بالمنجنيق، إلا أن أهلها قاوموهم بحماس شديد.

هنا أسرع نور الدين بإرسال شيركوه وصلاح الدين على **رأس حملة ثالثة**، وقيل إن أسباب ذلك أن الخليفة الفاطمي العاضد، أرسل إلى نور الدين شعور نسائه، وعندما اقترب جيش نور الدين من القاهرة رحل الفرنجة عنها.

المؤامرات المتبادلة بي جميع الفرقاء تسارعت وانتهت باغتيال شاور على يد صلاح الدين الأيوبي - وبموافقة الخليفة - وتبعها مقتل شيركوه - الذي لم يمكث في الوزارة أكثر من شهرين - مسموماً ربّما من الخليفة

وربّما من صلاح الدين «الذي تولّى بنفسه الوزارة وتلقّب بالملك الناصر وإن غلب عليه اسم السلطان، وقد كتب له العاضد سجلّ الوزارة (منشور) بيده مع أن الخلفاء لا يكتبون إلا نادراً «هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، وخوّله السلطات كلها بالسيطرة على الجيش والقضاة والدعاة إلخ؛ وألبسه الخليفة العاضد أمام جمع عظيم من موظفي الدولة خلعة الوزارة في يوم مشهود وهي جميعها بيضاء «شعار الفاطميين»، وكانت سنُّه لا تزيد عن اثنتين وثلاثين سنة»[42].

■ ■ ■

سأحاول أن أواكب صعود صلاح الدين الأيوبي ووصوله إلى حكم مصر وإلغاءه الخلافة الفاطميّة ثم ضم سوريا إلى حكمه ومحاربة الصليبيين والانتصار عليهم في معركة حطّين وتوقيعه معهم لاحقاً هدنة وضعت حداً لاستمرار الحرب، وذلك **لمناقشة آراء** السيد حسن الأمين في المواقف التي اتخذها صلاح الدين، وما استتبعت من ردود عنيفة لأنها لامست ثوابت لا يمكن السكوت على مجرّد التعرض لها أو المسّ بمقدّساتها.

■ ■ ■

«وكان **القضاء على الخلافة الفاطميّة وعودة المصريين إلى المعسكر السنّي أمراً تُمليه ضرورة الموقف الإسلامي** حتى يتمكن المسلمون في المشرق من توحيد صفوفهم أمام الصليبيين، فشرع صلاح الدين في إلغاء الخلافة الفاطميّة، فعزل قضاة مصر الشيعة وقطع أرزاقهم، وشرّد الدعاة، وأزال أصول المذهب (حيّ على خير العمل)، وحذف من النقش الديني على العملة صيغة العقيدة الشيعيّة (عليٌّ وليُّ الله) ومنع صلاة الجُمعة

(42) عبد المنعم ماجد، **ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها**، ص387.

بالجامع الأزهر وبجامع الحاكم (استمرّ هذا المنع حتى مجيء المماليك) وضايق أهل القصر وعيّن قراقوش مشرفاً على شؤونه، وأشرف على الجيش ـ وأبعد من أراد ـ ونظّمه وفقاً لطموحاته «وأعلن إلغاء الخلافة الفاطمية من مصر في أول يوم جمعة من محرّم سنة 567هـ (10 سبتمبر سنة 1171م) وأرجع الخطبة للخليفة العباسي (بعد أن كانت قطعت منذ مايتي سنة) وقد قيل إن الخليفة العاضد اغتمَّ ومات، وقيل كان في يده خاتم فيه سمّ، فمصّه ومات، كما قيل إن الطبيب الذي كان يعالجه لما رأى رغبة صلاح الدين في عزله امتنع عن مداواته»[43]. وبعد هذا الإلغاء استولى صلاح الدين على الكنوز التي كانت في خزائن الخلفاء، وتخلّص من الكتب، ووزّع الأملاك والأراضي على الأقارب والمقرّبين والأنصار، أما أولاد الخليفة وأقرباؤه فقد اعتقلوا وفُرّق الرجال عن النساء لئلاً يتناسلوا واستمروا معتقلين طول زمن الدولة الأيوبية ومجيء المماليك[44].

■ ■ ■

بدأت الخلافة الفاطميّة مع المعزّ لدين الله (341هـ ـ 952م) وانتهت مع سقوط هذه الخلافة (567هـ ـ 1171م) أي أنها استمرّت حوالى المئتي سنة، وتوزعت على مرحلتين: مرحلة أولى تميّزت بوجود خلفاء أقوياء حكموا فعلاً، ونشروا الأمن والمهابة، وبسطوا سلطتهم على كل البقاع التي وصلوا إليها وجعلوا البحر المتوسط بحيرةً فاطميّة بين تونس في الغرب وبيروت في الشرق وامتدت حوالي المئة سنة (حتى الفترة الأخيرة

(43) عبد المنعم ماجد، **ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها**، ص393.

(44) المرجع نفسه، ص395.

من خلافة المستنصر بالله، خامس الخلفاء من 427 ـ 487) وذلك عندما أنهى بدر الحمالي سلطة الخليفة الفاطمي المستنصر وسيطر على الدولة سنة 466هـ؛ يقول ابن الأثير عن سيطرة بدر الحمالي أمير الجيوش «إنه في هذه السنة وُلّي الأمر بمصر وتمكن من الدولة إلى أن مات وكان هو الحاكم في دولة المستنصر والمرجوع إليه؛ إن بدراً الجمالي لم يَكْتَفِ بإنهاء سلطة الخلافة الفاطمية والسيطرة على البلاد سيطرة كاملة بل تعدّى الأمر إلى ما يمكن أن نسميه إنشاء أسرة مالكة جديدة، وإن لم تحمل اسم الخلافة لاستحالة ذلك عليها، فقد كان لها جميع مظاهر وحقائق الأسرة المالكة من سلطة مطلقة وإقامة ولاية العهد»[45].

كان نور الدين زنكي **صاحب مشروع**، وقد رأى أن الظرف أصبح ملائماً لتوحيد الجهود وإعداد الجيوش لمحاربة الصليبيين، فقد أصبحوا بين فكّي الكمّاشة، أي بين سوريا ومصر، وهذا ما كان يحلم به، وصلاح الدين، مندوبه في مصر أصبح السيد الحاكم والسلطان المطلق، لكنه لاحظ مع مرور الوقت أنه يتلكّأ، وفي أحسن الأحوال ليس على عجلة من أمره، فقرّر نور الدين ألا يتأخر «وشرع بتجهيز السير إلى مصر لأخذها من صلاح الدين لأنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنج ـ وفقاً لما ورد في كتاب الروضتيْن في أخبار الدولتين النوريّة والصلاحيّة لمؤلفه عبد الرحمن المقدسي المعروف بأبي شامه في الصفحة 58 وما يليها من الجزء الأول ـ القسم الثاني المطبوع في القاهرة سنة 1962 ـ من ناحيته فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها بالشام لمنعه من الفرنج ليسير هو بعساكره إلى مصر، فإنه كان يعتقد أنّ نور الدين متى

(45) حسن الأمين، **صلاح الدين الأيوبي**، دار الجديد، بيروت، الطبعة الأولى، 1995، ص85.

زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم ولا يؤثر استئصالهم، وكان نور الدين لا يرى إلا الجدّ في غزوهم بجهده وطاقته، فلمّا رأى إخلال صلاح الدين بالغزو، وعلم غرضه، تجهّز بالسير إليه، فأتاه أمر الله الذي لا يرد»[46].

هذا النص ـ الوارد أعلاه، لم ينفرد بذكره أبو شامه، بل ذكره ابن الأثير، وذكر ابن النديم، وذكره غيرهما ـ يقول السيد حسن ـ وتعمّدنا نقل نص أبي شامه لأنه عميل من عملاء صلاح الدين وقوله فيه حجّةٌ من أقوى الحجج[47].

ويتابع النقاش فيما حصل لاحقاً بعد معركة حطين:

«لقد انتصر صلاح الدين في حطين وحرّر القدس، وكان المفروض أن يتابع الكفاح حتى تتحرّر البلادُ كلُّها، ولكن صلاح الدين لم يفعل شيئاً من ذلك، بل فعل العكس تماماً، فأقدم على أمرٍ لا أدري كيف يتجاهله كتّابنا وكيف يسقطونه من حسابهم وهم يتحدثون عن صلاح الدين؟! لقد فضّل في هذا الدور من حياته الراحة على الجهاد وآثر الاستسلام للفرنج على مقاتلتهم، بل فعل أكثر من ذلك، لقد سلّمهم البلاد سلماً بلا قتال، نعم سلّمهم البلاد والعباد سلماً بلا قتال، عقد صلاح الدين معهم (في 21 شعبان 588هـ) هدنة سلّمهم بها حيفا وقيسارية ونصف اللد ونصف الرملة وغير ذلك، حتى لقد صار لهم من يافا إلى قيسارية، ومن عكا إلى صور، وذلك ثابت بما أورده ابن شدّاد في كتابه (الأعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة)[48] وأكّده حسين مؤنس في

---

(46) حسن الأمين، **صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين**، ص151.

(47) المصدر نفسه، ص152.

(48) المصدر نفسه، ص154.

مقال له في مجلة العربي «بأن صلاح الدين تنازل للصليبيين عن جزء من الساحل يمتدّ من صور إلى حيفا»[49].

ويتابع السيد حسن الأمين معلّقاً «كان رأي الخليفة الناصر أن يُواصل صلاح الدين الكفاح حتى إجلاء الصليبيين عن آخر معقل لهم في بلاد العرب، وأبدى الخليفة استعداده لإمداده بما يحتاج من جيوش جديدة تكفي للقضاء على الصليبيين، ولكن صلاح الدين رفض وفضّل أن يهادن الصليبيين ويسلمهم البلاد»[50].

وقبل وفاته قسّم البلاد التي استولى عليها بين إخوته وأولاده، كما يقسّم أي مالك أملاكه بين ورثته، حتى إذا مات «تمزقت وانفصمت وَحْدَتها، وعادت مزقاً يصارع بعضها بعضاً، وقام الورثة يتنازعون فيما بينهم ويستنصر بعضهم بالصليبيين على البعض الآخر، حتى إن **الصالح إسماعيل** صاحب دمشق سلّم صيدا وهونين وتبنين والشقيف للصليبيين سنة 638هـ ليساعدوه على ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر، وفي سنة 625هـ سلّم **الكامل والأشرف ولدا العادل** أخي صلاح الدين، سلّما القدس وما حولها ـ للملك الصليبي فريدريك الثاني ـ والناصرة وبيت لحم وطريقاً يصل القدس وعكا، ويصف ابن الأثير هذه الرزيّة على العالم الإسلامي بقوله: واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه»[51].

(49) حسن الأمين، صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين، ص154.

(50) المصدر نفسه، ص155.

(51) المصدر نفسه، ص189.

ويتابع السيد حسن النقاش قائلاً:

«إذا كانت نتيجة معركة حطين هي فتح القدس، فإننا إذا استثنينا الميزة القدسيّة لمدينة القدس، فهي مدينة ككلّ المدن الفلسطينية، لا يعدو فتحها فتح أية مدينة من تلك المدن، وإذا كانت القدس قد فتحت فإن **القسم الكبير من فلسطين وغير فلسطين** كان لا يزال محتلاً. فالوقوف عند فتح القدس وما نال فتحها من ابتهاج المسلمين وسرورهم وتمجيد الفاتحين. إن الوقوف عند هذا كان معناه التغاضي عما لا يزال محتلاً من البلاد وعن وجود الصليبيين سادةً لتلك البلاد»[52].

■ ■ ■

الجدير بالملاحظة أن السيد حسن الأمين انتقد صلاح الدين الأيوبي كثيراً، وربما ظلمه على توقيع الهدنة مع الصليبيين لأنها أخّرت التحرير أكثر من مائة عام، وردّ عليه كثيرون منهم: عمر تدمري، وزكي المحاسني، وحسين مؤنس، ومحمد علي الضناوي، وعبد العزيز سالم، وياسين سويد وعصام محفوظ، وفهمي سعد، والشيخ طه الولي، وهاشم الأيوبي وقد نشرت هذه الردود في كتابه (صلاح الدين الأيوبي) واستغرقت ستين صفحة (من الصفحة 146 ـ 206) واشتملت أحياناً على تعابير فجّة، قاسية، لا تليق بعلماء وأدباء ومؤرخين، وأرجع كثيرون موقف السيد حسن من بطل حطين لخلفيّة مذهبيّة، خاصةً وأن صلاح الدين هو الذي ألغى المذهب الفاطمي في مصر وبدّد الكتب، وشتّت الدعاة، وحاصر الخليفة، وفصل بين الذكور والإناث من الأسرة الحاكمة حتى لا يتناسلوا وليموتوا من دون عقب، وتخلّص من الخليفة الذي

(52) حسن الأمين، صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين، ص115.

سلّمه كل مقاليد الحكم، ومنع صلاة الجمع في الأزهر وفي جامع الحاكم بأمر الله.

■ ■ ■

وقد شهدت بيروت في شهر نيسان سنة 1995 مؤتمراً بمناسبة مرور (800) سنة على معركة حطين ـ والواقع أنه عقد بعد مرور 808 سنوات، وكان معظم ما قيل رداً على ما كتب السيد حسن الأمين؛ وقد أجرى أحد الصحافيين مقابلة مع السيد حسن بدأها بطرح السؤال الأول عليه لماذا الآن بالذات فتح ملف صلاح الدين الأيوبي بهذا الشكل الواضح وخاصّة لأنك كتبت عنه سابقاً؟ فأجاب «لأن روح المؤتمر كان منصباً **للردّ على ما كنتُ كتبته** منذ ثمانية أعوام بمناسبة مرور ثمانماية سنة على معركة حطين ولم يكن هناك غيري تعرّض لصلاح الدين، فإذا لم يسمّوني في الردود فإنهم كانوا يعرّضون بي تعريضاً ظاهراً، ولم يكن في نيّتي نشر الردود في كتاب، لولا مئات الرسائل والمهاتفات التي طلبت ذلك بعدما لمست أن ما نشر هو حقائق لا يمكن إلا التسليم بها، وهي مأخوذة عمّن كتب تاريخ تلك الحقبة: كابن الأثير وأبي شامه، وابن شدّاد وابن العديم وأبي الفداء والذهبي، والعماد الأصفهاني الذي كان بمنزلة من نسمّيه (مدير دائرة الإعلام والدعاية) في حاضرنا[53].

يتابع السيد حسن «إذا استطعنا أن نقيس الماضي على الحاضر ألا ترى أن وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة في هذا العصر تقلب الباطل حقاً، والحق باطلاً، فإذا لم يوجد ما يقابلها من إبطال، يبقى

(53) مقابلة مع السيد حسن الأمين أجراها إسماعيل فقيه منشورة في جريدة السفير، 11 نيسان، 1995، ص17.

الباطل حقاً، والحق باطلاً، فمنذ أن تسلّط صلاح الدين على العالميْن الإسلامي والعربي، قضى على كل مناوئيه، وخفت به كل صوت، وأطلق العنان لوسائل إعلامه المكتوبة أن تزوّر كل شيء، فجاء الناس ولم يروا إلا هذه الوسائل المكتوبة، ولكن لحسن الحظ أن هؤلاء الإعلاميين الأيوبيين أنفسهم **كانت تفلت منهم نصوص لم يكونوا يقدّرون خطورتها،** مثال ذلك ابن شداد الذي كان موظفاً عنده في القضاء وألّف كتابه (العلاقة الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة)، ابن شداد يعترف بأن صلاح الدين **أعاد فلسطين أو معظمها ما عدا القدس إلى الصليبيين بعد انتصاره في معركة حطين** في الصفحة 177 من طبعة دمشق سنة 1963 حيث يقول: (لم تزل حيفا في أيدي الفرنج إلى أن فتحها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ثلاث وثمانين، فلم تزل في يده إلى أن نزل عنها للفرنج في المهادنة التي وقعت بينه وبينهم)[54].

ـ إسماعيل الفقيه: يتهمك البعض بأنّك متعصّب للشيعة في كتاباتك التاريخية ـ يجيب السيد حسن: هذه من التهم الظالمة المضحكة! والحقيقة، أنني **متعصب للحقيقة** أينما وجدت مصمّم على رفع الظلم عمّن ظلمهم مزيّفو التاريخ إلى أيّ مذهب انتمى هؤلاء المظلومون، والدليل أنني دافعت عن نور الدين في انتفاضته على الصليبيين، ونور الدين من أعدى أعداء الشيعة، ودافعت في بعض المواقف عن المماليك، والمماليك أعدى أعداء الشيعة، دافعت عن نور الدين وعن المماليك عندما شعرت أنهم في بعض المواقف ظلموا، **فإنصاف المظلومين في التاريخ هو هدفي.** ولمّا كان الشيعة ممّن اشتدّ الظلم عليهم

(54) مقابلة مع السيد حسن الأمين أجراها إسماعيل فقيه منشورة في جريدة السفير، 11 نيسان، 1995، ص17.

في تاريخهم، بل تعرّضوا لأفدح الظلم في كل أدوار التاريخ الإسلامي؛ تحقيقاً لهدفي في رفع الظلم عن المظلومين تاريخياً، بدا أن الإكثار في الدفاع عن تاريخ الشيعة هو تحيّزٌ لهم، في حين أن واقع الأمر هو تحيّزٌ للحقيقة، أينما كانت هذه الحقيقة، وإلى أي مذهب انتمت وإلى أي عنصرٍ رجعت[55].

■ ■ ■

أنا، لا أشارك السيد حسن أن القدس مدينة ككل المدن في فلسطين، وأرى أنها رمزٌ للقضيّة، وأن تحريرها كان حدثاً كبيراً لا سيّما في عصر الهزائم والانكسارات، وإذا كان السيد يعيب على بطل حطين أن يوقّع هدنة مع الصليبيين، أو لا يشارك خليفة بغداد نظرته إلى وجوب متابعة معركة التحرير، فاعتقد أن (أهل مكّة أدرى بشعابها)؛ وأن صلاح الدين ربما كان يتخوّف من إضاعة الانتصار الذي حقّقه لثغرات في معسكره أو تخوّفاً من الزلزال الذي أحدثه سقوط القدس في أوروبا، التي اعتقد أنها لن تتقبّله أو تسكت عليه.

كان المهم أن تبقى القضيّة حيّة، تبقى أمانةً ووديعةً للأجيال القادمة وللظروف المؤاتية، وقد تبيّن أن الزمن كفيل بذلك؛ فقد جاء المماليك بعد صلاح الدين واقتلعوا من الجذور الكيانات الغريبة التي رفضها الوطن ورذلتها الأمة، والتاريخ وحده كفيل أن يحكم على صحة المواقف، وإدانة أو تقدير القادة في المواقف الصعبة.

يبقى أن السيد حسن كتب كثيراً في التاريخ الإسلامي عامةً، لكنه اختصّ - إن جاز التعبير - بتاريخ الشيعة، لأنه كان يعتقد أنهم ظلموا، وأن

(55) جريدة السفير، المؤرخة في 11 نيسان، 1995، ص17/ 18.

عصر التدوين ـ كما العصور اللاحقة ـ أهملت تاريخهم وآراءهم على الأقلّ إذا لم نقل إنها تحاملت عليهم، وعندما رأى السيد أن عصره يسمح بالاستماع إلى الرأي الآخر، أحبّ أن يسدّ هذا النقص، ويطلع الناس على أفكار الشيعة وعقائدهم ونظرتهم إلى مختلف الأمور الدينيّة والفقهيّة ليدلّل أنهم مسلمون لم يخرجوا عن أركان الإسلام وعقائده وثوابته، وأن الذين رأوا أو كتبوا أو قالوا خلاف ذلك ظلموهم وتحاملوا عليهم وابتعدوا عن الحقيقة، ووقعوا في التعصّب والجهالة.

■ ■ ■

جـ ـ هل كان حسن الأمين مؤرخاً؟

كان السيد حسن الأمين يفضل أن يدرس التاريخ بدلاً من الحقوق، لو كان هذا النوع يومئذ موجوداً في الجامعة السورية، لأنه كان يحبّ هذا الاختصاص، ثم رأى نفسه لاحقاً يتوجّه نحو ما يهوى بالاختيار والضرورة، ويرضي ميلاً عزيزاً عليه.

حسن الأمين وَجَدَ نفْسَهُ في وسط هذا الميدان منكبّاً على دراسة التاريخ، والبحث عن حقائقه، وإلقاء الضوء عليها، ومناقشتها، وإبراز الصحيح منها، وكشف الأخطاء الواردة فيها، ودوافع كتابتها، والأغراض المشبوهة التي كانت سبب إيرادها، خاصّةً وأن كتابة التاريخ كانت في حالات كثيرة ممالأة للحاكم بغية كسب رضاه، ورغبةً في إلباسه فضائلَ الشجاعة والعدل والكرم وبُعد النظر، وتجريد معارضيه منها في الوقت نفسه.

كانت كتابةُ التاريخ شبيهةً بالإعلام الموجّه في العصر الحاضر، تحشر نفسها في التطبيل والتزمير والإشادة بالحاكم، وتصويره إنساناً فوق

مستوى البشر، لا همَّ له إلا تأمين الرّخاء ونشر العدل والرفاه بين رعيته، بينما أضحت في هذا الزمان علماً له قواعدُهُ الصارمة ومنجيّتُه الموضوعيّةُ وإشكاليتُهُ التي ترمي إلى الوصول للحقيقة المجرّدة البعيدة عن العواطف والميول والأهواء.

المؤرّخ اليوم - يشبه الطبيب الجرّاح - يأخذ الحَدَثَ، ويدرس أعراضه، وأسبابَه، ومكوّناتِهِ ووقائعَهُ ومضاعفاتِهِ وآثارها ويستخلص الحقيقة خالصةً مجرّدةً دون لبس أو إبهام.

المؤرخ كالجرّاح الذي يشرُحُ العضو المريض، ويدرسُ الإصابةَ وأسبابَها وانتشارَها ومضاعفاتها وكيفية الشفاء منها.

الغاية في كلا الوضعيْن، تهدف إلى تصوير الواقعة كما هي بكل تفاصيلها، وعرضها بشكل موضوعي، إلا أن التاريخ يبقى كذلك علْماً إنسانياً من الصعب ألاّ تُلامسَهُ العاطفة، أو تجنح نحوه ببعض الميل، الميلِ الذي لا يُغيِّرُ الحقيقة وإنما يُسْبغُ عليها مسحةً من خيال الظل الخفيفِ الذي لا يكاد يلحظُه أو يتحسّسُهُ إلا الراسخون في العلم.

إن دراسةَ التاريخ تمثّل - بالواقع - أساسَ الثقافة العميقة، واللّبنةَ الأولى في فهم حركة التطوّر الذي يرعى المجتمعات الإنسانيّة، فإذا لم تطّلعْ على الماضي يصعب عليك استشرافُ المستقبل، وإذا لم تستفدْ من استلهام تجارب من سبقك، يَعْدوكَ النجاح ويتجاوزُكَ التقدّم.

التاريخ لم يكن يوماً إلا السجلَّ المفتوحَ لمختلف مظاهر الحياة، والروايةَ الناطقةَ لنجاحات الناس وإخفاقاتهم على مرّ العصور، والوصفَ الصادقَ لمعاناتهم، وطريق معيشتهم؛ وكلّما أتيح لنا أن نستلهم الماضي ونتعلّم من دروسه نكونُ تلقائياً في الطريق الصحيح المؤدّي إلى قمة النجاح.

حسن الأمين وَجَدَ نفسه محكوماً بدراسة التاريخ، فقد ولج عالمه في باب الأدب عندما أخذ على عاتقه ـ بناء لوعد قطعه لوالده ـ إكمال سلسلة (أعيان الشيعة) وهذه المهمة الشّاقّة تتطلب ثقافة واسعة من الاطلاع على العصور التي عاش فيها هؤلاء الأعيان، وما رافقهم فيها من أحداث تاريخيّة، وكيف انعكست عليهم، وكيف كانت مواقف الحكام الذين عاصروهم، وممارساتهم المتشدّدة تجاههم، أو المتغاضية عنهم، أو المتساهلة معهم!

المهمة الشاقّة التي أكمل حَمْلها حسن الأمين بعد أبيه، فرضت عليه التفرّغ التام لها، وكانت من الأسباب التي أبْقَتْهُ عازباً؛ كانت تتطلّب باستمرار القراءة والبحث والتوثيق والسهر والعيش بين رفوف الكتب، وغبار الورق، وفرائد المخطوطات وغرائب الروايات؛ كان عليه أن يتنقلَ داخل الوطن، ويسافرَ خارجه، ويسائلَ الناسَ والأماكن ودُورَ العلم والمكتباتِ ويطّلعَ ويجمعَ ويحقّق ويقرّر؛ كان طيلةَ عمره في حلّ وترحال، لا يكاد يسلّمُ ويستقرُّ، حتى يودِّعَ ويرحل؛ قَدَرُهُ في طفولته ويفاعته وشبابه وكهولته وشيخوخته أن يتنقَّلَ بين جبل عامل ودمشق وبيروت وبغداد، ومدن العراق ودساكره، ومعظم أوروبا، والأميركتيْن وإيران، وأفغانستان، والهند، والباكستان، ومصر، وأفريقيا الشرقية!!

كان السيد حسن يعتقد **أن تاريخَيْن لم يُكتبا بعد**. هما تاريخ جبل عامل وتاريخ الشيعة، وكان يَمْقُتُ أن تُستعملَ لفظةُ الجنوب، ويراها تحريفاً للتاريخ؛ ما وراء الأوّلي حتى جليل فلسطين يُدعى في التاريخ (**جبل عامل**)، وهاتان الكلمتان كانتا عزيزتيْن جداً على قلبه، ويرى أن تاريخ هذه المنطقة لم يُكتبْ، إما عمداً، وإما جهلاً، وكلا الموقفيْن يمثل

على الأقل نقصاً لا يجوزُ السكوت عنه؛ هذه المنطقة كان يتوجب **أن تُعطى حقها**، وتُبرزَ أدوارُها ولا تبقى على هامش الوطن، وهي التي أعطتْ علماء كباراً مرموقين أمثال الشهيد الأول، والشيهد الثاني، وبهاء الدين العاملي، وزعماء مرموقين أمثال ناصيف النصار وحمد المحمود وعانتْ كثيراً من الظّلم والجور والقتل والتخريب، خاصة في عهد حاكم عكا أحمد باشا الجزّار؛ وأنا أعرف ويعرف الكثير من الرفاق الذين كتبوا أو تعاطوا هذا الشأن كم قدّم لهم السيد حسن الأمين، وأخذ بأيديهم، وعمل على توجيههم، ومساعدتهم، وربما إيصالهم إلى المراتب التي يشغلونها، ومن هذا الموقع يعتبر السيد حسن **أباً للتاريخ العاملي**.

كان يعتقد أنه من الظلم ألاّ تسمع الرأي الآخر وتبقى متمسّكاً برأيك، متعصباً له، فالساحة تتّسع لكل الناس، والحوار يستلزم وجود طرف ثانٍ، والحقيقة لا يحتكرها فريقٌ بعينه، وإلاّ كان وحده على حق؛ في التعصّب نرفض الغير، ونرفض أن نسمع له، والمنطقُ يفرضُ أن كلّ فكرةٍ أو عقيدةٍ **تحملُ في طيّاتها شيئاً** من الحقيقة، وأن العقل المنفتح يجادل ويناقش ويتحرّى بحثاً عنها، وأن العقل الجامد المنغلق يعتقد خلاف ذلك ويقع في ظلام التعصّب والجهالة والتكفير!

سُئل السيد حسن عن تخصيصه الشيعة في كتبه، وعما إذا كان ذلك نابعاً عن طائفيّة ضيّقة، ولماذا كتب **مستدركات أعيان الشيعة ودائرة المعارف الإسلامية الشيعية؟** فأجاب: «أنا أعترف أن هذه التسمية مُنَفِّرة للكثيرين، وأؤكد بأنها منفّرة لي أيضاً، ولكن لا مناص من الأخذ بها، لأن الذين كتبوا دائرة المعارف من المستشرقين والتي تُرجم أكثرها للغة العربية تعمّدوا انتقاص فريق من المسلمين، سمّي شيعة، وتجاهلوا تاريخهم، مع أن هناك حقيقة قائمة بوجود فريق اسمه شيعة، وأنت

مضطرٌ إلى أن تكتب تاريخه فكيف تُسمّيه»[56]؟! ثم يقول في مكان آخر:

«إنّ ما سُجل في هذه الكتب **الأعيان**، و**المستدركات**، و**دائرة المعارف** ليس موضوعاً طائفياً، أو دراسةً مذهبيةً أو أحداثاً فئوية؛ إنه نشرٌ لصفحات مَطْويَةٍ من أنصع صفحات تاريخ العروبة والإسلام، ونسجيلٌ لأخبارٍ من أنقى أخبار هذه الأوطان التي عاش فيها العرب والمسلمون»[57].

السيد حسن الأمين ـ كما يتضح من توجُّهِهِ ـ حاولَ أن يَسُدَّ نقصاً في كتابه التاريخ، أو يردَّ على افتراءات، أو يُتمَّ ما أغفله بعضُ المؤرخين، حولَ فئةٍ معارضة، «فراح يعيد النظر في كتابة التاريخ الإسلامي، بعدما رأى أن كثيراً من المؤرخين يمدح بلا تحفُّظٍ حين يرضى، ويَذُمُّ بلا توقُّفٍ حين يغضب، أو يركّب التاريخ وفقاً لهواه»[58].

السيد حسن كان أديباً، ناثراً وشاعراً، رحّالة وموسوعياً، وكاتباً في التاريخ الإسلامي «لا تختصرُهُ صفحةُ المؤرخ ـ يقول إبراهيم بيضون ـ ولا تستوي قراءته من دون بقيّة الصفحات التي كاد يطويها بنفسه، وهي ليستْ أقلَّ إثارةً وجاذبيّةً؛ وفي زمنٍ يُتباهى بالمساوىء وتُبتَذَلُ القيمُ يمضي حسن الأمين المدرسةُ، الرسالةُ، الإنسانُ المفعمُ بالتراث، في طريقه الصعب، وحيثما حلَّ كانتْ هذه القامةُ العاليةُ وهذا الحضورُ الجميلُ، كأنّه بقيّةُ السيوف من زمن بعيد، إنه بحّاثة يمسك بزمام التاريخ»[59].

---

(56) جلال شريم، حسن **الأمين مواجهة مع التاريخ**، ص63.

(57) حسن الأمين، **دائرة المعارف الإسلامية الشيعية**، ج26، ص59.

(58) عبد المجيد زراقط، جريدة **السفير**، عدد 19/6/2002.

(59) حسن الأمين، **دائرة المعارف**، ج26، ص334.

والسيد حسن الأمين الذي أفنى عُمْرَهُ، بحثاً وقراءة وتدقيقاً وانكباباً على التاريخ الإسلامي، وكتب وأبرز حقائق وناقش مسلّمات، وأوضح مواقف، وسدّ نواقص، هل نُظر إليه كمؤرّخٍ منصف وباحث موضوعي، أم اتّهم وأُلصقتْ به الشائعاتُ وظُلم من الكثيرين؟ باعتباره واحداً من الفئة المعارضة الرافضة!!

هو نفسه روى ما حدث له مع «عالم كبير من علماء الإسلام في الهند ـ من غير الشيعة ـ واسع الاطلاع، له مساعٍ محمودةٌ في خدمة الإسلام، وقد مرّ في بلدٍ إسلامي، وكان السيد حسن في ذلك البلد؛ فقال له أحد الأصدقاء هل ترافقنا لزيارته، فردّ السيد بالإيجاب، وعند وصولهم قدّمه الصديق بقوله: (حسن الأمين صاحب دائرة المعارف الشيعيّة)، وما إنْ سمع هذا العالم بكلمة الشيعة حتى تمعّر وجْهُهُ وبانَ الغضبُ عليه ولم ينبسْ ببنت شفة، وعندما خرجوا، كان الوداع جافاً، ومن دون أن يعرف الصديق سبب ذلك، فقال له السيد حسن لقد أخطأتَ بذكر كلمة دائرة المعارف الشيعيّة وجزاؤك أن تشتري مجلدات الموسوعة وتهديها إليه، إدراكاً أنه سوف يقرأ ما كُتِبَ فيها عن الهند.

وهذا ما حصل، وبعد يومين جاء الرجل يفتّش عن السيد حسن ويقول له: إن العالم الكبير يريد أن يزورك فأجابه ما دامت عنده هذه الرغبة فأنا سأزوره مرة ثانية، وما أن دخل الغرفة التي كان العالم جالساً في صدرها حتى قام من صدر الغرفة إلى مدخلها وعانقه عناقاً حاراً وهو يقول: بيّض الله وجهك، لقد بيّضت وجهنا ـ نحن مسلمي الهند ـ بما كتبته عنّا» وكان كتب عن ثورة سنة 1857 وأرّخها تاريخاً صحيحاً وسليماً، فلمّا قرأها الرجل الذي تمعّر وجهه بالأمس، عاد وجهه متهللاً، ويتابع السيد حسن: «لو قرأ نهرو الهندوسي ما كتبتُ عن الهند لكان له الموقف

نفسُه للعالم المسلم لأن ما كُتب، كُتب بموضوعيّة وإنصاف، ولا أنكر أبداً بأنني خصصت الشيعة في الهند ببحث مستقلّ كان مجهولاً أو مطموساً لدى غيرهم، فلماذا نُوصَفُ بالمذهبيّة والطائفيّة إذا أنصفنا الناس جميعاً»[60]؟!.

■ ■ ■

حسن الأمين هو نفسه الذي كتب عن صلاح الدين الأيوبي، بَطَلِ حطّين، ووجّه إليه كثيراً من الاتهامات فأثار حول نفسه عاصفة من اللغط والشائعات؛ وردّ عليه كثير من كَتَبَةِ التاريخ، وأرجعوا اتهاماته إلى خلفيَّته المذهبيّة؛ وردّ السيد حسن على الردود بعنفٍ أكثر واتهمهم بنفس ما اتهموه به وأبرز ما لديه من إثباتات وبراهين.

«حسن الأمين قبل أن يكون أسيراً لاسمه هو مناضل ومجاهد ومؤرّخ - يقول القاضي السيد محمد حسن الأمين - وفوق ذلك كلّه هو واحدٌ من فرسان الممانعة والاعتراض في عصرنا الذي تَغْلب عليه سمةُ الاتّباع والذلّ في إطار طبقةٍ أو فئة من الناس هم المثقّفون ومنتجو المعرفة الذين يَقْبَلون أن يكونوا مثقفي ومفكري وفقهاء السلاطين؛ كان حسن الأمين باحثاً سياسياً ومفكراً اجتماعياً وباحثاً في الحضارات، كان مؤسساً نظرياً ووجدانياً للفكرة التي تقول: إن الانهيار والسقوط في الأمم ليس نتيجة حدث خارجي، بل نتيجة قابليّة، قابليّة تستدرج مثل هذه الأحداث، حسن الأمين التقط المفاصل الحقيقيّة لأزمة انهيار الحضارة العربية الإسلاميّة عبر تحليله الدقيق ودرايته العميقة والحرّة للأحداث، وفي كتابه عن صلاح الدين - وقد أكون غير متفّق تماماً معه - أطلق صدمةً

(60) جلال شريم، **حسن الأمين مواجهة مع التاريخ**، ص64.

حقيقيةً فيما نُسمّيه حركة التاريخ أو العقل العربي وكان كمن يُشعل النار في القناعات الراكدة من الفكر»[61].

(61) حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، الجزء 26، ص123/ 124.

خاتمة

أتصوّر كم كان حسن الأمين سعيداً وهو يكتب المواضيع التاريخية الملتبسة في الإسلام، ويجهد في أن ينير على ما طاولها من غموض، أو اعتراها من نقص، وكم كان متألماً عندما كان يلمس الظلم، ويرى في أن الافتراءات عندما يجانب المؤرخون الحقيقية!! لم يكتب مكرّراً ما ذكره سابقوه، وإنما تناول الأحداث التي اعتقد أنها لم تُشبَعْ درساً فراح يبحث عن جوانبها الخفيَّة، وعن أسبابها ونتائجها ويناقشها ليتوصل عبرها إلى الحقيقة المجرّدة؛ «كان موضوعياً صارماً في موضوعيته - يقول جورج جرداق - مُنْكراً كل تقليد في التفكير والمسلك لا يقبل به العقل، ولا يرضى عنه الوجدان، ولا تقرّه الأمانة في مراعاة الحقيقة، راسخ الاقتناع بموقفه الإيجابي من كل ما يراه معقولاً ومقبولاً، وبموقفه السلبي من كل ما يراه خاطئاً صادراً عن غير رؤية»[62].

«كانت ثقافته الواسعة، المتعمّقة في الأدب، والدين، وأحداث الماضي، تؤهّله لأن يدخل عالم التاريخ من عدة أبواب كانت مشرعة، تؤكّد طول باعه مؤرخاً، ومثيراً للجدل، في آن؛ فمن باب الشعر اكتنه التراث، وامتلك ناصية اللغة، ومن باب القضاء عَبَرَ حاملاً ميزان العدالة في يده مستعرضاً الحدث بعيداً عن الأخطاء والتراكمات والأسطورة، لمصلحة تاريخ خاص متّصل بالمعارضين للسلطة، أصحاب الرأي الآخر، الذين تصدّوا للانحراف وشهروا سيوفهم في وجوه الطغاة؛ ودائماً تتجسّد في وعيهم هذه المقولة للإمام علي: «ألا أن لكل دمٍ ثائراً، ولكل حق مطالباً»[63].

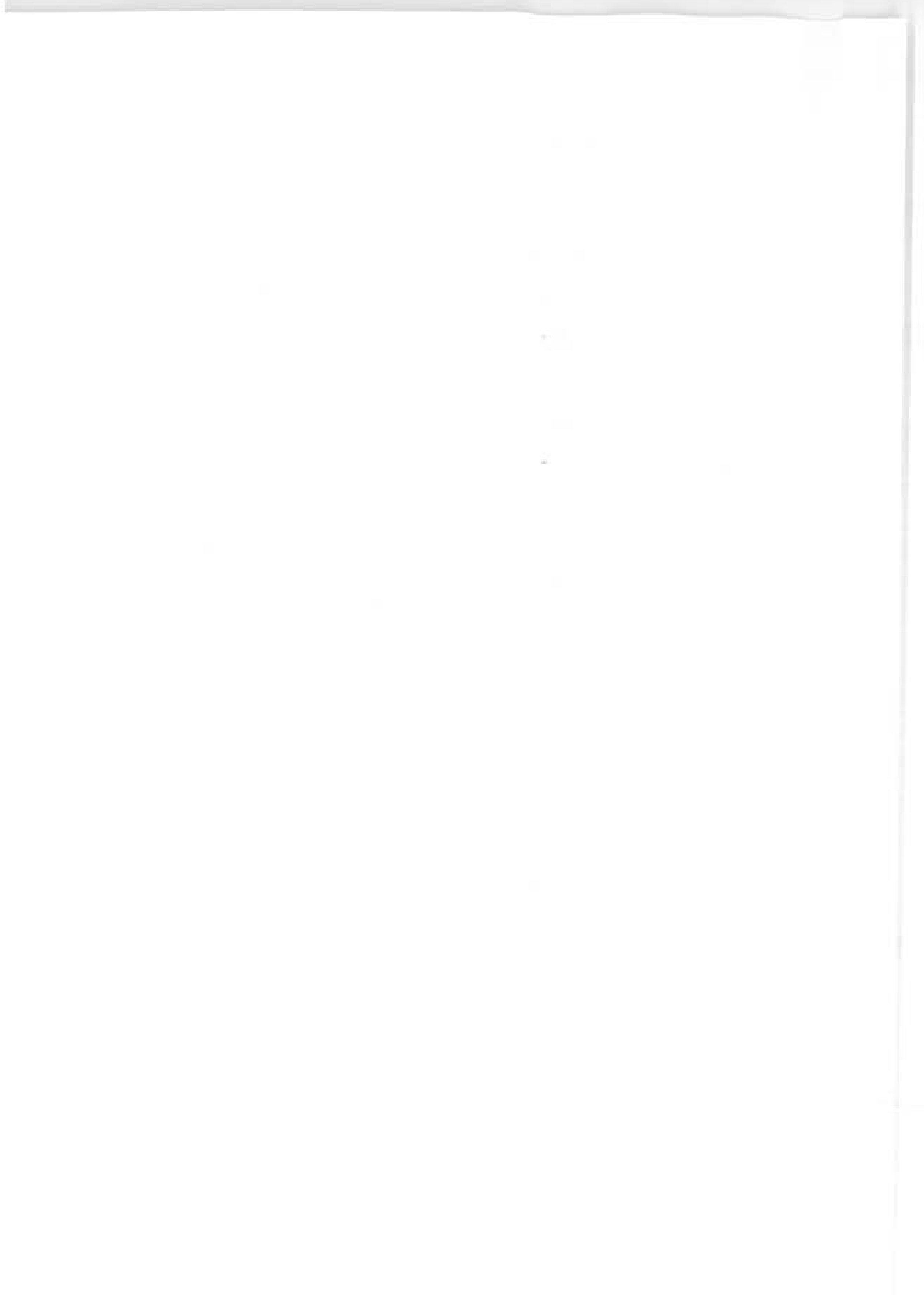
(62) جلال شريم، **حسن الأمين مواجهة مع التاريخ**، ص105.

(63) إبراهيم بيضون، **حسن الأمين الإشكالي المنتصف للتواريخ المعاصرة**، محاضرة في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، بتاريخ 10 حزيران، 2004.

كم كان السيد حسن المؤرخ حزيناً وهو يرى حاضر أمته، لكنه كان يستشرف المستقبل عبر ما أصابها من هزائم، كان مؤمناً بالغد، «نحن لن نيأس - قال في ختام حفلة تكريمه في الجامعة اللبنانية قبل وفاته بعدة أشهر - نحن مؤمنون بأن النصر لنا، وأن ما يراق من دماء، وما يعاني الناس من مذلّة وهوان، هو شيء مرّ في تاريخنا، في تاريخ غيرنا؛ نحن مطمئنون على المستقبل، إن ما يجري على أرضنا هو غمرة من هذه الغمرات التي تمرّ بها كلّ أمم الأرض. لقد هوجمنا في الغزوات المغوليّة التي كانت أقسى من هذه الغزوات، ولكن ماذا كانت النهاية؟ كانت النهاية أن المغول الذين جاؤوا ليحاربوا الإسلام في أرضه، وفي مكانه، إنهم لأول مرة واجهوا الفكرة المعاكسة، كان يُقال إن الشعب المغلوب يتأثر بالغالب، وإذا بالمغول الغالبين يتأثرون بالشعب المغلوب، وينتهي أمرهم إلى أن يسلموا»[64].

وإذا كان المؤرخون علماء الماضي ومثقفي الحاضر فقد يكونون أنبياء المستقبل، فعسى أن يكون حسن الأمين الأديب الرحالة المؤرخ قد تنبّأ لنا بغد مشرق يمحو أوجاعنا ويهدهد أحلامنا!!

(64) حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، الجزء 26، ص331.



المصادر

الأمين حسن

- إطلالات على التاريخ، دار المحجّة البيضاء، ٢٠٠٠.
- أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، الطبعة الخامسة، بيروت، ٢٠٠٠.
- جبل عامل ـ السيف والقلم، دار الأمير، ٢٠٠٢.
- حل وترحال، منشورات رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، ١٩٩٩.
- دائرة المعارف الإسلامية الشيعيّة، دار التعارف للمطبوعات، ط٦، بيروت، حارة حريك، ٢٠٠٢.
- الذكريات من الطفولة إلى الصبا، دار الغدير، الجزء الأول، بيروت، ١٩٧٣.
- الرضا والمأمون وولاية العهد، دار الجديد، بيروت، ١٩٩٥.
- سراب الاستقلال في بلاد الشام، منشورات رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، ١٩٩٢.

- صلاح الدين الأيوبي، بين الفاطميين والعباسيين والصليبيين، دار الجديد، بيروت، ١٩٩٥.
- عصر حمد المحمود، دار التراث الإسلامي، بيروت، ١٩٧٤.
- غارات على بلاد الشام، دار قتيبة، ٢٠٠٠.
- الغزو المغولي للبلاد الإسلامية (من بغداد إلى جالوت)، بيروت، دار النهار، ط٢، ١٩٧٦.
- قيم خالدة في التاريخ والأدب، دار التراث الإسلامي، بيروت، ١٩٧٤.
- مستدركات أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، ط٢، بيروت، حارة حريك، ١٩٩٧.
- المغول بين الوثنية والنصرانيّة والإسلام، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، حارة حريك، ١٩٩٣.
- من بلد إلى بلد (رحلات في الشرق والغرب)، دار التراث الإسلامي، بيروت، ١٩٧٤.
- الموسوعة الإسلامية (خمسة أجزاء) منشورات دار التعارف للمطبوعات، بيروت، حارة حريك، (١٩٨٠ ـ ١٩٩٢).
- الوطن الإسلامي بين السلاجقة والصليبيين، دار الغدير، بيروت، ١٩٩٦.

المراجع

- أبو سعد أحمد، أدب الرحلات وتطوّره في الأدب العربي، دار الشرق، بيروت، ط١، ١٩٦١.
- ابن بطوطة، رحلات ابن بطوطة، المطبعة الوطنية، باريس، ١٨٧٤ (مكتبة الجامعة الأميركية، ج١).
- ابن جبير، رحلة ابن جبير، تقديم حسين نصار، سلسلة الكتاب للجميع (٣٣)، جريدة السفير، ٢٠٠٤.
- آل صفا، محمد جابر، تاريخ جبل عامل، دار النهار، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤.
- الأمين السيد محسن، أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٠.
- رحلات السيد محسن الأمين في لبنان والعراق وإيران ومصر والحجاز، دار التراث الإسلامي، لا سنة!
- الشيعة في مسارهم التاريخي (مقدمة أعيان الشيعة)، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

- سيرة السيد محسن الأمين (جزء من أعيان الشيعة)، منشورات رياض الريّس للكتب والنشر، ٢٠٠٠.
- بيضون إبراهيم، حسن الأمين الإشكالي المنتصف للتواريخ المحاصرة، محاضرة في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، ١٠ حزيران، ٢٠٠٤.
- حسين محمود حسني، أدب الرحلة عند العرب، القاهرة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، (المكتبة الثقافية ٣٣٥) ١٩٧٦.
- حوراني ألبرت، الفكر العربي في عصر النهضة، منشورات دار النهار، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦.
- خليفة عصام، أبحاث في تاريخ لبنان المعاصر، منشورات دار الجيل، بيروت، ١٩٨٥.
- الخوند مسعود، موسوعة التاريخ الجغرافية، دار روّاد النهضة، جونية، ١٩٩٤.
- داغر يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبيّة، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٧٢.
- زيادة نقولا، روّاد الشرق العربي في العصور الوسطى هدية المقتطف السنوي، بيت المقدس، ط١، ١٩٤٣.
- زيدان جرجي، رحلة إلى أوروبا، ١٩١٢، قدم لها قاسم وهب.
- سوسة أحمد، أطلس العراق الحديث، مطبعة مديرية المساحة، بغداد، ١٩٥٣.
- شريم جلال، حسن الأمين مواجهة مع التاريخ، مكتبة الفقيه، ٢٠٠٤.
- صيدح جورج، أدبنا وأدباؤنا في المهاجر، مكتبة الشائح، الطبعة الرابعة، ١٩٩٩.
- ضيف شوقي، الرحلات، دار المعارف، ١٩٥٦.

- الطهطاوي رفاعة، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، سلسلة الكتاب للجميع، رقم ١٠، جريدة السفير، ٢٠٠٢.
- العبدري أبو عبد الله محمد، رحلة العبدري، تحقيق علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٩.
- غريّب جورج، أدب الرحلة تاريخه وأعلامه (سلسلة الموسوع في الأدب العربي، رقم ٧)، دار الثقافة.
- ماجد عبد المنعم، ظهور الخلافة الفاطميّة وسقوطها، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٩٤.
- ماجد عبد المنعم، صلاح الدين الأيوبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧.
- مراد حلمي، مطبوعات (كتابي)، العدد (١)، السنة الرابعة، رقم ٣٦.
- مروة علي، روائع الأدب الفكاهي العاملي، مطابع الأمان، درعون، ١٩٧٢، ط١.
- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٦.
- مفرج طوني، موسوعة المجتمعات الدينيّة في الشرق الأوسط، دار نوبيليس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥.
- منصور أنيس، حول العالم في ٢٠٠ يوم، دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة، ١٩٦٢.
- ميرڤان صابرينا، حركة الإصلاح الشيعي (ترجمة هيثم الأمين)، منشورات دار النهار، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.
- وافي علي عبد الواحد، عبد الرحمن بن خلدون، سلسلة أعلام العرب رقم (٤)، وزارة الثقافة، الطبعة الرابعة، ١٩٦١.

- المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، من دفتر الذكريات الجنوبية، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٤.
- مجلة العرفان (أحمد عارف الزين، صيدا، ١٩٠٩).
- مجلة العربي.
- جريدة النهار.
- جريدة السفير.
- جريدة الانتقاء.

المراجع الأجنبية

وثائق من محفوظات الخارجية الفرنسية سنة 1934

1 - CDAN

- Fonds Beyrouth Carton, 1875, BIH 30-34-35-41 F2, carton 607.

2 - Jules Verne,

- Tour du monde en quatrevingts jours,
- Voyage au centre de la terre.

3 - Antoine de Saint-Exupery,

- Vol de nuit,
- Terre des hommes.

4 - Mervin Sabrina,

- Un réformisme Chiite, 2000,
- karthala, cermoc, IFEAD.

5 - Quillet,

- Dictionnaire Encyclopédique.
- (Librairie Arestique Quillet) 1969.

الملاحق



حسن الأمين في المدرسة العلوية ١٣٤٠ هـ.

SE VEND À PARIS,

CHEZ EUGÈNE LEROUX, LIBRAIRE,

RUE BONAPARTE, N° 28.

PRIX : 7 fr. 50 c.

SOCIÉTÉ ASIATIQUE.

VOYAGES D'IBN BATOUTAH,

TEXTE ARABE, ACCOMPAGNÉ D'UNE TRADUCTION,

PAR

C. DEFRÉMERY ET LE Dʳ B. R. SANGUINETTI.

TOME PREMIER.

(DEUXIÈME TIRAGE.)

PARIS.

IMPRIMÉ PAR AUTORISATION DU GOUVERNEMENT

À L'IMPRIMERIE NATIONALE.

M DCCC LXXIX

1879

مع ما يصل اليه من صدقات الزوّار ثم سافرت منها الى مدينة
الرملة وهي فلسطين مدينة كبيرة كثيرة الخيرات حسنة
الاسواق وبها الجامع الابيض ويقال ان في قبلته ثلاثمائة من
الانبياء مدفونين عليهم السلام ومنها من كبار الفقهاء مجد
الدين النابلسي ثم خرجت منها الى مدينة نابلس وهي
مدينة عظيمة كثيرة الاشجار مطّردة الانهار من اكثر بلاد
الشام زيتونا ومنها يحمل الزيت الى مصر ودمشق وبها تصنع
حلواء الخرّوب وتجلب الى دمشق وغيرها وكيفية عملها ان يطبخ
الخروب ثم يعصر ويوخذ ما يخرج منه من الربّ فيصنع منه
الحلواء ويجلب ذلك الربّ ايضا الى مصر والشام وبها البطّيخ

Je me dirigeai vers la ville de Ramlah, qui est aussi a[illegible]
pelée Palestine. C'est une grande ville, abondante en bie[illegible]
et ornée de beaux marchés. On y remarque la mosq[illegible]
principale appelée *la Blanche*, et l'on dit que dans sa kib[illegible]
(partie située au midi) se trouvent enterrés trois cents p[illegible]
phètes.

Parmi ses jurisconsultes notables, je citerai Madjd ed[illegible]
Ennâbolouçy.

Ensuite je me rendis à Nâbolous (Naplouse, Néapolis[illegible]
Sichem). C'est une ville considérable, ayant beaucoup d[illegible]
tres, et des fleuves qui coulent abondamment. C'est[illegible]
leurs, une des villes de la Syrie les plus riches en oli[illegible]
On en exporte de l'huile au Caire et à Damas. On y fabri[illegible]
la pâte de *kharroûb* (caroubes), qu'on exporte à Dama[illegible]
dans d'autres pays.

La manière de la faire consiste à cuire les caroubes [illegible]
du caroubier), et puis à les presser et à recueillir le[illegible]
qui en sort. C'est avec ce jus qu'on fait la pâte. On ex[illegible]
le suc lui-même au Caire et à Damas.

المنسوب اليها وهو طيّب عجيب ومسجدها الجامع في نهاية من
الاتقان والحسن وفي وسطه بركة ماء عذب ثم سافرت منها
الى مدينة عجلون وهي بفتح العين المهملة وهي مدينة حسنة
لها اسواق كثيرة وقلعة خطيرة ويشقّها نهر ماؤه عذب
ثم سافرت منها بقصد اللاذقية فمررت بالغور وهو واد بين
تلال به قبر ابي عُبَيدة بن الجرّاح امين هذه الامّة رضي الله
عنه زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لابناء السبيل وبتنا هنالك
ليلة ثم وصلنا الى القُصَير وبه قبر معاذ بن جبل رضي الله
عنه تبرّكت ايضا بزيارته ثم سافرت على الساحل فوصلت الى
مدينة عكّة وهي خراب وكانت عكّة قاعدة بلاد الافرنج بالشام

[illegible] Naplouse, il y a aussi une espèce de melon qui porte
[illegible] de la ville, et qui est bon et délicieux.
[illegible] Enfin, sa mosquée principale est extrêmement solide et
[illegible] Au milieu, on voit un bassin d'eau douce et d'un
[illegible]gréable.

[illegible] voyageai ensuite vers la ville d'Adjloûn : c'est une belle
[illegible] qui possède beaucoup de marchés et un château su[illegible]
[illegible] et qui est traversée par un fleuve dont l'eau est douce
[illegible]réable. Puis je quittai cette ville pour me rendre à Lâ[illegible]
[illegible] (Latakié), et je traversai d'abord le Ghaour, qui est
[illegible] vallée entre des collines. On y voit le tombeau d'Abou
[illegible], fils d'Eldjerrâh, l'*amîn* (le patron) de cette popu[illegible]
[illegible] nous le visitâmes. Près de lui se trouve une zâouiah
[illegible] fournit de la nourriture aux voyageurs. Nous y passâmes
[illegible], et ensuite nous nous rendîmes à Kocéïr, où l'on
[illegible] tombeau de Mo'âdh, fils de Djebel; je me sanctifiai
[illegible] visite. Je voyageai ensuite sur le bord de la mer, et
[illegible] à la ville d'Accah (Acre), qui est en ruines. Acre
[illegible] la capitale du pays des Francs en Syrie, le lieu

ومرسى سفنهم وتشبَّه بقسطنطينيَّة العظمى وبشرقيِّها عين ماء
تعرف بعين البقر يقال ان الله تعالى اخرج منها البقرة لآدم
عليه السلام ويُنزل اليها في درج وكان عليها مسجد بقي منه
محرابه وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام ثم سافرت منها
الى مدينة صور وهي خراب وبخارجها قرية معمورة وأكثر اهلها
ارفاض ولقد نزلت بها مرّة على بعض المياه اريد الوضوء فاتى
بعض اهل تلك القرية ليتوضّأ فبدأ بغسل رجليه ثم غسل
وجهه ولم يتمضمض ولا استنشق ثم مسح بعض رأسه فأخذتُ
عليه في فعله فقال لي ان البناء انما يكون ابتداؤه من الأساس
ومدينة صور هي التي يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة لان

de relâche pour leurs navires, et on la comparait à Constantinople la grande. A l'orient de la ville est une source connue sous le nom de fontaine des Bœufs. On dit que Dieu en a fait sortir la vache pour Adam. On y descend au moyen d'un escalier; et près d'elle était une mosquée dont il reste seulement le mihrâb. Dans Acre est le tombeau de Sâlih.

Je partis de cette ville pour celle de Soûr (Tyr), qui n'est plus qu'un monceau de ruines; mais au dehors on voit un village encore habité, dont la population est, en grande partie, composée de ces sectaires appelés *Arfâdh* (Râfidhites). Une fois j'y descendis dans un lieu fourni d'eau, pour faire mes ablutions; et un de ses habitants y vint aussi pour se purifier. Il commença par laver ses pieds, puis sa figure, sans se rincer la bouche ni aspirer de l'eau par ses narines. Ensuite il passa sa main sur une partie de la tête. Je lui fis des reproches sur sa manière d'agir; mais il me dit : « Il est certain que l'on commence l'édifice par les fondations ».

La ville de Soûr a donné naissance à un proverbe relatif à sa force et à sa position inaccessible; car la mer l'entoure

البحر محيط بها من ثلاث جهاتها ولها بابان احدهما للبرّ والثاني
للبحر ولبابها الذي يشرع للبرّ اربعة فصلان كلها في ستائر
محيطة بالباب واما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين
وبناؤها ليس في بلاد الدنيا اعجب ولا اغرب شأنا منه لان
البحر محيط بها من ثلاث جهاتها وعلى الجهة الرابعة سور
تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك وكان فيما تقدم بين
البرجين سلسلة حديد معترضة لا سبيل الى الداخل
هنالك ولا الى الخارج الا بعد حطّها وكان عليها الحُرّاس
والأُمناء فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج الا على علم منهم
وكان لعكّة ايضا ميناء مثلها ولكنها لم تكن تحمل الا السفن
الصغار ثم سافرت منها الى مدينة صيدا وهي على ساحل

de trois côtés, et elle possède deux portes, dont l'une ouvre sur la terre ferme et l'autre sur la mer. Celle qui conduit vers la terre possède quatre retranchements, consistant chacun en palissades qui entourent la porte. Quant à celle qui mène à la mer, elle est placée entre deux grandes tours. Sa construction est telle, qu'il n'y a, dans aucun autre pays du monde, une œuvre plus merveilleuse et plus extraordinaire que celle-ci. En effet, la mer l'entoure de trois côtés, et du quatrième, il y a un mur sous lequel les navires passent et près duquel ils jettent l'ancre. Il y avait anciennement, entre les deux tours, une chaîne de fer tendue, de manière que rien ne pouvait entrer ni sortir, si ce n'est après qu'on l'avait baissée. Près d'elle étaient placés des gardes et des hommes de confiance; et personne n'entrait ni ne sortait sans qu'ils le sussent.

Acre avait un port pareil à celui que nous venons de décrire; mais il n'admettait que les navires de petite dimension.

Je quittai Soûr pour aller à Saïdâ (Seyde), ancienne Si-

البحر حسنة كثيرة الفواكه تُحمَل منها التين والزبيب
والزيت الى بلاد مصر نزلت عند قاضيها كمال الدين الاشموني
المصري وهو حسن الاخلاق كريم النفس ثم سافرت منها الى
مدينة طَبَرِيّة وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق
منها الا رسوم تُنبئ عن ضخامتها وعظم شأنها، وبها الحمّامات
العجيبة لها بيتان احدهما للرجال والثاني للنسآء وماؤها
شديد الحرارة ولها البُحَيْرة الشهيرة طولها نحو ستّة فراسخ
وعرضها أَزْيَد من ثلاثة فراسخ وبطبرية مسجد يعرف بمسجد
الانبيآء فيه قبر شعيب عليه السلام وبنته زوج موسى الكليم
عليه السلام وقبر سليمان عليه السلام وقبر يهودا وقبر روبيل
صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم وقصدنا منها زيارة الجُبّ

don], qui est sur le bord de la mer. Elle est belle et fournit des fruits abondants. On en exporte en Égypte des figues, des raisins secs et de l'huile d'olive. Je me logeai chez son kâdhi, Camâl eddîn Elochmoûny elmisry. C'est un homme d'un caractère excellent, et doué d'un noble esprit.

Je me rendis ensuite à la ville de Thabariyah (Tibériade). C'était jadis une ville grande et considérable; mais il n'en reste à présent que de simples vestiges, qui annoncent pourtant sa grandeur et son importance d'autrefois. Il s'y trouve des bains merveilleux qui ont deux quartiers séparés, l'un pour les hommes, et l'autre pour les femmes. L'eau de ces bains est très chaude. Tibériade possède le lac bien connu dont la longueur est d'environ six parasanges, et la largeur de plus de trois parasanges. Elle possède aussi une mosquée connue sous le nom de mosquée des Prophètes, et qui renferme les tombeaux de Cho'aïb (Yéthro), de sa fille, épouse de Moïse, le *calîm* (interlocuteur de Dieu), celui de Salomon, de Judas et de Ruben.

الذي أُلقي فيه يوسف عليه السلام وهو في صحن مسجد صغير
وعليه زاوية والجُبّ كبير عميق شربنا من مآئه المجتمع من مآء
المطر وأخبرنا قيّمه ان المآء ينبع منه ايضاً ثم سرنا الى مدينة
بيروت وهي صغيرة حسنة الاسواق وجامعها بديع الحسن
وتجلب منها الى ديار مصر الفواكه والحديد وقصدنا منها زيارة
قبر ابي يعقوب يوسف الذي يزعمون انّه من ملوك المغرب وهو
بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز وعليه زاوية يطعم
بها الوارد والصادر ويقال ان السلطان صلاح الدين وقف
عليها الاوقاف وقيل السلطان نور الدين، وكان من الصالحين
ويذكر انه كان ينسج الحُصُر ويقتات بثمنها،،

De là nous visitâmes le puits dans lequel Joseph fut jeté. Il se trouve dans la cour d'une petite mosquée, et a tout près de lui une zâouiah. Le puits est vaste, profond, et nous bûmes de son eau, qui est de l'eau de pluie. Cependant son gardien nous a dit que l'eau sourd aussi du puits même.

Nous nous rendîmes ensuite à la ville de Baîroût (ancienne *Berytus*). Elle est petite, mais elle a de beaux marchés et une mosquée djâmi admirable. On exporte de cette ville en Égypte des fruits et du fer.

De là nous visitâmes le tombeau d'Abou Ya'koub Yoûcef, qu'on prétend avoir été un des rois du Maghreb (Afrique occidentale). Ce tombeau est situé dans un lieu appelé Carac Noûh (Carac de Noé), dans le Bakâ' d'El'azîz (Cœlésyrie). Il y a auprès une zâouiah qui donne à manger à tous les visiteurs. On dit que le sultan Salâh eddîn a institué en sa faveur des legs pieux; d'autres disent que c'est le sultan Noûr eddîn. Celui-ci était, en effet, du nombre des hommes vertueux et saints, et l'on assure qu'il tressait des nattes et qu'il se nourrissait du produit de leur vente.

منهم بنت قد آن بناء زوجها عليها ومن عوايدهم في تلك
البلاد ان البنت يجهّزها ابوها ويكون معظم الجهاز اواني
النحاس وبه يتفاخرون وبه يتبايعون فقال ابو يعقوب للرجل
هل عندك شيء من النحاس قال نعم قد إشتريت منه
لتجهيز هاذه البنت قال إيتني به فأتاه به فقال له إستعر من
جيرانك ما امكنك منه ففعل واحضر ذلك بين يديه فاوقد
عليه النيران واخرج صُرّة كانت عنده فيها الإكسير فطرح
منه على النحاس فعاد كلّه ذهبا وتركه في بيت مُقْفَل وكتب
كتابا الى نور الدين ملك دمشق يعلمه بذلك ويُنبّهه على
بناء مارستان للمرضى من الغُرَباء ويوقف عليه الاوقاف ويبني

fille, qui était près de se marier; et c'est un des usages de ces contrées-là, que le père fournisse le trousseau à sa fille. La partie la plus importante de ce mobilier consiste en ustensiles de cuivre. Ces gens se glorifient de posséder de tels ustensiles, et ils en font l'objet de stipulations particulières. Or Abou Ya'koûb dit à son hôte : « N'as-tu pas chez toi quelques objets en cuivre? » Le villageois répondit : « Oui, j'en ai acheté pour le trousseau de cette jeune fille. » Abou Ya'koûb reprit : « Apporte-les-moi; » et l'hôte les lui présenta. Abou Ya'koûb dit alors : « Emprunte de tes voisins tous les objets de ce genre qu'il t'est possible d'obtenir. » L'hôte le fit, et il apporta le tout à Abou Ya'koûb. Celui-ci alluma du feu sur ces objets; il tira une bourse qu'il portait sur lui, dans laquelle se trouvait une poudre (littéral. l'élixir) dont il jeta une partie sur le cuivre, qui fut entièrement changé en or. Il mit cela dans une chambre fermée; puis il écrivit à Noûr eddîn, roi de Damas, pour l'instruire de ce qui venait d'arriver, et pour l'exhorter à construire un hôpital pour les étrangers malades, et à y constituer des

الزوايا بالطرق ويُرضي اصحاب النحاس ويعطي صاحب البيت
كفايته وقال له في آخر الكتاب وإن كان ابراهيم بن ادهم قد
خرج عن مُلْك خراسان فانا قد خرجت من ملك المغرب
وعن هاذه الصنعة والسلام وفرّ من حينه وذهب صاحب
البيت بالكتاب الى الملك نور الدين فوصل الملك الى تلك
القرية واحتمل الذهب بعد ان أرضى اصحاب النحاس
وصاحب البيت وطلب ابا يعقوب فلم يجد له اثرا ولا وقع له
على خبر فعاد الى دمشق وبنا المارستان المعروف بإسمه الذي
ليس في المعمور مثله ثم وصلت الى مدينة اطرابلس وهي
احدى قواعد الشام، وبُلْدانها الضخام، تخترقها الانهار،
وتحفّها البساتين والاشجار، وتكنفها البحر بمرافقه العميمة

legs. Il lui disait aussi de bâtir des zâouiah sur les routes, de satisfaire les propriétaires des objets de cuivre, et de donner au maître de la maison une somme suffisante pour son entretien. Il terminait sa lettre en disant : « Si Ibrâhîm, fils d'Adham, a renoncé au royaume du Khorâçân, moi j'ai renoncé au royaume du Maghreb et à ce métier. Salut. » Après cela, Abou Ya'koûb partit sans retard.

Le maître de la maison se rendit, avec l'écrit, auprès du roi Noûr eddîn. Le roi vint dans ce village, et enleva l'or, après avoir satisfait les propriétaires du cuivre et le maître de la maison. Il chercha Abou Ya'koûb; mais il ne put ni trouver ses traces, ni en obtenir aucune nouvelle. Noûr eddîn retourna à Damas, construisit l'hôpital connu sous son nom, dont il n'existe pas le pareil dans tout le monde habité.

J'arrivai ensuite à la ville d'Athrâbolos (Tripoli). C'est une des capitales de la Syrie, et une de ses grandes villes. Elle est traversée par des canaux et entourée de jardins et

والبرّ بخيراته المقيمة، ولها الاسواق العجيبة، والمسارح
الخصيبة، والبحر على ميلين منها وهي حديثة البناء، واما
اطرابلس القديمة فكانت على ضفّة البحر وتملّكها الرومُ زمانا
فلما استرجعها الملك الظاهر خُربت واتّخذت هاذه الحديثة
وبهاذه المدينة نحو اربعين من امرآء الاتراك واميرها طيلان
الحاجب المعروف بملك الامرآء ومسكنه منها بالدار المعروفة
بدار السعادة ومن عوايده ان يركب في كلّ يوم اثنين وخميس
ويركب معه الامرآء والعساكر ويخرج الى ظاهر المدينة فاذا
عاد اليها وقارب الوصول الى منزله ترجّل الامرآء ونزلوا عن
دوابّهم ومشوا بين يديه حتى يدخل منزله وينصرفون

d'arbres; la mer l'environne de ses avantages copieux, et la terre, de ses biens durables; elle possède des places admirables et des prairies fertiles. La mer est à deux milles de distance de Tripoli, et cette ville est de construction récente. Quant à l'ancienne Tripoli, elle était située au bord de la mer, et les Francs l'ont possédée un certain espace de temps. Mais lorsqu'Almélic azzhâhir l'eut reprise, elle fut détruite, et la ville nouvelle fut commencée. Il y a à Tripoli environ quarante commandants des Turcs (*mamlouks*). Son gouverneur est Thailân (lisez *Thainâl*, طينال. Cf. *Orientalia*, t. II, pag. 342, 361, 378), le chambellan, qu'on nomme le roi des émirs. Sa demeure dans cette ville est la maison connue sous le nom de *dâr essa'âdah* (l'hôtel du bonheur).

Parmi les habitudes de cet émir, nous mentionnerons la suivante : il monte à cheval tous les lundis et les jeudis; les autres émirs l'accompagnent avec leurs troupes. Il sort ainsi de la ville, et lorsqu'il y retourne, et qu'il se trouve à peu de distance de sa demeure, les émirs mettent pied à terre, et, quittant leurs montures, ils marchent devant lui

وتضرب الطبلخانة عند دار كلّ امير منهم بعد صلاة
المغرب من كل يوم وتوقد المشاعل وممّن كان بها من الاعلام
كاتب السرّ بهاء الدين بن غانم احد الفضلاء الحُسباء
معروف بالسخاء والكرم واخوه حسام الدين هو شيخ القدس
الشريف وقد ذكرناه واخوهما علاء الدين كاتب السرّ بدمشق
ومنهم وكيل بيت المال قوام الدين، ابن مكّين، من الاكابر
الرجال ومنهم قاضي قضاتها شمس الدين ابن النقيب من
اعلام علماء الشام وبهاذه المدينة حمّامات حسان منها حمّام
القاضي القرمي وحمّام سندمور وكان سندمور امير هذه المدينة

jusqu'à l'instant où il rentre dans son hôtel; et alors ils se retirent. On joue de la musique militaire près de la demeure de chaque émir, tous les jours, après la prière du soir, et l'on allume les lanternes.

Je citerai les noms suivants parmi les personnages considérables qui se trouvaient dans cette ville :

1° L'écrivain des choses secrètes (secrétaire intime), Béhâ eddîn, fils de Ghânim, un des hommes excellents et estimés, célèbre par sa libéralité et sa générosité;

2° Son frère Hoçâm eddîn, cheikh de la noble Jérusalem, et que nous avons déjà mentionné;

3° Le frère des deux précédents, Alâ eddîn, secrétaire intime à Damas;

4° L'intendant de la trésorerie, Kaouâm eddîn, fils de Makîn, un des hommes éminents;

5° Le kâdhi des kâdhis de Tripoli (le grand juge), Chems eddîn, fils du *nakîb* (chef), un des principaux savants de la Syrie.

A Tripoli, il y a des bains très-beaux, parmi lesquels celui du kâdhi Alkirimy et celui de Sendémoûr. Ce dernier été gouverneur de la ville, et l'on raconte de lui beaucoup

ويذكر عنه اخبار كثيرة في الشدّة على اهل الجنايات منها
ان امراة شكت اليه بأن احد مماليكه الخواصّ تعدّى عليها
في لبن كانت تبيعه فشربه ولم تكن لها بيّنة فامر به فوسّط
فخرج اللبن من مُصْرانه وقد اتّفق مثل هذه الحكاية للعتريس
احد امرآء الملك الناصر ايام إمارته على عيذاب واتفق مثلها
للملك كبك سلطان تُرْكستان ثم سافرت من اطرابلس الى
حِصْن الأكراد وهو بلد صغير كثير الاشجار والانهار باعلى تلّ
وبه زاوية تعرف بزاوية الإبراهيمي نسبة الى بعض كُبَرآء
الأُمَرآء ونزلت عند قاضيها ولا أُحقّق الآن اسمه ثم سافرت
الى مدينة حمص وهي مدينة مليحة، ارجآؤها مونّقة، واشجارها

d'histoires, touchant sa sévérité envers les criminels. Nous rapporterons, comme exemple, l'anecdote suivante : une femme se plaignait un jour à lui de ce qu'un de ses mamloûcs les plus chers avait commis une injustice à son égard, en lui buvant du lait qu'elle voulait vendre. Elle n'avait, d'ailleurs, pas de preuve de ce qu'elle avançait. L'émir manda le mamloûc, qui fut fendu par le milieu du corps, et le lait sortit de ses entrailles. — Une histoire pareille est arrivée sous Atris, un des émirs du roi Nâcir, lorsqu'il était gouverneur d'Aïdhâb; et une autre aussi sous le roi Kébec, souverain du Turkistân.

Je quittai Tripoli et me rendis à la forteresse des Curdes (*Hisn alacrâd*). C'est une petite ville, qui a en abondance des arbres et des canaux. Elle est située sur le sommet d'une colline, et elle possède une zâouiah qu'on nomme l'ermitage de l'Ibrâhîmite, du nom de quelque grand émir. Je me logeai chez le kâdhi de la place, dont je ne me rappelle pas exactement le nom à présent.

Ensuite je me transportai à la ville de Hims (Émèse), qui

منيرة، وانهارها متدفقة، واسواقها فسيحة الشوارع، وجامعها
متميّز بالحسن الجامع، وفي وسطه بركة مآء واهل حمص عرب
لهم فضل وكرم وبخارج هاذه المدينة قبر خالد بن الوليد
سيف الله ورسوله وعليه زاوية ومسجد وعلى القبر كسوة
سودآء وقاضي هاذه المدينة جمال الدين الشريشي من اجمل
الناس صورة، واحسنهم سيرة، ثم سافرت منها الى
مدينة حماة احدى أُمّهات الشام الرفيعة، ومدائنها
البديعة، ذات الحسن الرائق، والجمال الفائق، تحفّها البساتين
والجنّات، عليها النواعير كالافلاك الدائرات، يشقّها النهر

est jolie. Ses environs sont agréables, ses arbres touffus, ses fleuves remplis d'eau, et ses marchés fournis de larges voies de communication. Sa mosquée principale se distingue par une beauté parfaite, et elle a au milieu un réservoir d'eau. Les habitants d'Émèse sont de race arabe, et doués de bonté et de générosite. Au dehors de cette ville est le tombeau de Khâlid, fils d'Alouélid, le glaive de Dieu et de son envoyé; et à côté, il y a une zâouiah et une mosquée. Sur le tombeau se voit une couverture noire. Le kâdhi d'Émèse est Djémâl eddîn Achchérichy (de Xérès en Espagne), un des hommes les plus beaux de figure et les meilleurs pour la conduite.

Je sortis d'Émèse pour me rendre à la ville de Hamâh (ancienne *Epiphania*), une des métropoles les plus nobles de la Syrie, et une de ses villes les plus admirables. Elle possède une beauté resplendissante et une grâce parfaite; elle est entourée de jardins et de vergers, près desquels on voit des roues hydrauliques, qu'on prendrait pour des globes célestes qui tournent. Elle est traversée par le fleuve considérable nommé Al'âcy (le rebelle; Oronte ou Axius). Elle a

منها من البحر وسُكّانه التركمان وفيه العيون والانهار وسافرت
منه الى جبل لُبْنان وهو من اخصب جبال الدنيا فيه اصناف
الفواكه وعيون الماء والظِلال الوافرة ولا يخلو من المنقطعين الى
الله تعالى والزُهّاد والصالحين وهو شهير بذلك ورايتُ به جماعة
من الصالحين قد إنقطعوا الى الله تعالى ممّن لم يشتهر اسمه،

حكاية اخبرني بعض الصالحين الذين لقيتهم به قال كُنّا
بهذا الجبل مع جماعة من الفقرآء ايّام البرد الشديد فاوقدنا
نارا عظيمة واحدقنا بها فقال بعض الحاضرين يصلح لهذه
النار ما يشوى فيها فقال احد الفقرآء ممّن تزْدَرِيه الأَعْيُن ولا

plus haut de la Syrie, et le premier que l'on découvre de la mer. Ses habitants sont des Turcomans; et l'on y voit des sources et des fleuves. De là, je me transportai vers le mont Loubnân (Liban), qui est un des plus fertiles du monde. Il fournit différentes sortes de fruits; il a des sources d'eau, d'épais ombrages, et il ne manque jamais de gens voués entièrement au culte de Dieu très-haut, d'individus ayant renoncé aux biens du monde, ni de saints personnages. Il est renommé pour cela; et je vis, pour ma part, dans cet endroit, un certain nombre de personnes pieuses, qui s'y étaient retirées pour adorer Dieu, mais dont les noms ne sont pas célèbres.

ANECDOTE.

Un des hommes pieux que j'y rencontrai m'a raconté le fait suivant: « Nous étions, dit-il, sur cette montagne, avec un certain nombre de fakirs, durant un froid très-violent; nous allumâmes un grand feu, et nous fîmes cercle autour de lui. Un des individus présents se mit à dire : « Il serait « bon d'avoir quelque chose à rôtir sur ce brasier. » Alors, un de ces pauvres, que les grands méprisent, et desquels

يُوبَه به إنّي كنتُ عند صلاة العصر بمُتعبَّد ابراهيم بن ادهم
فرايت بمقربة منه حمارَ وحش قد احدق الثلج به من كلّ
جانب واظنّه لا يقدر على الحِراك فلو ذهبتم اليه لقدرتم عليه
وشويتم لحمه في هذه النار قال فقُمْنا اليه في خمسة رجال فالفيناه
كما وصف الينا فقبضناه واتينا به اصحابنا وذبحناه واشوينا
لحمه في تلك النار وطلبنا الفقير الذى نبه عليه فلم نجده ولا
وقعنا له على اثر فطال تعجّبنا منه ثمّ وصلنا من جبل لبنان الى
مدينة بَعْلَبَكّ وهى حسنة قديمة من أطْيَب مُدُن الشام
تحدق بها البساتين الشريفة، والجنّات المُنيفة، وتخترق ارضَها
الانهارُ الجارية، وتُضاهى دمشق في خيراتها المتناهية، وبها من

on ne tient nul compte, dit : « Sachez que je me trouvais, « au moment de la prière de l'asr (l'après-midi), dans l'ora- « toire d'Ibrâhîm, fils d'Adhem; or je vis, à peu de distance, « un onagre qui était entouré de tout côté par la neige, et je « pense qu'il ne peut pas bouger de là. Si vous allez vers « lui, vous pourrez le prendre et rôtir sa chair dans ce feu- « ci. » Le pieux narrateur continue ainsi son récit : « Nous allâmes, au nombre de cinq, à la recherche de cet âne sauvage et nous le trouvâmes dans l'état qui nous avait été décrit; nous le prîmes et l'apportâmes à nos camarades; nous l'égorgeâmes et rôtîmes sa chair dans notre feu. Nous avons beaucoup cherché le fakir qui nous l'avait découvert, mais sans parvenir à en trouver le moindre vestige. Nous fûmes fort émerveillés de cette aventure. »

De la montagne du Liban, nous arrivâmes à la ville de Ba'labec (Ba'albec, anciennement *Heliopolis*). C'est une ville belle, ancienne, et des meilleures de la Syrie; elle est entourée par d'admirables vergers et des jardins célèbres; son sol est traversé par des rivières rapides, et elle ressemble

حَبّ الملوك ما ليس في سواها وبها يصنع الدِّبس المنسوب
اليها وهو نوع من الربّ يصنعونه من العِنَب ولهم تربة يضعونها
فيه فيجمد وتُكسر القُلّة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة
وتصنع منه الحلوآء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمّون حلوآءه
بالمُلَبَّن ويسمّونها ايضا بجِلْد الفَرَس وهي كثيرة الالبان ويجلب
منها الى دمشق وبينهما مسيرة يوم للمُجِدّ واما الرفاق
فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزبداني
كثيرة الفواكه ويغدون منها الى دمشق ويصنع ببعلبك
الثياب المنسوبة اليها من الإحرام وغيره ويصنع بها اواني

à Damas pour ses biens sans nombre. Elle fournit des cerises, plus qu'aucune autre contrée; et l'on fait dans cette ville le *dibs* (espèce de sirop) qu'on nomme de Ba'albec. C'est une sorte de *rob* (suc épaissi) qu'on fabrique avec les raisins, et les habitants ont une poudre qu'ils ajoutent au jus et qui le fait durcir. Alors, on brise le vase où il était, et on le retire d'une seule pièce. C'est avec lui qu'on fait une pâtisserie à laquelle on ajoute des pistaches et des amandes. Elle est appelée *elmolabban* (en forme de briques), et aussi *djeld elfaras* (en forme de saucisse: littéral. pénis du cheval). Ba'albec fournit beaucoup de lait, que l'on exporte à Damas, qui est à la distance d'une journée pour un marcheur actif. Mais, quant à ceux qui voyagent en caravane, ils ont pour habitude de passer la nuit dans une petite ville appelée Ezzabdâny, qui produit une grande quantité de fruits; et ce n'est que le lendemain, qu'ils arrivent à Damas. On confectionne à Ba'albec les étoffes qui prennent le nom de la ville; ce sont des *ihrâms* (couvertures et fichus de coton) et autres vêtements. On y fabrique aussi des vases et des cuillères en bois, qui n'ont pas

الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد وهم يسمّون الصحاف
بالدُّسُوت وربّما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة اخرى تسع في
جوفها واخرى في جوفها الى ان يبلغوا العشرة يخيّل لرائيها
انها صحفة واحدة وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرة
واحدة في جوف واحدة ويصنعون لها غشآء من جلد
ويمسكها الرجل في حزامه واذا حضر طعاما مع اصحابه اخرج
ذلك فيظنّ رائيه انها مِلْعَقة واحدة ثمّ يخرج من جوفها
تسعا وكان دخولي لبعلبك عشيّة النهار وخرجت منها بالغدو
لفرط إشتياقي الى دمشق ووصلت يوم الخميس التاسع من شهر
رمضان المعظم عام ستّة وعشرين الى مدينة دمشق الشام
فنزلت منها بمدرسة المالكيّة المعروفة بالشَرابيشيّة ودمشق هي

leurs pareils dans les autres pays. Les grands plats y sont nommés *duçoût* (du singulier persan *dest*), au lieu (du mot arabe) *sihâf*. Souvent on creuse ici un de ces plats, puis on en fait un autre qui tient dans le creux du premier, et un autre, dans la cavité du deuxième, et ainsi de suite, jusqu'à dix. C'est au point que celui qui les voit, pense qu'il n'y en a qu'un. Ils font de même pour les cuillères; ils en fabriquent dix, dont chacune tient dans la concavité de l'autre; puis ils les mettent dans une gaîne en peau. Il arrive, par exemple, qu'un homme les place dans sa ceinture, et, lorsqu'il se trouve au moment du repas, avec ses camarades, il tire cet étui, et ceux qui le voient s'imaginent que c'est une seule cuillère, tandis qu'il en fait sortir successivement neuf de la concavité de la première. Mon entrée à Ba'albec eut lieu au soir, et je la quittai dès le matin du jour suivant, à cause de l'excès de mon désir d'arriver à Damas. J'entrai dans cette ville le jeudi, neuvième jour du mois de ramadhân, le sublime, de l'année 726 (1326 de J. C.). Je me logeai dans le collège

ترجمة اديب التقي



ولد في الشام سنة ١٣١٣ (١٨٩٥) هجرية وتخرج في المدارس التركية السلطانية والعالية ودرس الآداب والعلوم العربية والدينية على العلامة الكبير السيد محسن الأمين، وعين معاون مدير في المدرسة السلطانية (التجهيزية) بدمشق سنة ١٣٣١ مالية ثم ضابطاً — ملازماً ثانياً في الجيش العثماني الثاني في قفقاسية أثناء الحرب الكبرى، ثم استاذاً للتاريخ والجغرافية في مدرستي التجهيز والمعلمين بدمشق ثم عضواً لديوان الترجمة والتأليف في وزارة المعارف بدمشق حيث كان يصدر مجلة التربية والتعليم الرسمية — مجلة وزارة المعارف يومئذ — هو وزميله الفاضل السيد عز الدين علم الدين ثم مديراً لمدرسة نموذج البحصة وعضواً في لجنة المؤلفات المدرسية في فرع التاريخ والجغرافية

[illegible]

إي عامل !

كلمة ما اعذبها في فمي ، وما احلاها واقدسها والذها عندي ، كلما لهج بذكرها لساني اهتزت اوتار قلبي الشجية وترقرقت دموع عيني المسجدية لذكرها وخفق فؤادي باجنحة الحنو للقياها

فسلام على تلكم الربوع وتحية لتلك الأطلال ! أنا ايتها البلاد لك كالطير الفاقد الفه أو كالفطيم عن ثدي امه لا اترنم إلا بذكراك ولا احن إلا للقياك

أيتها الربوع !

أنت هدف آمالي وعروسة خيالي افديك بروحي ومالي !

احبك لا كالحب واشغف بك لا كالشغف ، إن اسمك الشريف كلما يتلى على اذني أو يلهج به لساني تخور لذاك قواي وأقف حائراً لا ادري ما دهاني ! ! .

ايه ايتها الربوع والأطلال ! !

أنت اسمى موئلي ، أنت الحمى أنت السكن ، أنت لي اعز وطن ! !

فسلام عليك كلما هب الصبا وعلى نشئك المتنعم تحت سمائك ، ذاك النشء البائس الذي خيمت عليه الجهالة بخيامها ، وداسته بسنابك خيلها ، واستباحت ذمار علومه بجندها ، وهو لا يعلم مـا دهاه ولا يفقه ما اصابه فقد اصبح في بحر الجهل غارقا وعن العلم عازبا ولله در من قال :

مالي أرى البلدان ترغب في العلى	واراك عنها راغباً ياعامل
وأرى سواك لتى ريحك راكبا	يسمو وأنت على هوان نازل

ليت شعري على من اصوب سهام ملامتي ؟ ! أعلى الآباء أم على الزعماء أم على العلماء ؟

كل في الذنب مشترك

فحتى م التقاعس والى م اولادكم سكارى بخمرة الجهل والى كم هذه الحياة الدنية ؟ فهل من نهضة عاملية تحيا بها الآمال بعد موتها ؟ !

فإلى العلم الى العلم ! الى الاجتهاد الى الاجتهاد ! الى الرقي الى الرقي ! !

افيقوا من سبات جهلكم فقد سودتم ما بيضته اعمال الآباء المتقدمين وهدمتم ما بنته ايدي الجدود الماضين ! !

انا بما نجني وهم فيما جنوا ... بني البنون ونمت الأجداد

إن لم تستيقظوا ولم تتنبهوا فعلى عامل ونشئه السلام

هـذا مقالي فيك وهو حقيقة ... اتكذب الأيام ما أنا قـائـل

وبك انقضت ساعات عمري حسرة ... فمتى اراك وعنك جهلك زائل

يارب قد بلغت مـا المهتني ... فامنح هداك لمن لعامل عامل

دمشق ... حسن الأمين

احد تلاميذ الصف السادس في المدرسة العلمية

بين عامين

١٩٢٦ – ١٩٢٧

ليال وايام تمر كأنها رماحٌ على اعمارنا وصفاح
فلا خير في ايام تدني لنا الردى اذا ما مضى ليل اتاك صباح

هو ذا اليوم الاخير من شهر كانون الاول . تغيب شمسه ويتقلص ظله . فتغيب معه مرحلة طويلة من الحياة قطعناها نجرع الغصص ونحتسي الهم والكدر ونذرف دموع الحزن والالم

وتذهب في طيه ليال وأيام مرت علينا مر السراب . أحسبنا هناك ماء عذبا قراحا نروي به الظمأ ونشفي الغليل فإذا الماء — واحر قلباه — سراب

هي ذي الشمس تحتجب خلف الجبال ، وتغيب وراء الافق وهي ذي آخر ساعة تمر بنا من العام الراحل ، وهو ذا الفجر يرسل اشعته اللجينية الباهرة مؤذنة برحيل عام طويل الى عالم الفناء ، وبدخول هذا الكون في عالم جديد

فيا أيها العام الراحل :

المخاف وراء جفونا كسرت اهدابها الدموع ، وقلوبا ملأتها الايام هما وحزنا ، وأجساما هدها فرط العذاب والشقاء — لا كانت لياليك ، ولا كانت الساعة التي جئت بها تحمل في طياتك هذا الهم والحزن وهذا العذاب والشقاء !

ويا ايها العام القادم :

ما ذا بين جنبيك ؟ وما ذا تحمل لهذا الوطن التاعس ولهذه الامة البائسة ؟ أم ما ذا في تلك الايام القادمة والليالي المقبلة من حوادث الزمان وطوارق الحدثان

رحماك ، ولا تكن قاسيا فهذي دموعنا لم تجف وهذي الآلام والاحزان لم تكف حنانيك . . ولا تكن ثالثة الاثافي وارحم امة لم تعرف الهناء ، ولم تذق أيام السرور ، وبلادا الحت عليها المصائب والنوائب ، ونفوسا لا تزال ذكريات العام الماضي تنكأ فيها لواعج الاشجان وبواعث الاحزان .

جبل عامل حسن الأمين



في النجف



عند التخرج من معهد الحقوق سنة ١٩٣٤

II.- AFFAIRES POLITIQUES

Réunion à Chacra

Sayed HASSAN EL AMINE, fils de Sayed MUHSEN EL AMINE, grand uléma chiite de Chacra (Caza de Merdjayoun) qui vient d(obtenir sa licence de la Faculté de Droit de Damas, a été à sa rentrée l'objet d'une sympathique manifestation de la part des jeunes gens de son village.

Au cours d'un déjeûner offert en son honneur, et auquel ont assisté différentes personnalités du Djebel Amel, dont HADJ ISMAIL KHALIL de Tyr, ainsi que certains notables de Beint Jbail, Nabatyé etc....,de nombreux discours ont été prononcés.

Le bruit ayant couru que des questions touchant le régime gouvernemental ou mandataire avaient été soulevées par les orateurs, la cérémonie devait de ce fait être considérée comme une réunion politique et soumise au préalable à une autorisation des autorités.

De l'enquête que le Caimacam fit faire à ce sujet par la gendarmerie du Caza il a été démontré que ces bruits n'avaient aucune base de vérité. Les orateurs, dont Maître ADIB EL TAKI de Damas, professeur du jeune avocat, se seraient bornés à féliciter ce dernier, louer son intelligence et ses capacités etc.... Seul ABDULLATIF CHERARA, de Beint Jbail, tout en incitant la jeunesse chiite à suivre l'exemple de l'intéressé et chercher à s'instruire, adressa de sévères critiques aux ulémas ~~xxxxxx~~ et notables chiites du Djebel Amel, qu'il accusa d'inertie et de passivité à l'égard de la jeunesse de leur communauté qu'ils laissent pâtir dans l'ignorance. Il;les incita à demander aux autorités de

renforcer le nombre des écoles dans la région du Djebel Amel.

Deux gendarmes du Poste d'Adeissé, en patrouille à Chaara le jour de la cérémonie, et présents à la réunion, ont confirmé par leurs dires le résultat de l'enquête.

Lettre anonyme

Une lettre déposée au Bureau des P.T.T. de Zahlé a été adressée, voici 4 ou 5 jours, au nommé SAID EL KURDI, paysan sunnite d'El Biré (Caza de Rachaya).

Elle consistait en une circulaire anonyme, tirée à la gélatine, aux termes de laquelle il était demandé aux paysans de s'unir pour prier le Gouvernement de réduire les impôts. Dans cette circulaire, les autorités libanaises sont accusées d'être le paravent de la Puissance Mandataire, dont le seul but est de ruiner le pays, le pressurer et en retirer tout le numéraire qui y existe encore.

Gendarmerie enquête.

Article de presse

Le journal "El Ouadi Zahlaouiat" paraissant à Zahlé, a publié dans un de ses derniers numéros un article prétendant que les Druses et les Musulmans du Caza de Rachaya demandaient leur rattachement à la Syrie, en vue d'échapper au despotisme du Gouvernement Libanais.

A cette nouvelle le mufti sunnite et le cadi mezhab de Rachaya ont adressé des télégrammes au Haut Commissaire et au Président de la R.L. démentant cet article et"demandant la punition des menteurs"

Situation à Nabatyé

La situation actuelle du point de vue politique locale laisse un peu à désirer dans la région de Nabatyé.

A la suite de l'incident ayant eu lieu à Kerferroumma-

et au cours duquel 5 ou 6 personnes ont été blessées(Voir précé - dent B.L.), les relations, déjà assez tendues entre les deux partis FAIK et ZEIN, sont devenues presqu'hostiles.

La question des eaux, dont l'adduction à Nabatyé et sa région avait été précédemment assurée par YOUSSEF Bey ZEIN, est venue d'autrepart envenimer la discorde.

L'eau n'arrivant pas parfois aux villages à altitude élevée, ZEIN est accusé de couper sciemment les eaux, soit pour en priver ses adversaires, soit pour irriguer ses champs que l'adduction traverse.

L'affaire est à l'étude.

II.- AFFAIRES POLITIQUES

Télégramme en faveur de l'Unité Syrienne

Le 14 Septembre 1934, un télégramme dont traduction suit, a été adressé de Nabatyé à Mr. le Haut Commissaire. Les journaux : AL NAHAR, AL AHRAR, AL NOUDA, AL BELAGH, LISSAN UL HAL de Beyrouth, en ont reçu également copie :

" Nous, de la jeunesse du Djebal Amel, profitons de l'occasion du départ voyage de votre Excellence pour vous informer de notre attachement à l'unité syrienne intégrale. Vous demandons en faire communication au Ministère des Affaires Etrangères ainsi qu'à la Société des Nations."

Les signataires de cette dépêche, au nombre de vingt et un, jeunes gens chiites de Nabatyé, sont pour la plupart des cordonniers ou de petits boutiquiers, sans influence ni situation.

A retenir néanmoins la signature de HASSAN EL AMINE, jeune avocat nouvellement licencié de la Faculté de Damas, fils de Sayed MUHSEN EL AMINE, grand uléma de Chaora.

E.- ZONE FRONTIERE

Réunion à Taybé

Dans le but de régler à l'amiable l'assassinat d'un chiite originaire de Houmine (Palestine), commis par des Bédouins du Houlé, une réunion complémentaire de celle qui s'était tenue, voici 7 ou 8 jours (Cf. B.I. précédent), a eu lieu le 15 Septembre chez ABDULLATIF Bey EL ASSAD de Taybé (Liban).

N'ayant pu se mettre précédemment d'accord sur le montant de la "Dia" ou prix du sang, les chefs Bédouins du Houlé se sont fait accompagner cette fois de l'Emir FAOUR, [illegible] FAHL du Djoulan(Syrie) et du Cheikh ZAAL EL [illegible] son parent.

o

Liaison

Le Capitaine DESFARGES, Chef p.i. du Poste S.S. de Merdjayoun, s'est rendu le 12 Septembre à Safed, en liaison avec les autorités voisines./.

SAIDA, le 29 Octobre 1934

HAUT COMMISSARIAT
DE LA
RÉPUBLIQUE FRANÇAISE
EN SYRIE ET AU LIBAN

CONSEILLER ADMINISTRATIF

LIBAN SUD

N° 410

CONFIDENTIEL

NOTE

A/s
Les receptions à Beyrouth
et à Saida du Sayed Mohsen
El Amine de Chakra

Le Sayed Mohsen El-Amine, Ulema chiite, originaire de Chakra (Caza de Merdjayoun) est arrivé à Saida le Dimanche 28 Octobre 1934. Sur la demande de Cheikh AREF ZEIN, Chiite propriétaire et redacteur de la Revue "EL ORFAN", plusieurs sunnites de Saida ayant des sympathies damascaines se sont portés à sa rencontre.

Il semble que le Moufti sunnite de Beyrouth Cheikh TOUFICK KHALED a demandé à quelques personnes de Saida de bien recevoir ce Cheikh chiite qui jusqu'à présent paraissait être ignoré de sunnites.

Plusieurs notables chiites sont venus chez le Conseiller Administratif du Liban Sud pour exprimer leur étonnement de voir qu'à Beyrouth les sunnites ont reçu avec les honneurs dûs à une personne officielle, un des trente Ulemas chiites qui habitent au Djebel Amel . Selon les dires de ces personnages le Sayed MOHSEN a été reçu à Beyrouth dans la famille de Baydoun . Le Moufti, le Cadi, le Consul de Perse et de nombreuses personnalités lui ont rendu visite. M. Omar Daouk aurait, d'autre part, organisé un banquet en son honneur auquel assistaient div. Chefs religieux musulmans ainsi que les Directeurs de l'Intérieur et de la Police et l'Administrateur du Mont-Liban....

HAUT-COMMISSARIAT
DE LA
RÉPUBLIQUE FRANÇAISE
EN SYRIE ET AU LIBAN

L'attention portée à ce personnage semble tout a fait injustifiée . Par ordre d'importance les Chefs religieux chiites se classent ainsi :

Le Cheikh HUSSEIN MOUGHNIE, Président des Ulemas chiites du Djebel Amel, habitant à Teir Dibbas,

Le Grand Sayed ABDEL HUSSEIN CHARAF EL DINE de Tyr ,

Le Cheikh ABDEL HUSSEIN SADEK de Nabatyé dont le fils vient d'être nommé Moufti de Saida.

Tous ces Ulemas chiites entretiennent , d'ailleurs, des rapports les plus cordiales avec les Autorités Mandataires.

Le Sayed Mohsen a toujours été parmi ceux quit travaillaient contre le Mandat. Son fils rentré de Damas (licencié en Droit) a dernièrement incité quelques gens ignorants de Nabatyé à signer un télégramme demandant le rattachement du Djebel Amel à Damas. D'autre part, j'ai déjà signalé, ainsi que l'Officier des Services Spéciaux de Merdjayoun que pour fêter l'arrivée de son fils, venant de Damas le Sayed a convié une foule de gens habitants le Djebel Amel, et des discours "pro-union arabe" furent prononcés. Est-ce à celà qu'il doit sa popularité ?

Les nationalistes de Damas essayent dépuis longtemps de corrompre moralement la jeunesse chiite étudiante à Damas. Dépuis le Congrés de Jérusalem 1931, quand on a permis à l'Ulema chiite EL KACHAF EL KATA d'Irak, de dire les prières dans la grande Mosquée sunnite de Jérusalem, ils flattent les Ulemas chiites les attirant dans l'orbite de leurs idées et si possible de leurs actions ...

HAUT COMMISSARIAT
DE LA
REPUBLIQUE FRANÇAISE
EN SYRIE ET AU LIBAN

Il semble qu'une campagne serait entreprise par certaines personnalités en vue de nommer le Sayed Mohsen Moufti des Mouftis chiites . Certains chefs nationalistes par l'intermédiaire de RIAD SOLH seraient intervenus à ce sujet.

Le Sayed MOHSEN avec le Cheikh AHMED RIDA et le Cheikh SLIMAN DAHER sont de ceux qui ont toujours incité la population contre la présence "des étrangers dans le pays arabe".

Son cousin, le Sayed ABDEL HUSSEIN MAHMOUD, aussi de Chakra, est connu comme intrigant et comme agitateur . Le fils de ce dernier ALI MAHMOUD est également connu par ses sentiments anti-mandataires. Dernièrement il a écrit et il a essayé de faire repandre un écrit faisant le procès de la Puissance Mandataire qui " s'est installé par la force de ses canons" dans ce pays et qui "après avoir donné la liberté l'a retiré"...

Il est donc tout a fait étonnant que le Sayed Mohsen ait été accueilli pareillement à Beyrouth et la présence au banquet d'OMAR BEY DAOUK des hauts fonctionnaires libanais (si celà est exact) est tout au moins deplacée... ./.

DESTINATAIRES
M.M. LE HAUT COMMISSAIRE DE LA R. F. (Résidence)
LE HAUT COMMISSAIRE DE LA R. F. (Cabinet Politique)
ARCHIVES

II.- AFFAIRES POLITIQUES

Mazbattas demandant une réduction d'impôts

A l'instigation d'ABDULLATIF Bey EL ASSAD, de Taybé, ancien député chiite du Liban Sud, et de CHEFIC AOUDEH, notable grec catholique de Deir Mimas, des mazbattas seraient incessamment, ou l'ont été déjà, mises en circulation dans la région Est du Djebel Amel, dépendant du Caza de Merdjayoun.

Le but de ces mazbattas serait de demander au gouvernement :

Io - Une réduction des dîmes en raison de la récolte déficitaire de cette année.

2o - Une réduction de la taxe immobilière pour les maisons de faible valeur habitées par les paysans.

Rentrée d'un chef religieux

Le Sayed MOHSEN EL AMINE, uléma chiite de Chacra (Caza de Merdjayoun), qui s'était rendu il y a 7 à 8 mois en voyage d'études en Irak, est rentré dans son village le 29 Octobre.

Cinq à six cents personnes des villages environnants s'étaient portées à sa rencontre jusqu'à Tibnine, et l'accompagnèrent à Chacra.

NOTA : Ce chef religieux entretient des relations assez suivies avec les milieux nationalistes de Damas avec lesquels il sympathise.

Son fils, Sayed HASSAN, licencié de la Faculté de Droit de Damas, a été l'un des signataires du télégramme demandant l'unité des Etats sous Mandat Français, signalé au B.I. No 35 du IO Septembre I934.

III.- AFFAIRES ECONOMIQUES

Route Djezzine - Merdjayoun

Au cours d'une tournée en date du 3 Novembre, l'Officier des S.S. a pu se rendre compte de l'intérêt qu'il y aurait à reprendre les travaux de construction de la route Djezzine - Merdjayoun par Kfarhoumé, Rihane, Aychié et Djermak, commencés en 1929 par les soins de la troupe et suspendus depuis.

Cette route est très importante au point de vue économique et mettrait en relations directes les régions de Nabatyé et Merdjayoun avec celles de Djezzine et du Chouf.

Elle serait terminée depuis longtemps sans les intrigues de l'ex député YOUSSEF Bey ZEIN, qui fit tomber le projet et en fit adopter un autre passant par : Kfar-roummane, Djarjoua et Djbaa où il possède des propriétés.

L'on arrive actuellement en auto venant :

a) de Merdjayoun jusqu'à Aychié

b) de Djezzine jusqu'à Rihane.

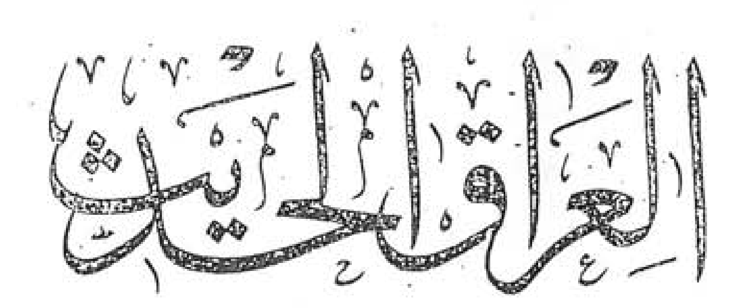
Il ne resterait à construire que le tronçon compris entre Aychié et Rihane (5 à 6 Km. environ).

Le Caimacam de Djezzine a déclaré qu'un projet était en ce moment à l'étude dans le but de reprendre les travaux. Il serait désirable que ce projet aboutisse le plus rapidement possible.



في دار المعلمين الريفية

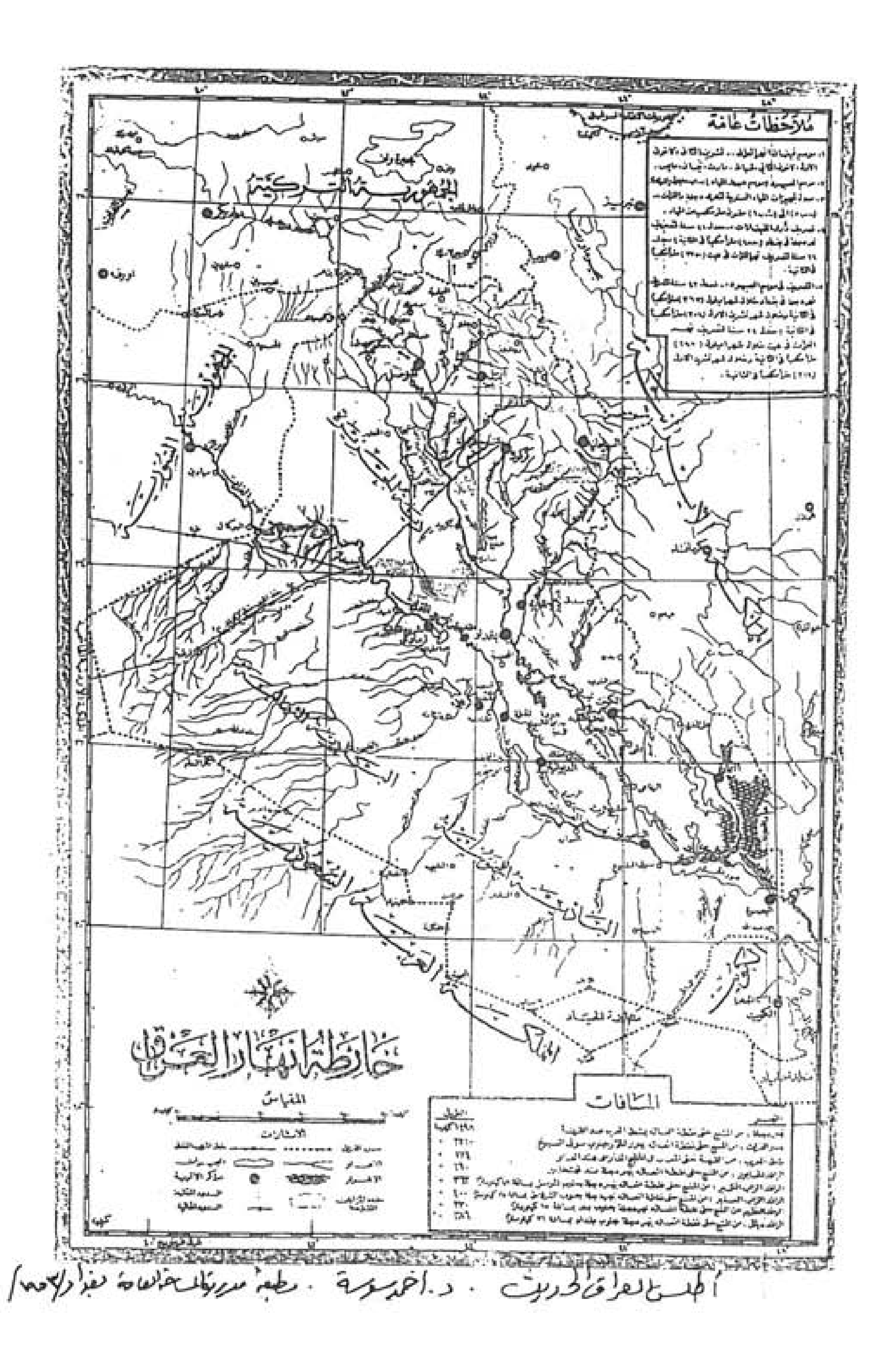
اطلس



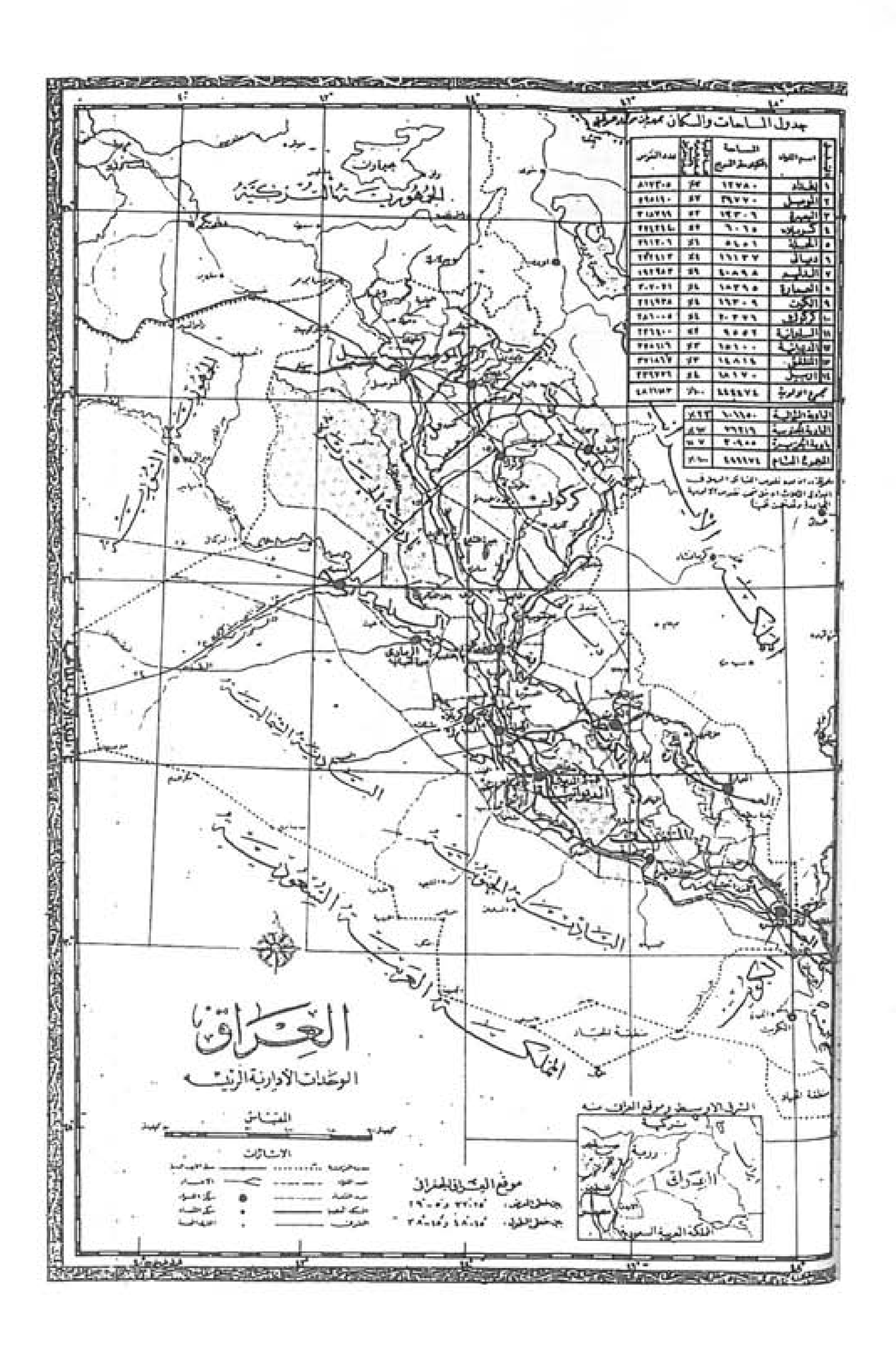
العراق الحديث

لواضعه
الدكتور احمد سوسه

مطبعة مديرية المساحة العامة
بغداد ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م



أطلس العراق الحديث . د. احمد سوسة . مطبعة مديرية المساحة العامة بغداد ١٩٥٣


العراق
الوحدات الادارية الرئيسية
جدول المساحات والسكان
الجمهورية التركية
كركوك
الموصل
الكويت
منطقة الحياد
المقياس
الاشارات
موقع العراق الجغرافي
الشرق الاوسط وموقع العراق منه
تركية
سورية
العراق
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

كنت أشعر منذ زمن طويل بالحاجة الملحة الى اطلس يضم المعلومات المتعلقة بجغرافية العراق وتشكيلاته الادارية، لكن لسوء الحظ لم يتهيأ احد لانجاز هذا المشروع حتى الآن، وهذا ما حملني على وضع «اطلس العراق الاداري» لسد هذا الفراغ، وكلي رجاء ان يكون هذا الاطلس نواة لجهود اخرى اوسع في هذا الحقل. ولا اريد التبجح حين اقول اني تجشمت مصاعب كثيرة وانفقت وقتاً غير قصير في سبيل اخراج هذا الاطلس الذي هو الاول من نوعه من حيث التبويب والتنظيم ودقة المعلومات الواردة فيه.

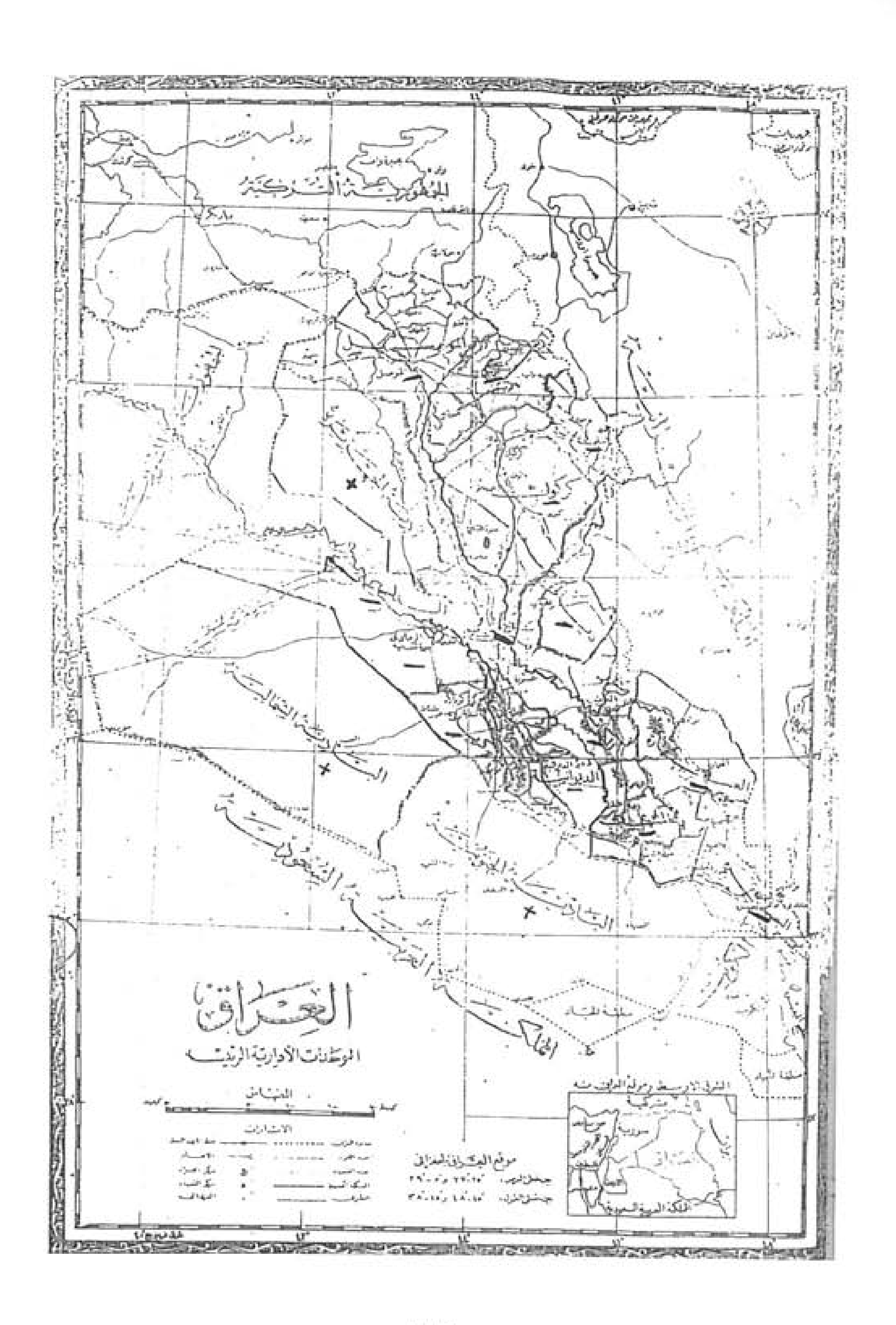
ينقسم العراق ادارياً الى عدة الوية، وكل لواء ينقسم الى عدة اقضية، وكل قضاء يتألف من بضع نواح، ويدير شؤون اللواء متصرف وشؤون القضاء قائمقام وشؤون الناحية مدير. ويبلغ عدد الالوية اربعة عشر وعدد الاقضية واحداً وستين وعدد النواحي ثمانياً وستين ومائة، هذا عدا البوادي الثلاث - البادية الشمالية والبادية الجنوبية وبادية الجزيرة - التي تتمتع بادارة خاصة بها. ويوجد نظرياً في كل مركز لواء قضاء - هو قضاء مركز اللواء - تلحق به النواحي المجاورة لمركز اللواء، الا انه في اكثر الحالات لم يعين قائممقامون في هذه الاقضية فتتولى المتصرفية نفسها تولي شؤون هذه النواحي مباشرة، كذلك يوجد نظرياً ناحية في كل مركز قضاء - هي ناحية مركز القضاء - مرتبطة بقائممقام القضاء مع بقية النواحي التابعة له، الا انه في اكثر الحالات لم يعين مدراء لهذه النواحي فتتولى القائممقامية نفسها تولي شؤونها. وقد اعتبرت بعض المدن والقصبات التي تقع فيها مراكز الالوية والاقضية وحدات ادارية مستقلة مرتبطة بالمتصرفين او القائممقامين مباشرة دون ان يعين لها مدير، مثلاً مدينة بغداد (مركز قضاء بغداد) فانها تعتبر وحدة ادارية مرتبطة بمركز متصرفية اللواء مباشرة دون ان يكون لها موظف اداري خاص بها.

ويشتمل هذا الاطلس على خارطة عامة للعراق تبين حدود الوحدات الادارية الرئيسية وبازائها جدول عمومي يحتوي على احصاءات عامة عن المساحات والنفوس وكثافة السكان وغير ذلك، وهناك اربعة عشر خارطة لألوية العراق ولكل خارطة جدول خاص بها فيه معلومات عن المساحات والنفوس وكثافة السكان لكل ناحية وقضاء، كما ان هناك عدة خرائط وجداول تبين تفاصيل الوضع الاداري لمدينة بغداد وملحقاتها وحدود المحلات في كل قسم من اقسامها مع مساحة كل محلة ونفوسها. وفي الاطلس ثلاث خرائط للبوادي الثلاث، وهي البادية الشمالية والبادية الجنوبية وبادية الجزيرة، وفيه ايضاً خارطة لطرق العراق. وقد نظم جدول خاص مع فهرس لمراكز الالوية والاقضية والنواحي الحالية مع بيان عدد نفوس كل منها. ويلاحظ في هذا الجدول ان بعض المدن اتخذ مركزاً للواء وللقضاء مركز اللواء وللناحية مركز القضاء ولبعض النواحي المجاورة في آن واحد كما ان بعض المدن اتخذ مركزاً للقضاء وللناحية مركز القضاء ولبعض النواحي المجاورة في آن واحد.

هذا ولا يفوتني ان اسجل تقديري وشكري للسيد عبد الكريم رفعت الذي بذل جهوداً كثيرة في رسم خرائط هذا الاطلس.

بغداد - شوال ١٣٧١
تموز ١٩٥٢

احمد سوسة


العراق
الوحدات الادارية الرئيسية
الاشارات
منطقة الحياد

جدول المساحات والسكان والكثافة للألوية العراقية

إحصاء النفوس مستقى من التسجيل العام بتاريخ ١٩/٦/١٩٤٧

(راجع خارطة العراق حسب وحداته الادارية الرئيسة)

ت	اسم اللواء	المساحة بالكيلومتر المربع	النسبة المئوية لمساحة اللواء الى مساحة العراق	عدد النفوس	النسبة المئوية لنفوس اللواء الى نفوس العراق	الكثافة عدد النفوس لكل كيلومتر مربع	مساحة الاراضي المزروعة بالكيلومتر المربع	الكثافة عدد النفوس لكل كيلومتر مربع من الاراضي المزروعة	النسبة المئوية لمساحة الاراضي المزروعة الى مساحة اللواء
١	بغداد	١٢٧٨٠	٪٣	٨١٧٣٠٥	٪١٧	٦٣،٩	٢٧٧٨	٢٩٩،٢	٪٢١
٢	الموصل	٤٩٧٧٠	٪٧	٥٩٥٦٩٠	٪١٢	١٢،٠	٢٩٠٥٨	٢٠،٤	٪٥٣
٣	البصرة	١١٣٠٦	٪٣	٣٦٨٧٩٩	٪٧	٣٢،٩	٥٥٤	٦٦٥،٩	٪٤
٤	كربلاء	٦٠٦٥	٪٢	٢٧٤٢٩٤	٪٦	٤٥،٢	٢٢٢	١٢٣٥،٤	٪٤
٥	الحلة	٥٤٥١	٪١	٢٦١٢٠٦	٪٥	٤٧،٩	٢٥٦٤	١٠١،٨	٪٤٧
٦	ديالى	١٦١٣٧	٪٤	٢٧٢٤١٣	٪٦	١٦،٨	٣٠٠٢	٩٠،٧	٪١٨
٧	الدليم	٩٠٨٩٨	٪٢٠	١٩٢٩٨٣	٪٤	٢،٢	١٠٩١	١٧٦،٨	٪١
٨	العمارة	١٨٣٩٠	٪٤	٣٠٧٠٢١	٪٦	١٦،٦	١٤١٢	٢١٧،٤	٪٨
٩	الكوت	١٦٣٠٩	٪٤	٢٤٤٩٣٨	٪٥	١٥،٠	١٠٧٧٤	٢٠،٨	٪٦٦
١٠	كركوك	٢٠٣٧٦	٪٤	٢٨٦٠٠٥	٪٦	١٤،٠	٥٧٩٣	٤٩،٧	٪٢٨
١١	السليمانية	٩٥٥٢	٪٢	٢٢٦١٠٠	٪٥	٢٣،٧	٣٥٥١	٦٣،٧	٪٣٧
١٢	الديوانية	١٥٦٠٠	٪٣	٣٢٨١١٩	٪٨	٢١،٠	٣١٨٩	١٠٢،٨	٪٢٠
١٣	المنتفق	١٤٨١٤	٪٣	٣٦٩٨٠٦	٪٨	٢٤،٩	٣٩٥٣	٩٣،٥	٪٢٦
١٤	اربيل	١٨١٢٠	٪٤	٢٣٩٧٧٦	٪٥	١٣،٢	٤٥٥٢	٥٢،٦	٪٢٥
	مجموع الالوية	٢٣٦١٢٣	٪٥٣	٤٨١٦١٢٢	٪١٠٠	٢٠،٤	٧٢٩٩٤٥	٦٦،٠	٪٣٠
	البادية الشمالية	١٠١٦٥٠	٪٢٣	—	—	—	—	—	—
	البادية الجنوبية	٧٦٢١١	٪١٧	—	—	—	—	—	—
	بادية الجزيرة	٣٠٩٨٥	٪٧	—	—	—	—	—	—
	المجموع العام	٤٤٤٤٧٤	٪١٠٠	٤٨١٦١٢٢	٪١٠٠	١٠،٨	٧٢٩٩٤٥	٦٦،٠	٪١٦

(١) ان هذا الاحصاء مستقى من تسجيل مديرية الزراعات العامة لمساحات الاراضي المزروعة في كل من ألوية العراق خلال سنة ١٩٤٦ – ١٩٥٠ وتشمل هذه المساحات المزروعات الشتوية والصيفية والاراضي المغروسة بالنخيل واشجار الفاكهة.

(٢) ان هذا التقدير لمساحة الاراضي المزروعة في لواء الموصل كان قد جرى قبل ان تقتطع من هذا اللواء الاراضي التي شكلت منها بادية الجزيرة وتبلغ مساحة الاراضي المقتطعة من لواء الموصل ٢٠٨٠٢ كم٢.

(٣) ان هذه النسبة المئوية حسبت لمساحة اللواء قبل ان تقتطع منه الاراضي التي تألفت منها بادية الجزيرة وكانت تبلغ آنذاك ٤٠٥٤٢ كم٢.

(٤) ان هذه المزروعات موزعة بحسب طرق سقيها كما يلي:

المساحة بالكيلومتر المربع	
١١٩٠٠	الاراضي المرواة بالضخ والواسطة
١٦٥٠٠	الاراضي المرواة من جداول الري بطريقة السيح
٤٢٣٠٠	الاراضي المرواة بالامطار
١٨٠٠	اراضي النخيل والبساتين
٧٢٥٠٠	المجموع

(٥) ان عدد نفوس القبائل الرحل في البوادي الثلاث ادخل ضمن نفوس الالوية المجاورة وقد خمن تخميناً.

عدد البلديات في ألوية العراق حسب درجاتها

اللواء	الدرجة الاولى	الدرجة الثانية	الدرجة الثالثة	الدرجة الرابعة	المجموع
بغداد	١	—	٦	٢	٩
البصرة	١	—	٦	٢	٩
الموصل	١	١	١٠	٣	١٥
كركوك	١	—	١	٣	٥
ديالى	—	١	١	١	٣
كربلاء	—	٣	—	١	٤
الدليم	—	٣	٢	٠	٥
الديوانية	—	٣	١٠	٢	١٥
الحلة	—	٣	٥	٢	١٠
المنتفق	—	٣	١	٢	٦
اربيل	—	١	٢	٢	٥
الكوت	—	٢	٦	١	٩
العمارة	—	١	١	١	٣
السليمانية	—	١	٢	٢	٥
مجموع العراق	٤	٢٣	٦٦	٣٢	١٢٨

(١) ان بلديات الدرجة الاولى هي البلديات التي تزيد وارداتها على ٢٠٠٠٠ دينار، وبلديات الدرجة الثانية التي تزيد وارداتها على ٢٥٠٠ ديناراً، وبلديات الدرجة الثالثة التي تزيد وارداتها على ٢٥٠ ديناراً، وبلديات الدرجة الرابعة التي تقل وارداتها عن ٢٥٠ ديناراً.

اطلس العراق الحديث. د. احمد سوسة. مطبعة مديرية المساحة العامة. بغداد ١٩٥٣

أشعار أرجنتينية

للشاعرة الارجنتينية الملهمة الآنسة نيليدا شرارة Nelida Cherara



الآنسة نيليدا شرارة Nelida Cherara هي الآن شاعرة الارجنتين تسكن مدينة الروساريو وتتناقل قصائدها صحف البلاد الناطقة بالاسبانية منجية فخورة ، وهي اليوم في التاسعة والعشرين من عمرها وقد اخرجت حتى الآن ديوانين شعريين اسم احدهما Luz Interior واسم الثاني Intimidad كما اخرجت كتابا ترجمت به Maria de la Asuncion ولديها عدا ذلك عدة مجاميع شعرية خطية . وهذه الشاعرة الحقة من اصل عربي ، فأمها فرنسية وابوها عربي من جبل عامل ولكنها نشأت نشأة ارجنتينية بحتة إذ انها ولدت في الارجنتين وعاشت فيها ولم تعرف غيرها وطناً لها ، ولكنها مع ذلك ومع أنها تجهل اللغة العربية ولا تتكلم إلا الاسبانية وحدها فانها تعتز بأرومتها العربية وقد اوقفت عبقريتها الادبية في سبيل الدفاع عن القضية العربية وقضية فلسطين بصورة خاصة فنشرت في امهات الصحف الارجنتينية مقالات من اروع ما يكتب في الدفاع عن حق العرب في فلسطين . وهي عضو في المجامع العلمية الناطقة بالاسبانية كما أن لها صلات ادبية مع نوادي اوربا واميركا .

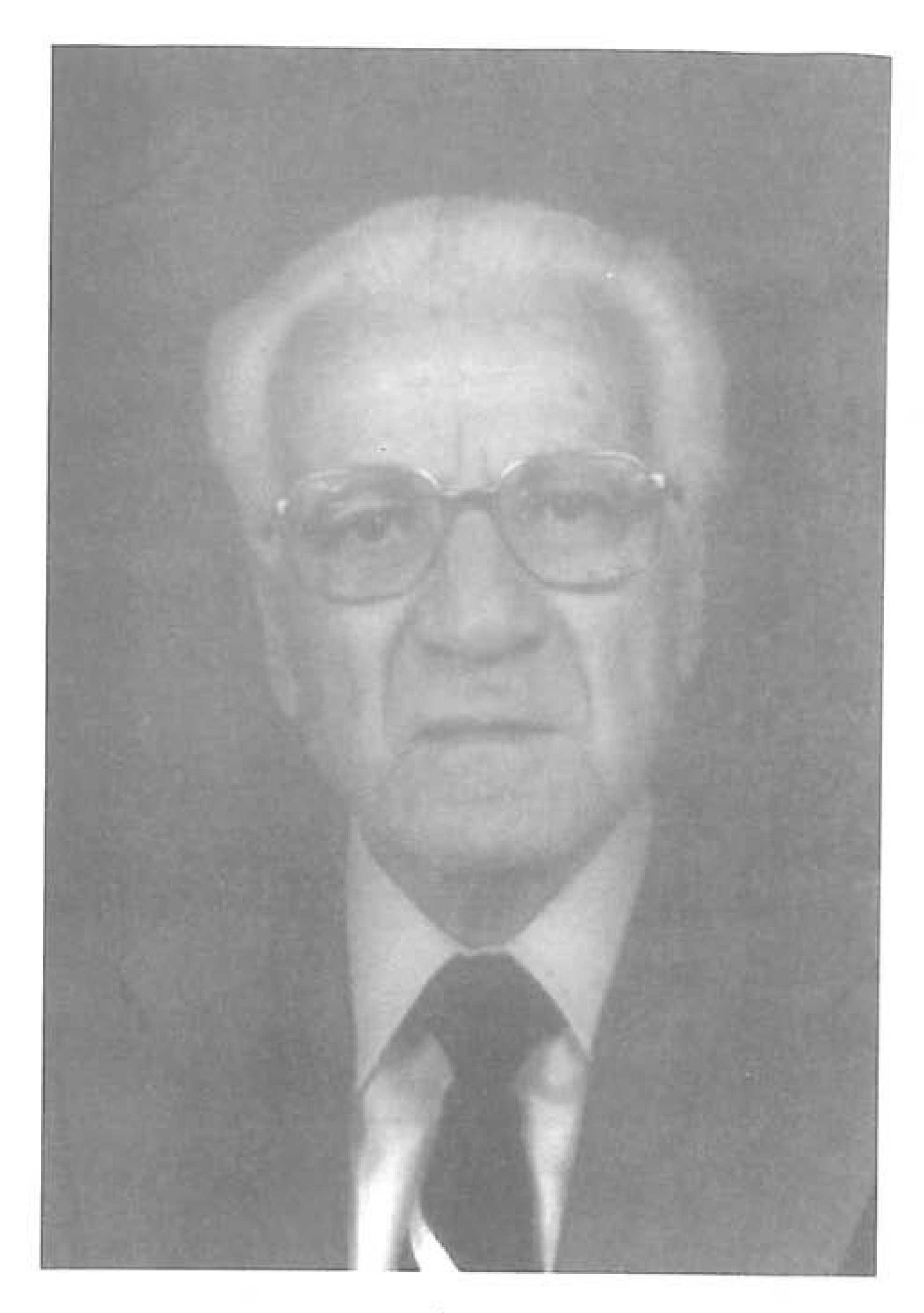
وتنشر العرفان في هذا الجزء بعض اشعارها معربة بقلم الادبية العربية اللامعة الآنسة سعاد الصارمي



الكاتب حسن الأمين في الوسط وإلى يساره الشاعرة نيليدا شرارة مع اسرتها في منزلها



حسن الأمين



حسن الأمين



مع هيئة مكتب جمعية المؤلفين والكتاب الباكستانيين في كراتشي



خارجاً من حفلة جمعية اصدقاء العالم الإسلامي في لاهور

بين المستقبلين في مطار كراتشي



محاضرة في مولتان



في حفلة جمعية الكتاب والمؤلفين ببشارو



على حدود افغانستان بعد اجتياز ممر خيبر

حسن الأمين

حلٌّ وترحال



في هذا الكتاب «حلٌّ وترحال» للمؤرخ السيد حسن الأمين، والذي قد يجد القارئ في عنوانه ما يبعث على الغرابة، ثمة واقعية تشفع له، يسرد فيها المؤلف ذكريات عمر بين دمشق وجبل عامل، إذ إن حياته توزعت بين هذين المكانين.

في هذه الذكريات وصف لتقاليد وعادات وأطوار للحياة كانت سائدة في لبنان وسورية ثم عفى عليها الزمن يوماً بعد يوم، حتى امحى بعضها من الوجود امحاءً كاملاً.

إن ما يتضمنه الكتاب ليس سيرة ذاتية، ولا هو أدب رحلات، بل هو مزيج من ذلك جميعاً، يدفع القراء إلى أن يقتفوا أثر المؤلف وحياته المديدة (٩٠ عاماً) وما حفلت به من أحداث ومواقف ومفارقات،

واقعين على صيد ثمين هو عبارة عن قلم نضر وعقل حي يحسده عليهما الكثير من شباب اليوم.

ذكريات

جدول بأسماء خلفاء الفاطميين في مصر

اللقب	هـ	الاسم	م
المعز لدين الله .	٣٤١	معد أبو تميم	٩٥٢
العزيز بالله	٣٦٥	نزار أبو منصور	٩٧٥
الحاكم بأمر الله	٣٨٦	المنصور أبو على	٩٩٦
الظاهر لإعزاز دين الله	٤١١	علىّ أبو الحسن	١٠٣٠
المستنصر بالله	٤٢٧	معد أبو تميم	١٠٣٥
المستعلى بالله	٤٨٧	أحمد أبو القاسم	١٠٩٤
الآمر بأحكام الله	٤٩٥	المنصور أبو علىّ	١١٠١
الحافظ لدين الله	٥٢٤	عبد المجيد أبو الميمون	١١٣٠
الظافر بأمر الله	٥٤٤	إسماعيل أبو المنصور	١١٤٩
الفائز بنصر الله	٥٤٩	عيسى أبو القاسم	١١٥٤
العاضد لدين الله	٥٥٥	عبد الله أبو محمد	١١٦٠

سقوط الخلافة الفاطمية فى سنة ١١٧١/٥٦٧ .

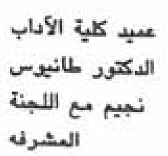
د. عبد المنعم ماجد ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها
ط ٢ ١٩٦٢



احسان شراره في
بداية المناقشة.







عميد كلية الآداب
الدكتور طانيوس
نجيم مع اللجنة
المشرفه

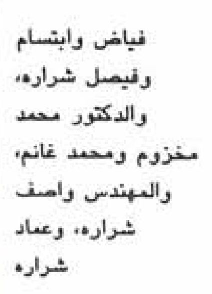
لجنة المناقشة
الدكاتره: من اليمين
جورج كرباج، متري
بولس، جوزيف
شريم





العلامة السيد احمد شوقي الامين، الدكتور عماد الأمين الدكتور ابراهيم بيضون، المهندس محمد شراره، الدكتور احمد بيضون، السيد مأمون حيدر





فياض وابتسام وفيصل شراره، والدكتور محمد مخزوم ومحمد غانم، والمهندس واصف شراره، وعماد شراره



عميد كلية الآداب الدكتور طانيوس نجيم يتوسط الدكتور احمد بيضون وفيصل شراره، واحسان شراره وفياض شراره ومحمد شراره

المحتويات

حسن الأمين

رحالة وأديباً ومؤرخاً

حسن الأمين ...

أنت لا تذكر متى حفظت هذا الإسم واختزنته في ذاكرتك، يومئذ كنت صغيراً يتلقف سمعك دون وعي بعض أحاديث الكبار في جلسات الشاي ونوادي السمر، كانوا علماء دين وشعراء وادباء يلتقون عند أحد أقاربك يتحاورون ويتبادلون تعليقات تفوق إدراكك، لكنك كنت تعلم ممن يتقدمونك في السن أن هذا المجلس حلقة للخاصة، الواسعي الأفق، المتنورين، وأنك عندما تكبر سوف تتفهم وتقيم ما كان يتداوله هؤلاء الكبار ...

وكان بين الكبار أصحاب عمائم بيضاء، وسوداء وخضراء، وكان الطفل - كما رفاقه - يدرك أن لهم مكانة خاصة، واحتراماً كثيراً، وحاجزاً من المهابة والوقار !! وكان بينهم فئة بلا عمائم تتدرج أعمارهم بين الصبا والكهولة: تحس أنهم أتراب، تمور حياتهم بمرح الشباب وطموح الرجال وهواجس التحرر ورغبة الانطلاق، كانوا الجيل الجديد المنذور للغد الأفضل، وكان حسن الأمين أحد هؤلاء الكبار ...

الطفل الذي أصبح رجلاً يعتز اليوم ان حسن الأمين - الإسم والشخص - كان ملازماً لوعيه، متجذراً في خاطره ينشر عبق أريجه، ويكفي طفل الأمس انه عندما كبر طالما استمتع واغتنى وسعد بلقاء حسن الأمين ذلك العالم المتواضع الذي ما بخل يوماً عليه - ولا على غيره - بمعلومة أو معرفة أو نصيحة ...

حسن الإمين، كان كتاباً مفتوحاً، تنهل منه فتزداد ظمأ، وكلما أغرقت في صفحاته أخذتك رغبة جامحة الى المتابعة، حتى إذا ظننت أنك ربما اكتفيت، أدركت أنك مازلت على الشاطئ وأن درر الأعماق تناديك .. واذ ذاك تتأكد أن حسن الأمين كان موسوعة في رجل، موسوعة فيها من الشعر والنثر والأدب والدين والتاريخ والإجتماع والثقافة؛ وتحار أنت من أي الأبواب تدخل عليه، وكل منها يناديك ويغريك!.

إحسان

دار المنهل اللبناني

هاتف: ٦٣١٦٥٤ (٠١) ٢٢٦٣٢٥ (٠٣) تلفاكس: ٢٣٣٤٣٢ (٠١)